نقولا زيادة

مدن عربية

الأعمال الكاملة

نقولا زيادة
مدن عربية

مـدن عربية

نقولا زيادة

الأعمال الكاملة

مدن عربية

الأهلية للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة
© رائد وباسم زيادة
إصدار: **الأهلية للنشر والتوزيع**
بيروت ٢٠٠٢
بيروت، لبنان ـ الحمراء ـ بناية الدورادو
ص. ب.: ٥٤٣٣ ١١٣ ـ هاتف: ٣٥٤١٥٧

المحتويات

تصدير ٩
١ ـ مراكش ١١
٢ ـ فاس ١٩
٣ ـ مكناس ٢٨
٤ ـ تطوان ٣٢
٥ ـ إشبيلية ٣٩
٦ ـ تلمسان ٤٤
٧ ـ الجزائر ٥١
٨ ـ القيروان ٥٦
٩ ـ تونس ٦٢
١٠ ـ المهدية ٦٩
١١ ـ طرابلس الغرب ٧٣
١٢ ـ القاهرة ٨٠
١٣ ـ مكة المكرمة ٩٠
١٤ ـ المدينة المنورة ٩٩
١٥ ـ صنعاء ١٠٥
١٦ ـ عكاظ ١١١
١٧ ـ دمشق ١١٧
١٨ ـ القدس ١٢٥
١٩ ـ بيروت ١٣٢
٢٠ ـ صيدا وصور ١٤٠
٢١ ـ حلب ١٤٥
٢٢ ـ حماة ومعرة النعمان ١٥١
٢٣ ـ الموصل ١٥٨
٢٤ ـ بغداد ١٦٢

تَصدير

هذه أربع وعشرون صورة، لأربع وعشرين مدينة عربية تنتشر في رقعة تمتد من مراكش إلى بغداد، وتتوزع قروناً طويلة من الازدهار.

والصورة في واقع الأمر رسمها جغرافيون ومؤرخون ورحالة عرفوا هذه الرقعة وجابوا أنحاءها وكتبوا تاريخها. فجئت انا مختاراً عباراتهم، متخيراً اقوالهم، ضامًّا اياها بعضها الى بعضها الآخر، رابطاً بينها بالقليل من قولي لتستقيم الصورة، وليتم الوصل. وبذلك يكون الحكم للمدينة أو الرواية عنها بقلم أولئك الذين عاصروها وعرفوها وخبروا امورها.

ولو أردت أن أتحدث عن كل مدينة بناها العرب أو عمّروها لطال العمل، وقصر في سبيله العمر. فهذه المدن التي تحدثت عنها وعرضت لها لا تعدو زهرات اقتطفت من حدائق واسعة، ضمت فكان منها باقة. وباستطاعة غيري أن يختار زهرات أخرى فيكون منها باقات تضم الى هذه. وارجو ان يتم ذلك.

وقد تمتعت ساعات في الجمع والترتيب والتنسيق، فأرجو ان اوفق في ان أُتيح لغيري بعض المتعة في القراءة.

بيروت ١٩٦٥

١ـ مرَّاكُش

استفحل أمر يوسف بن تاشفين بالمغرب في أواسط القرن الخامس (الحادي عشر)، وكان أشياخ المرابطين قد اتفقوا على تقديمه لفضله ودينه وشجاعته ونجدته وعدله وورعه وسداد رأيه. فلما رسخت قدمه في الملك، وعظم صيته، سمت همته إلى بناء مدينة يأوي اليها بحشمه وجنده وتكون حصناً له ولأرباب دولته. فاشترى موضع مدينة مراكش، وكان ملكاً لعجوز من المصامدة، ثم نزل الموضع المذكور بخيام الشّعر وبنى مسجداً لصلاته وقبة صغيرة لاختزان ماله وسلاحه، ولم يبن على ذلك سوراً. والذي بناه يوسف بن تاشفين سنة ٤٥٤هـ[١] [١٠٦٢] هو المعروف اليوم بسور الحجر. ولم يكن بالموضع ماء، فحفر الناس آباراً فظهر لهم الماء على قرب فاستوطنوها وبنوا بها.

ولم تزل مدينة مراكش لا سور لها إلى ان توفي يوسف بن تاشفين وولي بعده ابنه علي، فأدار عليها السور في سنة ٥٢٦ [١١٣٢]. وقد روى المؤرخون انه لما عزم علي بن يوسف بناء السور حول مراكش شاور الفقهاء، فاختلفت آراؤهم، حتى انتهى أمر المشاورة الى القاضي أبي الوليد محمد بن رشد، وكان قد قدم على السلطان بمراكش، فكان من رأيه ان يبنى السور للحفاظ على عاصمة الدولة. فاتبع علي بن يوسف رأيه، وكانت مدة البناء ثمانية أشهر[٢]، وكان الإنفاق على السور سبعين الف دينار. ثم بنى علي الجامع الأعظم المنسوب اليه، والمنار الذي عليه، وأنفق في ذلك ستين ألفاً من الدنانير.

وهكذا فقد أنشأ المرابطون مراكش، واتخذوها عاصمة لهم، وبنوا لها سوراً. فلما جاء الموحدون احتفظوا بها عاصمة لملكهم الواسع، وزادوا في عمارتها مساجد ومدارس وصوامع ومنارات لا تزال آثارها قائمة إلى اليوم. والتقليد الذي بدأه المرابطون من حيث جعل مراكش مركزاً للعلم، سار عليه الموحدون ايضاً.

فقد أنشأ علي بن يوسف مدرسة كبيرة، هي التي تعرف اليوم بالجامعة اليوسفية، بحيث تعبر عن العنصر المغربي الأصيل علماً وفكراً، فلا تكون عالة على القيروان او الأندلس. كان تأسيس هذه الجامعة سنة ٥١٤ (١١١٦) على أشهر الأقوال. وكان الطلبة يتلقون فيها التفسير والفقه والأصول والنحو واللغة. ويبدو ان «تفسير الطبري، و«موطأ مالك و«صحيح مسلم» وتصانيف ابن رشد وكتاب سيبويه و«الايضاح

والمخصص والمحكم» ومؤلفات ابن سينا كانت الكتب المعتمدة في معهد يوسف. وقد جاء على ألسنة المؤرخين قولهم «وجاءت دولة المرابطين فجمعت ما كان متفرقاً بالمغرب من كلمة الاسلام وتمسكوا بالسنة .... وعظم أمر الفقهاء .... وانصرفت وجوه الناس اليهم، فكثرت لذلك اموالهم واتسعت مكاسبهم .... ولم يكن يقرب من أمير المؤمنين ويحظى عنده إلا من علم علم الفروع ... فنفقت في ذلك الزمان كتب المذهب وعمل بمتقضاها ونبذ ما سواها».

وجاءت دولة الموحدين في مطلع القرن السادس (الثاني عشر)، فلما انتهى الأمر إلى عبد المؤمن، وهو أول من لقب «أمير المؤمنين» في المغرب، عمل على تزيين مراكش بناء وعلماً فأمر «ببناء المسجد الجامع بحضرة مراكش ... فبدىء ببنائه وتأسيس قبلته في العشر الأول من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وخمسين وخمسمئة [١١٥٨] . وكمل في منتصف شعبان من السنة المذكورة على أكمل الوجوه وأغرب الصنائع وأفسح المساحة واحكم البناء والنجارة. وفيه من شمسيات الزجاج ودرجات المنبر وسياج المقصورة ما لو عمل في السنين العديدة لاستغرب تمامه، فكيف في هذا الأمد اليسير الذي لم يتخيل أحد من الصناع ان يتم فيه تقديره وتخطيطه فضلاً عن بنائه. وصليت فيه صلاة الجمعة في منتصف شعبان المذكور»[٣].

وكان ان وصل الى عبد المؤمن المصحف العثماني الذي كان بقرطبة، فكتب ابن طفيل رسالة لطيفة بيّن فيها ما بذل من الجهد والصنعة والفن في اختيار كسوة المصحف الشريف، جاء فيها قوله:

«ثم انهم أدام الله سبحانه تأييدهم، ووصل سعودهم، لما أرادوا من المبالغة في تعظيم المصحف المذكور واستخدام البواطن والظواهر فيما يجب له من التوقير والتعزيز، شرعوا في انتخاب كسوته، وأخذوا في اختيار حليته، وتأنقوا في استعمال أحفظته، وبالغوا في استجادة أصونته، فحشروا له الصناع المتقنين ممن كان بحضرتهم العليّة، وسائر بلادهم القريبة والقصيّة. فاجتمع لذلك حذاق كل صناعة ومهرة كل طائفة من المهندسين والصوّاغين والنظّامين والحلاّئين والنقّاشين والمرصّعين والنجّارين والزوّاقين والرسّامين والمجلّدين وعرفاء البنّائين. ولم يبق من يوصف ببراعة، وينسب الى الحذق في صناعة، الا احضر للعمل فيه، والاشتغال بمعنى من معانيه، فاشتغل أهل الحيل الهندسية بعمل أمثلة مخترعة، وأشكال مبتدعة، وضمّنوها من غرائب الحركات، وخفّي امداد الأسباب للمسببات، ما بلغوا فيه منتهى طاقتهم، واستفرغوا فيه جهد قوتهم ... مما صنع للمصحف العظيم، من الاصونة الغريبة، والأحفظة العجيبة، انه كسي كله بصوان واحد من الذهب والفضة ذي صنائع غريبة، من ظاهره وباطنه، لا يشبه بعضها بعضاً، قد أجري فيه من ألوان الزجاج الرومي ما لم يعهد له في العصر الأول مثال ولا عمر قبله بشبهه خاطر ولا بال، وله

مفاصل تجتمع إليها أجزاؤه وتلتئم، وتتناسق عجائبه وتنتظم، قد أميلت للتحرك أعطافها، وأحكم انشاؤها على البغية وانعطافها، ونظّم على صحيفته وجوانبه من فاخر الياقوت ونفيس الدرّ وعظيم الزمرد ما لم تزل الملوك السالفة، والقرون الخالفة، تتنافس في أفراده، وتتوارثه على مرور الزمن وترداده، وتظن العزّ الأقعس، والملك الأنفس، في ادخاره واعداده، وتسمي الواحد منها بعد الواحد بالاسم العلم لشذوذه في صنعه واتحاده، فانتظم عليه منها ما شاكله زهر الكواكب في تلألئه واتقاده، وأشبهه الروس المزخرف غبّ سماء أقلعت عن امداده، وأتى هذا الصِّوان الموصوف رائق المنظر، آخذاً بمجامع القلب والبصر، مستولياً بصورته الغريبة على جميع الصور، يدهش العقول بهاء، ويحير الألباب رواء، ويكاد يغشي الناظر تألقاً وضياء ... وكسي المصحف العزيز بصوان لطيف من السندس الأخضر، ذي حلية عظيمة خفيفة تلازمه في المغيب والمحضر، ورتّب ترتيباً يتأتى معه أن يكسى بالصوان الأكبر، فيلتئم به التئاماً يغطي على العين من هذا الأثر. وكمل ذلك كله على أجمل الصفات وأحسنها، وأبدع المذاهب وأتقنها، وصنع له محمل غريب الصنعة، بديع الشكل والصبغة، ذو مفاصل ينبو عن دقتها الإدراك، ويشهد بها الارتباط بين المفصلين ويصحّ الاشتراك، مغشّى كله بضروب من الترصيع، وفنون من النقش البديع، في قطع الابنوس والخشب الرفيع، لم تعمل قط في زمن من الأزمان، ولا انتهت قط الى أيسره ثواقب الأذهان. مدار بصنعة قد أجريت في صفائح الذهب، وامتدت دوائب الشهب، وصنع لذلك المحمول كرسي يحمله عند الانتقال، ويشاركه في أكثر الأحوال، مرصّع مثل ترصيعه الغريب، ومشاكل له في جودة التقسيم وحسن الترتيب، وصنع لذلك كله تابوت يحتوي عليه احتواء المشكاة على أنوارها، والصدور على محفوظ امكارها، مكعّب الشكل، سام في الطول، حسن الجملة والتفصيل، بالغ ما شاء من التتميم في أوصاله والتكميل، جار مجرى المحمل في التزيين والتجميل، وله في أحد غواربه باب ركّبت عليه دفّتان قد أحكم ارتاجهما، ويسر بعد الابهام انفراجهما، ولانفتاح هذا الباب وخروج الكرسي من تلقائه، وتركب المحمل عليه، ما دبّرت الحركات الهندسية»[٤].

لكن عصر الموحدين الذهبي الذي جمَّل مراكش، كما جمَّل غيرها، ورفع من شأنها وخلد ذكرها، هو عصر المنصور يعقوب بن يوسف. ففي ايامه وفد على مراكش ابن طفيل وابن رشد، كما كان ابن زهر قد وفد على عبد المؤمن. وكما بنى عبد المؤمن جامع الكتبية، فقد أنشأ المنصور منارته التي كانت تبلغ مئة وعشرة اذرع ارتفاعاً. وخرج المنصور الى الاندلس ثم عاد فوجد الجامع قد بني على خير ما اراد. واتخذ في جامعه للصلاة مقصورة عجيبة كانت مدبرة بحيل هندسية بحيث تنصب اذا استقر المنصور ووزراؤه بمصلاه منها، وتختفي اذا انفصلوا عنها.

وقد روي ان ابن مجير الشاعر صادفت إحدى وفاداته وقد فرغ من «احداث المقصورة التي كان احدثها بجامعه المتصل بقصره في حضرة مراكش، وكانت قد وضعت على حركات هندسية ترتفع بها لخروجه وتنخفض لدخوله، وكان جميع من بباب المنصورة يومئذ من الشعراء والادباء قد نظموا اشعاراً انشدوه اياها في ذلك، فلم يزيدوا على شكره وتجزيته الخير فيما جدد من معالم الدين وآثاره، ولم يكن فيهم من تصدى لوصف الحال حتى قدم أبو بكر بن مجير فأنشد قصيدته التي أولها:

اعلمتني ألقي عصا التسيار ... في بلدة ليست بدار قرار

واستمر فيها حتى ألم بذكر المقصورة التي أولها:

طوراً تكون بمن حوته محيطة ... فكأنها سور من الأسوار
وتكون حيناً عنهم مخبوءة ... فكأنها سر من الاسرار
وكأنها علمت مقادير الورى ... فتصرفت لهم على مقدار
فاذا احست بالامام يزورها ... في قومه قامت إلى الزوار
يبدو فتبدو ثم تخفى بعده ... كتكوّن الهالات للأقمار[٥]

وعمل الموحدون على تنمية الشخصية العالمية للمغرب، فأنشأوا مؤسسات تعليمية كثيرة، منها بيت الطلبة بمراكش. وقد اخرج الاستاذ عثمان الكعاك انه كان في المدرسة الادارية ثلاثة آلاف طالب يقرأون كتب المهدي بن تومرت ويتعلمون الفنون الحربية وما الى ذلك. ويقول: ينقسم الطلبة المغاربة في العهد الموحدي الى ثلاث طبقات:

١ ـ الطلبة ابناء الأُمراء يتعلمون في مدرسة الامراء الملوكية ليترسم بعضهم الى الوظائف الملوكية العليا من الإمارة الى الوزارة.
٢ ـ الطلبة المصامدة الذين هم من قبيلة مصمودة البربرية قبيلة الموحدين. وهؤلاء وعددهم يزيد على ثلاثة آلاف يتعلمون في المدرسة الادارية تعلماً خاصاً ليتخرجوا في الوظائف الدولية.
٣ ـ طلبة الحضر أو البلدية أي طلبة برجوازية المدن وهم يتعلمون في بعض الوظائف الشرعية دون الوظائف الادارية المخزنية.

ولكل صنف من الثلاثة رئيس أو مقدم أو مزوار يسمى سلطان الطلبة ينتخب على عام عادة[٦].

وكما عني الموحدون بالعلم عنوا بصحة القوم. فقد بنى المنصور مستشفى عظيماً في مراكش، قال صاحب المعجب في وصفه:

«وبنى بمدينة مراكش مارستاناً ما أَظن ان في الدنيا مثله، وذلك أَنه تخيّر ساحة فسيحة بأعدل موضع في البلد، وأَمر البنائين باتقانه على احسن الوجوه فأتقنوا فيه

من النقوش البديعة والزخاريف المحكمة ما زاد على الاقتراح، وأمر ان يغرس فيه مع ذلك من جميع الاشجار والمشمومات والمأكولات، واجرى فيها مياهاً كثيرة تدور على جميع البيوت، زيادة على أربع برك في وسطه، احداها رخام ابيض. ثم أمر له من الفرش النفيسة من انواع الصوف والكتان والحرير والأَديم وغيره بما يزيد على الوصف ويأتي فوق النعت، واجرى له ثلاثين ديناراً في كل يوم برسم الطعام وما ينفق عليه خاصة، خارجاً عما جلب اليه من الادوية واقام فيه من الصيادلة لعمل الاشربة والادهان والاكحال، واعد فيه للمرضى ثياب ليل ونهار للنوم من جهاز الصيف والشتاء، فاذا نقه المريض فان كان فقيراً امر له عند خروجه بمال يعيش به ريثما يستقل، وإن كان غنياً دفع اليه ماله وتركه وسببه، ولم يقصره على الفقراء دون الاغنياء بل كل من مرض بمراكش من غريب حمل اليه وعولج الى ان يستريح أو يموت. وكان في كل جمعة بعد صلاته يركب ويدخله يعود المرضى ويسأل عن أهل بيت بيت، يقول: كيف حالكم وكيف القومة عليكم الى غير ذلك من السؤال، لم يزل مستمراً على هذا الى ان مات رحمه الله»[٧].

وكان بستان المسرة من متع مراكش ومباهجها. «وهو بستان احدثه عبد المؤمن بضاحية مراكش، طوله فيما يقول ابن عذاري وصاحب الحلل ثلاثة اميال وعرضه قريب من ذلك. وكان فيه كل فاكهة تشتهى، وجلب اليه الماء من أغمات زيادة على ما استنبط له من العيون الكثيرة. وأَنشأ فيه صهريجاً واسعاً كالبحيرة كان يمرّن فيه الجنود وشيوخ الموحّدين على العوم والتجذيف كما في الحلل. وهذا الصهريج هو المعروف بالمنارة الكائن في اكدال بمراكش. قال ابن اليسع: «وما خرجت انا من مراكش في سنة ثلاث واربعين وخمسمائة [١١٤٨] الا وهذا البستان الذي غرسه عبد المؤمن يبلغ مبيع زيتونه وفواكهه ثلاثين الف دينار مؤمنية على رخص الفاكهة بمراكش». قال الناصري: «ودعاه ابن عذاري ببستان المسرّة وقال انه يظاهر جنان الصالحة. ولشهرة هذا البستان وموقعه من الناس لهجت به صبيانهم»[٨].

اشرف ابن الخطيب على مراكش فقال يصفها:

ماذا احدّث عن بحر سبحت به ... من البحار فلا اثم ولا حرج
دحاه مبتدع الأشياء مستويًا ... ما ان به درك كلا ولا درج
حتى اذا ما المنار الفرد لاح لنا ... صحت ابشري يا مطايا جاءك الفرج
قربت من عامر داراً ومنزلة ... والشاهد العدل هذا الطيب والارج

وبعد أن تأمل ما كانت عليه ايام الموحدين، وما آل اليه أَمرها اذ اتخذ بنو مرين فارس عاصمة لهم، قال معتبراً:

بلد قد غزاه صرف الليالي ... وأباح المصون منه مبيح

فالذي خرّ من بناه قتيل ... والذي خرّ منه بعض جريح
وكأن الذي يزور طبيب ... قد تأتى له بها التشريح
اعجمت منه اربع ورسوم ... كان قدما بها اللسان الفصيح
كم معان غابت بتلك المغاني ... وجمال اخفاه ذاك الضريح
وملوك تعبّدوا الدهر لما ... اصبح الدهر وهو عبد صريح
دوّخوا نازح البسيطة حتى ... قال ما شاء ذابل وصفيح
حيث شبّت لهم من البأس نار ... ثم هبّت لهم من النصر ريح
أثر يندب المؤثر لما ... طال بعد الدنو منه النزوح
ساكن الدار روحها كيف يبقى ... جسد بعد ما تولى الروح

لكن السعديين، الذين قامت دولتهم في النصف الثاني من القرن العاشر (السادس عشر)، عادوا الى مراكش، وعاد بذلك الاهتمام بها. ولعلّ خير ما يمثل هذه العناية هو عصر احمد المنصور الذهبي، الذي تمّ فيه بناء القصر البديع، وقد خلّف لنا الافراني وصفاً لطيفاً لهذا القصر في عبارة لطيفة. قال في مناهل الصفا «كان السبب الحامل للمنصور على بناء البديع وانفاقه فيه جلائل الأموال ونفائس الذخائر هو انه أراد ان تكون لأهل البيت به مأثرة وشفوف على دولة البرابر وغيرهم من المرابطين والموحدين ومن بعدهم من بني مرين، فكان كل من أهل تلك الدول ابقى بناء يحيي به ذكره ولم يكن لأهل البيت في ذلك المعنى شيء تزداد به حظوتهم مع انهم احق الناس بالمجد الأصيل والسؤدد الأثيل فتصدى لبنائه بقصد تشريف أهل البيت لأن البناء كما قيل في فوائده:

«هم الملوك اذا ارادوا ذكرها ... من بعدهم فبألسن البنيان
ان البناء اذا تعاظم شأنه ... اضحى يدلّ على عظيم الشان»

ولما عزم على الشروع فيه احضر اهل العلم ومن يتسم بالصلاح فتحينوا أوان الابتداء ووقت الشروع فيه فكان ابتداء الشروع في تأسيسه في شوّال خامس الأشهر من خلافته عام ستة وثمانين وتسعمائة (١٥٧٨). واتصل العمل فيه الى عام اثنين والف ولم يتخلل ذلك فترة. وحشد له الصناع حتى من بلاد الافرنجة فكان يجتمع كل يوم فيه من ارباب الصنائع ومهرة الحكماء خلق كثير حتى كان ببابه سوق عظيم يقصده التجار ببضائعهم ونفائس اعلاقهم. وجلب له الرخام من بلاد الروم فكان يشتريه منهم بالسكر وزناً بوزن. وكان المنصور قد اتخذ معاصر للسكر ببلاد حاحة وشيشاوة وغيرهما حسبما ذكره الفشتالي في مناهل الصفا. واما جبصه وجيره وباقي انقاضه فانها جمعت من كل جهة وحملت من كل ناحية حتى انه وجدت بطاقة فيها ان فلاناً دفع صاعاً من جير حمله من تنبكتو وظّف عليه في غمار الناس. وكان المنصور مع ذلك

يحسن الى الاجراء غاية الإحسان ويجزل صلة المعلمين بالبناء ويوسع عليهم في العطاء ويقوم بمؤن اولادهم كَي لا تتشوق نفوسهم وتتشعب افكارهم. وهذا البديع دار مربّعة الشكل وفي كل جهة منها قبة رائقة الهيئة واحتف بها مصانع أُخر من قباب وقصور وديار فعظم بذلك بناؤه وطالت مسافته. ولا شك ان هذا البديع من احسن المباني واعجب المصانع يقصر عنه شعب بوّان وينسى ذكر غمدان ويبخس الزهراء والزاهرة ويزري بقباب الشأم واهرام القاهرة. وفيه من الرخام المجزع والمرمر الأبيض المفضض والأسود ما يحير الفكر ويدهش النظر. وكل رخامة طلي رأسها بالذهب الذائب وموّه بالنضار الصافي، وفرشت أرضه بالرخام العجيب النحت الصافي البشرة. وجعل في أَضعاف ذلك الزليج المنوع التلوين حتى كأنه خمائل الزهر او برد موشى من عمل صنعاء وتستر. واما سقوفه فتجسم فيها الذهب وطليت الجدارات به مع بديع النقش ورائق الرقم لخالص الجبص، فتكاملت فيه المحاسن واجري بين قبابه ماء غير آسن وبالجملة فان هذا البديع من المباني المتناهية البهاء والإشراق، المباهية لزوراء العراق، ومن المصانع التي هي جنة الدنيا وفتنة المحيا ومنتهى الوصف وموقف السرور والقصف، وفي ذلك قيل:

كل قصر بعد البديع يذم ... فيه طاب المجنى وطاب المشم
منظر رائق وماء نمير ... وثرى عاطر وقصر اشم
إن مراكشا به قد تباهت ... مفخراً فهي للعلا الدهر تبسم

وفيه من الأَشعار المرقومة في الاستار والابيات المنقوشة في الخشب والزليج والجبص ما يسرّ الناظر ويروق المتأمل ويبهر العقول وعلى كل قبة ما يناسبها وفي بعض القباب ما فخرة على لسانها لمقابلتها».

وفي هذا القصر كان يحتفل بالمولد الشريف. ومن حسن حظنا ان ترك لنا التمغروتي وصفاً لواحد من هذه الاحتفالات قال:

«حضرت المولد الشريف بعد القفول من بلاد الترك فاستدعى المنصور الناس لأوانه السعيد واستدخلهم لقصره البديع المشيد، المحتوي على قباب متقابلة عالية وقد مدّ فيها ومهّد من فرش الحرير وصفّت النمارق، وتدلت الاستار والكلل والحجال المخوّصة بالذهب على كل باب قبة وحنية كان سرير، ودار على الحيطان حائطيات الحرير التي هي كأزهار الخمائل ما رئيت قط في عهد الأوائل. وتلك القباب مرفوعة الجوانب على قواعد وأساطين من رخام مجزع مطلية الرؤوس بالذهب الذائب مفروش جلّها بالمرمر الأبيض المخطط بالسواد، يتخلل ذلك ماء عذب فيدخل الناس على طبقاتهم ويأخذ كل منهم مرتبته من قضاة وعلماء وصلحاء ووزراء وقوّاد وكتّاب وأضياف وأجناد يتخيل لكل واحد منهم انه في جنة النعيم. والسلطان جالس في أفخر ملابسه تعلوه الهيبة والوقار وترمقه الاعين والأبصار بالتعظيم والاكبار. ويجلس من

عادته الجلوس ويقف على رأس السلطان الوصفان والعلوج وعليهم الأقبية المخوّصة والمناطق المرصعة والحزم المذهبة مما يدهش الناظر. وركز أمامهم الشمع الملون وأذن لعامة الناس فدخلوا من أصناف القبائل على اجناسها من الأجناد والطلبة، وسكنت بعد حين الجلبة، واتي بانواع الطعام في القصاع المالقية والبلنسية المذهبة والأواني التركية والهندية واتي بالطوس والأباريق وصبّ الماء على أيدي الناس ونصبت مباخر العنبر والعود وابرزت صحائف الفضة والذهب واغصان الريحان الغضّ فرش بها من ماء الورد والزهر ما يبقي منه الأثر. وتكلم المنشدون واحسن لهم الامير ثم ختموا المجلس بالدعاء للسلطان. واذا كان يوم السابع يكون ترتيب أبدع من الاول وهذه كانت سيرته دائماً».

ولن تعدم الحسناء ذاما. ولذلك لم يكن غريباً ان نعثر في الادب العربي من نظم الشعر بذم مراكش كما ذم غيره غيرها. وهذه المقطوعة ننقلها هنا لطرافتها، وهي من حيث الزمن ترجع الى أواخر القرن العاشر (السادس عشر) قال صاحبها:

ما كان ظني وحق الله فرقتكم ... لو ان مراكشاً كانت تواتيني
اظل في نصب مما اكابد من ... نفض الغبار ومن طرد الذبابين
وطول ليلي في كد وفي تعب ... ما بين بق ونامـوس يناغيني
ابيت احرس فرشي من عقاربها ... والقلب في فكر منها وتخمين
اذا رأيت سواداً مرّ بي وأتى ... ظننتها عقرباً دبّت لتؤذيني
لم يبق في الفم ضرس استعد به ... افناه مضغ الحصى في الطواحين
منوا علي باطلاقي بفضلكم ... هذا العجاج بها قد كاد يعميني
لم يبق في الكيس فلس استعين به ... افنيت مالي في غسل وتصبين

الهوامش

(١) ليفي بروفنسال، أ: نخب تاريخية، باريس، مطبعة لاروز، ١٩٤٨، ص ٣٢.
(٢) نفس المكان، ص ٣٢.
(٣) الناصري، ابو العباس أحمد: الاستقصا لاخبار دول المغرب الأقصى، الدار البيضاء، دار الكتاب، ١٩٥٥، ج ٢ ص ١١٤.
(٤) كنون، عبد الله: النبوغ المغربي، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٦٠، ج ١ ص ١٤٠-١٤١.
(٥) الاستقصا، ج ٢، ص ١٧٥.
(٦) الكعاك، عثمان: مراكز الثقافة في المغرب، القاهرة، المطبعة الكمالية، ١٩٥٨؟
(٧) النبوغ المغربي، ج ١، ص ١٣٨-١٣٩.
(٨) نفس المكان، ج ١، ص ١٣٩.

٢ـ فَاس

أُسست فاس في أيام ادريس الأكبر سنة ١٧٢ (٧٨٨)، وذلك بعد ان ضاقت وليلي به وبجماعته وبمن وفد عليه من أهل المنطقة. ويبدو ان النقود ضربت في فاس هذه سنة ١٨٩ (٨٠٥). وبعد ذلك بمدة ذهب ادريس الأكبر إلى فاس ليستوطنها. ولما كان مولعاً بالبناء والتجديد، على غرار ما عرف عن كبار أهل الحكم في العالم الاسلامي، فقد بنى هو الآخر مدينة جديدة على الطراز الشرقي الإفريقي وذلك في سنة ١٩٣ (٨٠٩). وسميت أولاً العالية. لكن بسبب كثرة من رحل اليها من القيروان وما اليها فقد عرفت فيما بعد باسم مدينة القرويين.

وفي سنة ٢٠٢ (٨١٧) قدم إلى ادريس الأزهر القرطبيون المعروفون باسم «ثوار الربض». ذلك ان ثورة قامت في قرطبة ضد الحكم أميرها، فقام الحكم بإخمادها وفرّق الثوار ثم أمر من بقي منهم، وهم كثرة، بالخروج من الاندلس .. فانصرف بعضهم إلى فاس. فتلقاهم ادريس هناك، واستقروا على الضفة الشرقية من النهر، وانشأوا تدريجاً مدينة اندلسية الشكل والنمط، وهي التي سميت فيما بعد مدينة الأندلسيين او عدوة الأندلس[١].

ولما تمّ للإمام الأكبر ادريس بناء مدينته، وحضرت الجمعة الأولى، صعد المنبر وخطب الناس، ثم رفع يديه في آخر الخطبة وقال: «اللهم انك تعلم اني ما اردت ببناء هذه المدينة مباهاة ولا مفاخرة ولا رياء ولا سمعة ولا مكابرة. وانما اردت ان تعبد بها ويتلى بها كتابك وتقام بها حدودك وشرائع دينك وسنة نبيك محمد ﷺ ما بقيت الدنيا. اللهم وفق سكانها وقطانها للخير وأعنهم عليه واكفهم مؤونة اعدائهم وادر عليهم الرزق واغمد عنهم سيف الفتنة والشقاق انك على كل شيء قديراً[٢]».

ومما يتصل بفاس، وان كان تأخر عن بناء المدينة قليلاً، إنشاء جامع القرويين. وقد روى خبر بنائه ابن القاضي في جذوة الاقتباس قال:

«ذكر أبو القاسم بن جنّون وغيره في تأريخ فاس أنه لما كثر الواردون عليها في أيام يحيى بن ادريس كان ممن قدم عليها ووفد إليها من القيروان محمد بن عبد الله الفهري، ونزل بعدوة القرويين مع أهل بلده الذين وفدوا معه. فمات وترك ابنتين وهما فاطمة المدعوة بأم البنين ومريم. وتحصّل لهما بالارث مال كثير طيّب من والدهما. ورغبتا ان تصرفاه في وجوه من أعمال البر فأعلمتا باحتياج الناس الى جامع كبير في

كل عدوة من فاس لضيق الجامعين القديمين بالناس. فشرعت فاطمة في بناء جامع القرويين ومريم في بناء جامع الأندلس؛ أما جامع القرويين فكان الشروع في حفر أساسه والأخذ في أمر بنائه يوم السبت مهلّ شهر رمضان المعظّم من عام خمسة وأربعين ومائتين، وكان بموضعه الذي بني فيه أرض لمعمر الخضر وفيها أشجار لرجل من هوارة كان قد حاز ذلك أبوه بوجه جائز صحيح، حين أسست المدينة حرسها الله بمنّه، فاشترتها منه فاطمة المذكورة ودفعت ثمنها من مالها الحاصل لها بالميراث من أبيها، وتطوّعت ببناء الجامع المذكور. فحفر في أرضه وأخذ منه التراب والكذان لبنيانه وحفرت فيها بئر لأخذ الماء لبنيانها ونصبت قبلته على نحو قبلة جامع الشرفاء الذي أسسه ادريس بن ادريس بعد مشورة أهل العلم واجتهادهم في ذلك. وبني من أربعة بلاطات من قبلة إلى جوف في كل بلاط اثنا عشر قوساً من شرق الى غرب. وجعل محرابه بمقدّم البلاط الذي أمام الثريا الكبرى اليوم وجعل بمؤخره صحن صغير وصومعة حيث العنزة اليوم. وتم على نحو ما أرادته وذلك بمطالعة الأمير يحيى. ولم تزل صائمة من يوم أسس الى ان كمل وصلت فيه شكراً لله تعالى الذي وفّقها لذلك، ولم يزل على نحو ما ذكر في أيام الأَدارسة الى ان اتصلت العمارة واتصل البناء في أرض المدينة من سائر الجهات وجرى أمر زناتة في أرض المغرب في سنة سبع وثلاثمائة فأزيلت الخطبة من جامع الشرفاء وأقيمت بجامع القرويين لاتساعه وكبره. فصنع له منبر من خشب الصنوبر وكان أول خطيب خطب عليه بها الشيخ الصالح أبو محمد عبد الله ابن علي الفارسي وإن الذي أقام الخطبة إذ ذاك هو الأمير حامد بن حمدان الهمذاني عامل عبد الله الشيعي على بعض بلاد المغرب بعد أن كان تغلّب عليها مصاله بن حبوس القائم بدعوة الشيعي، ولم يزل كذلك الى ان تقوى ظهور زناتة بالمغرب فاستدعاه الناصر لدين الله عبد الرحمن المرواني ملك الاندلس. ثم لما ولي عليها عاملاً له من زناتة يعرف بأحمد بن أبي بكر الزناتي وكان من أهل الفضل والدين كتب الى الناصر يستأذنه في بناء الجامع وإصلاحه والزيادة فيه لحاجة الناس الى ذلك فأذن له وبعث إليه بمال كثير من اخماس غنائم الروم وأمره ان يصرفه فيه، فأصلحه وزاد فيه أربعة [أربع] بلاطات من الغرب وخمسة [خمس] من الشرق وثلاثة [ثلاث] من الجوف في موضع الصحن الذي كان فيه وجعل بمؤخر الصحن الذي به الآن وفي غرب هذا الصحن بلاطين وفي شرقه كذلك وفي جوفه بلاطاً واحداً بعد ان هدم الصومعة التي كانت به وبنى الصومعة التي به الآن. ولما شرع في بنائها جعل سعة كل وجه منها إحدى وعشرين شبراً ويصعد لها على مائة درجة ودرجة بابها من جهة القبلة، وغشيت بعد ذلك بصفائح النحاس الاصفر. وتمّ العمل في بنائها في شهر ربيع الاول من سنة خمس وأربعين وثلاثمائة حسبما كتب في التربيعة المنقوشة بها من

جهة الصحن وجعل في أعلاها قبة صغرى ووضع في ذروتها تفافيح مموّهة من ذهب في زج من حديد، وركّب في الزج المذكور سيف الامام ادريس الذي أسس المدينة[٣]».

الا ان مدينة فاس تقدمت واتسعت في أيام بني مرين اذ اتخذوها عاصمة لملكهم لما استقر أمرهم في البلاد. والذي يعود اليه الفضل في إنشاء الدولة والعاصمة الجديدة لها هو ابو يوسف. فانه «لما عزم أمير المسلمين ابو يوسف على بناء مدينة يتخذها دار ملكه وقرار سلطانه ويسكنها هو وحاضرته وحشمه، ركب يوم الأحد الثالث لشوّال من سنة أربع وسبعين وستمائة [٢٩ حزيران ١٢٢٣] وخرّج معه العرفاء والبنائين وأهل المعرفة بالصنائع فتخيروا موضعها على وادي فاس وشرع في حفر أساسها. واخذ طالع ذلك الفقيه المعدّل ابو الربيع سليمان العيّاش وابو عبد الله محمد بن الحبّاك وكان تأسيسها في طالع سعيد ووقت يمن وبركة ومزية دل على طول بقائها وكثرة عمارتها واتصال خيراتها وما يجيء اليها من الأموال؛ فكانت والحمد لله مدينة مباركة فاتخذها دار ملكه وملك بنيه وعقبه من بعده يجيء اليها جميع خراج المغرب. ومن بركتها وسعادتها ويمن طالعها انها لا يموت فيها خليفة وانها لم يخرج منها قط جيش الا ظفر ولم يعقد قط بها لواء الا نصر. ومصداق ذلك ان أمير المسلمين أبا يوسف الذي اختّطها وبناها وشيّدها وبنى أسوارها وجامعها واسواقها واتخذها دار ملكه وقرار سلطانه توفي رحمه الله غائباً عنها في المدينة التي بناها أمام الجزيرة الخضراء من بلاد الاندلس؛ ثم ولده الخليفة بعده امير المسلمين أبو يعقوب توفي بقصره في بلدته الجديدة التي بناها بتلمسان وهو محاصر لها فاستوطنها ومتّنها واتخذها حضرته إلى ان توفي بها. وكذلك حفيده الخليفة بعده وهو الأمير ابو عبد الله بن ابي يعقوب المذكور توفي بقصره بقصبة طنجة وكذلك أخوه الوالي بعده ابو الربيع سليمان فانه توفي أيضاً بقصبة رباط تازا. ولما تمّ سور هذه المدينة السعيدة فاس الجديد بالبناء امر ببناء الجامع الكبير بها للخطبة فبني على يد ابي عبد الله بن عبد الكريم الجدودي وابي علي بن الأزرق والي مكناسة والنفقة فيه من مال معصرة مكناسة. ولم يخدم في بناء هذا الجامع الكبير مع المعلمين إلا اسرى الروم الذين قدم بهم من الأندلس. وفي شهر رمضان من سنة سبع وسبعين وستمائة [٦ كانون الثاني ١٢٧٩] تمّ الجامع المذكور بالبناء وصلّى فيه؛ وفيها ابتدىء بعمل منبره الذي به الآن على يد المعلم الغرناطي الرّصاع. وأول خطيب خطب به الفقيه المحدّث ابو عبد الله محمد بن أبي زرع؛ وفي اول جمعة من شهر رمضان المعظم من سنة ثمان وسبعين وستمائة [١٢٨٠] تمّ المنبر بالعمل وخطب عليه، وفي يوم السبت السابع عشر لشهر ربيع الأول من سنة تسع وسبعين وستمائة [١٢٨١] علّقت الثريا الكبرى بالجامع المذكور، وزنها سبعة قناطير وخمسة عشر رطلاً، وعدد كؤوسها مائة كأس وسبعة وثمانون كأساً. وكان الصانع لها المعلّم الحجازي، والانفاق فيها من جزية اليهود. وفي

شهر رمضان من سنة تسع المذكورة بنيت المقصورة بالجامع المذكور وفيها بني في المدينة المذكورة الأسواق من باب القنطرة الى باب عيون صنهاجة وبنى بها حمّاماً عظيماً وأمر رحمه الله عمّاله ووزراءه ببناء الديار بها فبنى كل واحد منهم داراً[٤]».

ولبني مرين يرجع الفضل في تقوية مركز المدينة علميًا. فقد وسع ابو عنان خزانة القرويين وبنى المدرسة البوعنانية. وقد جاء في جنى زاهرة الآس «واما خزانة الكتب التي يدخل اليها من أعلى المستودع الذي بها فانه لما كان من رأي ابي عنان رحمه الله تعالى حبّ العلم وايثاره والاهتمام به والرغبة في انتشاره والاعتناء باهله ومتحمليه والتودّد لقرّائه ومتحليه، انتدب لصنع هذه الخزانة وأوسع على طلبة العلم بأن اخرج لها من الكتب المحتوية على انواع من علوم الابدان والاديان واللسان والأذهان وغير ذلك من العلوم على اختلافها وتنوّع ضروبها واجناسها ووقفها ابتغاء الزلفى ورجاء ثواب الله الأوفى، وعيّن لها قيّماً لضبطها ومناولة ما فيها وتوصيلها لمن له رغبة، واجرى له على ذلك جراية مؤيدة تكرمة وعناية وذلك في جمادى الأولى سنة خمسين وسبعمائة. واما خزانة المصاحف التي امر بها مولانا امير المؤمنين ابو عنان رحمه الله تعالى في قبلة هذا الجامع الناطقة بالخير الجامع انشى على حسنها ما لم يسبقه اليها أحد من ايمة هذه الأصقاع فانه رحمه الله تعالى صوّرها في ذهنه الثاقب المبين ثم أبرزها لمن صنع شخصها الجليل الحصين فأبدى من ذلك ما هو المعهود من حسناته المأثورة وسهّل بها على الناس تلاوة القرآن في كل وقت من الأزمان. وأعدّ فيها جملة كثيرة من المصاحف الحسنة الخطوط البهية الجليلة السنية وأباحها لمن أراد التلاوة فيها بعد ان كتب على كل شخص منها بخط يده لتوقيعها مرّ الأعوام والليالي والأيام ونجز لها من قيّد لاخراجها من هذه الخزانة وإبرازها وردّها لصيانها في موضعها واحرازها، وذلك عند الفراغ من حاجة الناس اليها فلا يبدل ذلك ولا يغير إلى ان يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين. واجرى لذلك جراية واسعة وكرامة ورعاية، وكتب فوق هذه الخزانة ما نصّه: الحمد لله؛ أمر بانشاء هذه الخزانة السعيدة مولانا امير المؤمنين المتوكّل على ربّ العالمين عبد الله فارس، ايّد الله امره واعزّ نصره، بتأريخ شهر شوّال سنة سبعين وسبعمائة [١٣٦٩] رزقنا الله خيرها. واما زاوية القرّاء البهية التي امر بها مولانا المستعين رحمه الله في شرقي هذا الجامع مسافتها على ساباط هنالك وجعل لقبليّها وجوفها من صناعة الخرط والتزيين بالاصبغة ما يهيم به المارّ والسالك، ورتب فيها قرّائين يتلون القرآن ويجتهدون بطول السبعة ايام وعلى مرّ الأزمان[٥]».

ولأبي سعيد المريني فضل على المدارس كبير، فقد أنشأ المدرسة العظمى. «وفي سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة (١٣٢٣) في فاتح شعبان منها امر السلطان ابو سعيد ايضاً ببناء المدرسة العظمى بازاء جامع القرويين بفاس وهي المعروفة اليوم

بمدرسة العطارين، فبنيت على يد الشيخ ابي محمد عبد الله بن قاسم المزوار، وحضر السلطان ابو سعيد بنفسه في جماعة من الفقهاء وأهل الخير حتى أسست وشرع في بنائها بمحضره، فجاءت هذه المدرسة من أعجب مصانع الدول بحيث لم يبن ملك قبله مثلها، وأجرى بها ماء معيناً من بعض العيون هنالك وشحنها بالطلبة ورتب فيها إماماً ومؤذنين وقومه يقومون بامرها، ورتب فيها الفقهاء لتدريس العلم واجرى على الكل المرتبات والمؤن فوق الكفاية، واشترى عدة املاك ووقفها عليها احتساباً بالله تعالى. وسيأتي التنبيه على ما بناه ابنه ابو الحسن من ذلك ايام ولايته وحافده ابو عنان وغيرهما ان شاء الله، وبالجملة، فقد كان لبني مرين جنوح الى الخير ومحبة في العلم وأهله تشهد بذلك آثارهم الباقية الى الآن في مدارسهم العلمية وغيرها[٦]».

ومع ان عصر فاس الذهبي هو عصر بني مرين، فان المدينة كانت، حتى قبل ذلك، مهبط أهل العلم، لأنها جمعت علم المشرق والمغرب، أي علم القيروان وقرطبة، واضافت الى ذلك الكثير من تفكير ابنائها بالذات.

وقد خلّف لنا غير مؤلف وشاعر وصفاً لفاس. فمن ذلك وصف جغرافيي العرب في القرن الرابع (العاشر). ونجتزىء من ذلك على اثنين هما ابن حوقل والمقدسي. قال ابن حوقل: «وفاس مدينة جليلة يشقّها نهر وهي جانبان يليهما اميران مختلفان وبين أهل الجانبين الفتن الدائمة والقتل الذريع المتصل. ونهرها كبير غزير الماء عليه ارحية كثيرة، وهي مدينة خصبة مفروشة بالحجارة احدثها ادريس بن ادريس، في كل يوم من ايام الصيف يرسل في اسواقها من نهرها الماء فيغسلها فتبرد الحجارة. وجميع ما بها من الفواكه والغلاّت والمطاعم والمشارب والتجارات والمرافق والخانات فزائد على سائر ما قرب منها وبعد في أرض الهبط موقعه، وظاهر بكثرته حدّه وموضعه ومستفاض بوفوره مكانه ومرفقها[٧]». وقال المقدسي: «فاس بلدان جليلان كبيران كل واحد منهما محصّن، بينهما واد جرّار عليه بساتين وارحية قد استولى على احدهما الفاطمي وعلى الآخر الاموي، وكم ثم من حروب وقتل وغلبة، بناءهما مدر وحصنهما طوب وبها قلعة شميت بناها ابن البوري وأخرى على الوادي بناها ابن احمد. وهو بلد كثير الخيرات والتين والزيتون[٨]».

وممن وصف فاس عبد الواحد المراكشي الذي تحدث عنها ايام الموحدين اذ قال في المعجب: «ومدينة فاس هذه هي حاضرة المغرب في وقتنا هذا، وموضع العلم منه، اجتمع فيها علم القيروان وعلم قرطبة؛ اذ كانت قرطبة حاضرة الاندلس كما كانت القيروان حاضرة المغرب. فلما اضطرب امير القيروان كما ذكرنا بعبث العرب فيها، واضطرب امر قرطبة باختلاف بني امية بعد موت ابن ابي عامر وابنه، رحل من هذه وهذه من كان فيهما من العلماء والفضلاء من كل طبقة فراراً من الفتنة فنزل اكثرهم

مدينة فاس فهي اليوم على غاية الحضارة، وأهلها في غاية الكيس ونهاية الظرف، ولغتهم افصح اللغات في ذلك الاقليم. وما زلت اسمع المشائخ يدعونها بغداد المغرب. وبحق ما قالوا ذلك، فانه ليس بالمغرب شيء من انواع الظرف واللباقة في كل معنى إلا وهو منسوب اليها، وموجود فيها، ومأخوذ منها لا يدفع هذا القول احد من أهل المغرب. ولم يتّخذ لمتونة والمصامدة مدينة مراكش وطناً ولا جعلوها دار مملكة لأنها خير من مدينة فاس في شيء من الاشياء، ولكن لقرب مراكش من جبال المصامدة وصحراء لمتونة، فلهذا السبب كانت مراكش كرسي المملكة، وإلا فمدينة فاس احق بذلك منها. وما اظن في الدنيا مدينة كمدينة فاس أكثر مرافق واوسع معايش واخصب جهات؛ وذلك انها مدينة يحفها الماء والشجر من جميع جهاتها ويتخلل الانهار أكثر دورها زائداً على نحو من اربعين عيناً ينغلق عليها ابوابها، ويحيط بها سورها، وفي داخلها وتحت سورها نحو من ثلاثمائة طاحونة تطحن بالماء. ولا اعلم بالمغرب مدينة لا تحتاج الى شيء يجلب اليها من غيرها الا ما كان من العطر الهندي سوى مدينة فاس هذه فإنها لا تحتاج الى مدينة في شيء مما تدعو اليه الضرورة، بل هي توسع البلاد مرافق وتملؤها خيراً[٩]».

وقد وصل الينا من قلم ميمون الخطابي ذكره لاساتذته وشيوخه مما يدل على ما كان يحيط بطالب العلم في فاس من عناية ايام الموحدين. قال الخطابي: «انا ميمون ابن علي بن عبد الخالق الخطابي. وبنو خطاب في قبائل من المغرب والبربر، فبنو خطاب في صنهاجة، وفي هكورة من ملزوزة، وفي ورغة من مكناسة ورغة، وفي غمارة من صنهاجة الريف، وفي بني ابي عدي بالحامة، وانا من الصنهاجيين. فهذا النسب حميري يمني قحطاني، واما مولدي فبمدينة فاس، قاعدة من قواعد المغرب، وأكثر قراءتي بها على الجلة الذين لحقت، واكبرهم جدي من الام علي بن مهدي القيسي، وعن الفقيه العالم الفاضل ابي الحسن بن حرزهم وتقول العامة (ابن حرازم) وصحب ابن دوناس من كبار العلماء بها. وقرأت على جماعة في هذه الطبقة، وقرأت في سبتة على ابن عبيد الله الحجري، سمعت الموطأ والبخاري، وكتاب السنن عليه، وقرأت بها الرسالة القشيرية على ابي الصبر، وكانت له رحلة الى المشرق والاندلس من لا احصيه كثيرة، واكبرهم شأناً ابو محمد القرطبي وأبو الحجاج بن الشيخ البلوي، وقرأت بالمنكب على الفقيه القاضي ابن سمجون وكان عالي الرواية يحمل عن الحافظ ابي بكر بن العربي وعن ابن نفيس عن الطبري بالحرم شرفه الله. ولحقت من اصحاب شريح المقرىء ثلاثة: ابا نصر التلمساني وابن حسون ببياسة، وابن المؤذن بمالقة، واجازوني، وفي غير غرناطة جماعة من اقران ابي ابن كوثر، ومن اصحابه، وفي مرسية جماعة، وبها تممت قراءتي على الفقيه القاضي ابي محمد حوط الله مدة كونه قاضياً بها، وقرأت بشاطبة على الحافظ ابي عمر بن عات رحمه الله ولحقت

بوادي «آش الحافظ ابن عمر شارح الموطأ باحسن شرح رئي، وفي اشبيلية لحقت بها من المتأخرين ابا الحسن بن زرقون ونظرائه، وفيها قرأت على ابي الخطاب ابن واجب من اهل بلنسية، وكان من اهل الرواية والفضيلة، وكتب لي ابو عبد الله بن نوح من بلنسية، وسمعت بمالقة خمسة اجزاء من تواليف ابي الربيع الكلاعي على ابي الربيع المذكور، وكنت سمعت بها، فساقه الله وساقها الي، وقرّب القصد علي، وقرأت بشلب عن ابي فاروق الشارح قصيدة ابن عبدون ما لليالي ولحقت بها ابن عمر احد الرواة بها، وقرأت في طبيرة على صاحبي الحافظ ابن خلفون. واما من لقيت وقرأت عليه من علماء الأدب وايمة اللغة والشعر والنحو، ومن العلماء بطريقة الآخرة اعني المتصوفة فممن لا احصيه كثرة. واما سني فما اضبط تاريخه لكني اعلم اني في السبعين حقيقة. والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته[١٠]».

وثمة وصف لعالم من علماء فاس أيام الموحدين هو عثمان السلالجي (او السلالقي)، من قلم تلميذه ابي الحسن بن عتيق قال فيه: «وخاف الله تعالى فراقبه، وعمل بمقتضى ما علم فشرح صدره وعلمه علم ما لم يعلم، ووهبه من الفهم لخطاب الشارع [والتفقه فيه، والعلم بمقاصده، والكشف لمعانيه، ومن التحقيق والتنسيق، والتحرير والتدقيق، ما يقصر عن وصفه اللسان وتكل دون البلوغ الى كنهه الاذهان. واتقى الله تعالى فوقاه، وتوكل عليه فكفاه، واهتدى بهديه فوفقه وهداه، وجعل له من امره يسراً ومخرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب، ووضع البركة في علمه وعمله، ورزقه من الصبر والاحتمال وحسن الخلق والعشرة والادب وحركاته وسكناته، حتى تقيدت افعاله كلها بأحكام الشرع، وجرت على مقتضيات أوامر الباري تعالى واذنه، واقتدى بهدي السلف الصالح رضي الله عنهم. ففتح له وعلى يده فتحاً خرق العادة، وحرّك النفوس، وقامت به الحجة على المبطلين، مع حداثة سنه، وقلة تمكنه مما يجده غيره من المال.والجدة وسعة الحال، فساد اقرانه ورأس اخوانه، وشرف جيرانه، وزين عصره ووقته وزمانه، اسأل الله تعالى ان يجعل البركة في عمره ورزقه، وان ينفعه ويكفيه كل هم»[١١].

وفي بلاط ابي عنان المريني تحدث ابن بطوطة عن اسفاره ـ قص اخباره على السلطان نفسه وعلى خواصه وعلى العلماء. فأعجب السلطان بها، ولذلك صدرت ارادته الى الرحالة بأن «يملي ما شاهده في رحلته من الامصار، وما علق بحفظه من نوادر الاخبار، ويذكر من لقيه من ملوكها وعلمائها الاخيار واوليائها الابرار[١٢]». ووضع السلطان كاتبه ابن جزي تحت تصرف الرحالة. فكانت لنا من ذلك هذه المتعة الادبية التي ننعم بقراءتها فنطلع على كنوز من المعرفة، فنذكر بالخير الرحّالة والسلطان وابن جزي.

ولعلّ خير ما وصفت به فاس في ايام بني مرين هو ما جاء في روض القرطاس،

لابن ابي زرع، من مؤرخي عهدهم وأعلامه. قال: «ومدينة فاس لم تزل ام بلاد المغرب في القديم والجديد وهي الآن قاعدة ملوك بني مرين اطال الله ايامهم وأعلى امرهم وخلّد سلطانهم فهي منهم في المحل الرفيع والشكل البديع وقد جمعت مدينة فاس بين عذوبة الماء واعتدال الهواء وطيب التربة وحسن الثمرة وسعة المحرث وعظيم بركته وقرب المحطب وكثرة عوده وشجره. وبها منازل مونقة وبساتين مشرقة ورياض مورقة واسواق مرتبة منتسقة وعيون منهمرة وانهار متدفقة منحدرة واشجار ملتفة وجنات دائرة بها مجتمعة. وقالت الحكماء احسن مواضع المدن ان تجمع خمسة أشياء وهي النهر الجاري والمحرث الطيّب والمحطب القريب والسور الحصين والسلطان اذ به صلاح حالها وامر سلبها وكف جبابرتها. وقد جمعت مدينة فاس هذه الخصال التي هي كمال المدن وشرفها وزادت عليها بمحاسن كثيرة فلها المحرث العظيم سقياً ويملأ على كل جهة منها ما ليس هو على مدينة من مدائن المغرب، وعليها المحطب في جبل بني بهلول الذي في قبلتها يصبح كل يوم على ابوابها احمال حطب البلوط والفحم ما لا يوصف كثرة، ونهرها يشقها بنصفين ويتشعب في داخلها انهاراً وجداول وخلجاناً فتتخلل الانهار ديارها وبساتينها وجناتها وشوارعها وأسواقها وحماماتها وتطحن به ارحاؤها ويخرج منها وقد حمل اثقالها واقذارها ورماداتها. ومن فضائل هذا النهر ما ذكره ابن جنون المتطبّب انه ينبه شهوة الجماع اذا شرب على الريق ويغسل به الثياب من غير صابون فيبيضها ويكسوها رونقاً وبصيصاً ورائحة طيبة كما يفعل الصابون. ويخرج منه الصدف الحسن الذي يقوم مقام الجوهر النفيس تباع الحبة منه بمثقال ذهب وأقل وأكثر وذلك لحسنه وصفائه وعظم جرمه ويخرج فيه أيضاً انواع من الحوت ... وهو حوت لذيذ الطعم كثير المنفعة؛ وعلى الجملة ان نهر مدينة فاس يفوق مياه المغرب في العذوبة والخفة وكثرة المنفعة»[١٣].

ومما جاء في وصف فاس شعراً قول ابي الفضل ابن النحوي

يا فاس منك جميل الحسن مترق ... وساكنوك ليهنهم بما رزقوا
هذا نسيمك، ام روح لراحتنا ... وماؤك السلسل الصافي، ام الورق؟
ارض تخللها الانهار داخلها ... حتى المجالس والاسواق والطرق

وقول الفقيه ابي عبد الله المغيلي يتشوق الى فاس وكان يلي خطة القضاء بمدينة آزمور:

يا فاس حيا الله ارضك من ثرى ... وسقاك من صوب الغمام المسبل
يا جنة الدنيا التي اربت على ... حمص بمنظرها البهي الاجمل
غرف على غرف ويجري تحتها ... ماء ألذ من الرحيق السلسل
وبساتن من سندس قد زخرفت ... بجداول كالايم او كالمقصل

وبجـامع القـرويين شـرف ذكـره   انس بذكـراه بهـيج تململي
وبصـحنه زمن المـصيف مـحاسن   فـمع العـشي الغـرب منه استـقبل
واجلس ازاء الخـصـة الحـسنا به   واكـرع بهـا عني - فـديتك - وانهل

الهوامش

(١) زيادة، نقولا: لمحات من تاريخ العرب، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٦١.
(٢) النبوغ المغربي، ج ٢ ص ٣١.
(٣) نخب تاريخية، ص ٢٢-٢٤.
(٤) نفس المكان، ص ٤٤.
(٥) نفس المكان، ص ٦٧-٦٩.
(٦) الاستقصا، ج ٣، ص ١١٢.
(٧) ابن حوقل: صورة الارض، ليدن، بريل، ص ٩٠-٩١.
(٨) المقدسي، ابو عبد الله محمد: احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، ليدن، بريل، ١٨٧٧ ص ٢٢٩-٢٣٠.
(٩) كنون، عبد الله: عبد الواحد المراكشي، بيروت، دار الكتاب اللبناني ص ٢٧-٢٨.
(١٠) كنون، عبد الله: ميمون الخطابي (تطوان لا. ت)، ص ١٢.
(١١) كنون: عثمان السلالجي، ج ١١، ص ١٨-١٩.
(١٢) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، القاهرة، الاميرية، ١٩٣٤.
(١٣) نخب تاريخية، ص ٢١-٢٢.

٣ـ مِكْنَاس

تتوسط مكناس سهلاً فسيحاً، وتعلو في وسطه تلة جميلة، فتشرف نظراً دون أن تسرف علواً، وتظلها أشجارها دون ان تخفي أسرارها. وقد تحدر إلينا وصف لطيف من قلم لسان الدين ابن الخطيب صاحب الوزارتين قال:

«وأطلت مدينة مكناسة في مظهر النجد، رافلة في حلة الدروح، مبتسمة عن شنب المياه العذبة، سافرة عن أجمل المرأى، قد أحكم وضعها الذي أخرج المرعى، قيد البصر، وفدلكة الحسن، فنزلنا بها منزلاً لا تستطيع العين ان تخلفه حسناً ووضعاً. من بلد دارت به المجاشر المغلة، والتفت بسوره الزياتين المفيدة. وراق بخارجه للسلطان المستخلص الذي يسمو إليه الطرف رحب ساحة، والتفاف شجرة، ونباهة بنية، واشراف ربوة. ومثلت بازائها الزاوية القدمى المعدة للوارد، ذات البركة النامية، والمأذنة السامية، والمرافق المتيسرة. يصاقبها الخان البديع المنصب، الحسن الغلق، الغاص بالسابلة والجوّابة في الارض يبتغون من فضل الله. تقابلها غرباً الزاوية الحديثة، المربية برونق الشبيبة، ومزية الجدة والانفساخ وتفنن الاحتفال»[١].

ومكناس، او مكناسة الزيتون، كانت حيث هي قبل أن يصل العرب والاسلام المغرب. فقد قال صاحب الاستقصا: «كانت مدينة مكناسة الزيتون من الامصار القديمة بأرض المغرب بناها البربر قبل الاسلام، ولما جاءت دولة الموحدين حاصروا مكناسة سبع سنين ثم افتتحوها عنوة أواسط المائة السادسة وخربوها، ثم بنوا مكناسة الجديدة المسماة بتاكرارت، ومعناها: المحلة، واعتنى بها بنو مرين من بعدهم فبنوا قصبتها وشيدوا بها المساجد والمدارس والزوايا والربط، وكانت يومئذ هي كرسي الوزارة، كما ان حضرة فاس الجديد هي كرسي الإمارة»[٢].

ونالت مكناس عناية كبيرة على أيدي بني مرين. فما كان لهم ان يهتموا بفاس ويهملوا مكناس، وللمدينتين حق الجوار، فما يفصل بينهما سوى مرحلتين بلغة الأمس، وساعة بلغة اليوم. وقد خلّف لنا ابن غازي في الروض الهتون، صورة مقتضبة لما كانت عليه مكناس أيام بني مرين. قال:

«ثم ازداد أمر الموحدين ضعفاً، وعلا أمر بني مرين فعادت إليهم مدينة مكناسة ... ثم بعد ذلك استخلص بنو مرين بلاد المغرب كلها واستقلّوا بالامر وصلحت أحوال مدينة مكناسة، ولم تعد العمارة بعد ذلك والله أعلم لحوائرها، بل صارت كلها جنّات،

وغرس الناس على ردوماتها؛ وقد بقي من ذلك لهذا العهد صومعة بني موسى وصومعة بني زياد ومسجد السور القديم وصومعته وحمّام بني مروان ... وذكر ابن خلدون ان السلطان أبا يوسف المريني لما فرغ من بناء البلد الجديد المسمى بفاس الجديد أمر ببناء قصبة مكناسة وبنى بها السلطان أبي يوسف أيضاً مدرسة الشهود التي بأعلى سماطهم هنالك، ويقال لها مدرسة القاضي لانها كان يدرّس بها القاضي أبو علي الحسن بن عطية الونشريسي ثم نوّه بها أبو الحسن المريني المسمى بأبي الحسنات الكثير الآثار بالمغرب الاقصى والاوسط والاندلس فبنى بها مرافق كثيرة كزاوية القورجة وزاوية باب المشاوريين وغير ذلك من السقايات والقناطر في طرقاتها ونحوها. ومن أجلّ ذلك المدرسة الجديدة وكان قدّم للنظر على بنائها قاضيه على المدينة المذكورة أبا محمد عبد الله بن أبي الغمر. فحدثني والدي رحمه الله انه كان يسمع ممن أدرك من الشيوخ أن السلطان أبا الحسن لما أخبر بتمام بنائها جاء إليها ليراها فقعد على كرسي من كراسي الوضوء حول صهريجها وجيء بالرسوم المتضمنة التنفيذات اللازمة فيها فغرّقها في الصهريج قبل ان يطالع بما فيها وأنشد:

«لا بأس بالغالي إذ قيل حسن ليس لما قرّت به العين ثمن

«ولما ولي بعده ولده ابو عنان نوّه بها أيضاً وتفقّد أحوالها ... ولم يزل أهلها أيام بني مرين في خير وثروة»[٣].

لكن الاهتمام بمكناس بلغ الغاية، ووصل النهاية، أيام المولى اسماعيل الذي حكم المغرب أواخر القرن الحادي عشر (السابع عشر) وأوائل القرن الثاني عشر للهجرة. فقد روى المؤرخ أبو القاسم أحمد الزياني في كتاب الترجمان المعرب عن المولى اسماعيل: «واشتغل السلطان ببناء قصوره بمكناسة حيث ألفها وأعجبه هواؤها وكان لا يبغي بها بديلاً. وهدم ما يلي القصبة من الدور وأمر أهلها بحمل أنقاضها. وهدم الجانب الشرقي من المدينة وزاده في القصبة القديمة ولم يبق أمامه إلا الفضاء، فجعله كله قصبة، وبنى سور مدينة مكناسة وأفردها عن القصبة. وجلب الصنّاع من آفاق المغرب وحواضره وأطلق أيديهم على البناء فلم يبلغ بذلك غرضه. فوجّه للقبايل يعطون الفعلة، كل قبيلة تعطي عدداً معلوماً في كل شهر. وأسس المسجد الاعظم داخل القصبة بجوار قصر النصر الذي أسّسه أيام أخيه الرشيد ثم أسس الدار الكبرى بجوار ضريح الشيخ المجذوب»[٤].

وانصرف المولى اسماعيل الى حروب يقود جنودها إليها بكلله النصر تلو النصر. فلما فرغ من ذلك، عاد الى مكناس وأقام فيها، على رواية الزياني، «يقف على بناء قصوره بنفسه وكلما أكمل قصراً أسّس آخر. ولما ضاق مسجد القصبة بالناس أسس المسجد الاخضر بالقصبة وجعل بابه للمدينة، وجعل لهذه القصبة عشرين باباً عادية وفوقها بساتين للمدافع والمهارز. وجعل داخل القصبة بركة عظيمة يسير فيها الفلايك

للفرجة وجعل بها هريا للزرع وجعل بجواره سواني للماء في غاية العمق مقبوّة وفوقها سقالة للمدافع. وجعل بها اصطبلاً لخيله وبغاله طوله ثلاثة اميال مسقّف الدايرة بالبرشله، قيل كان به مربط اثني عشر ألفاً من الخيل. ومشقّه هري مقبوّ تحت الارض يكون به الشعير لعلف الخيل. وجعل في وسطه هرياً عظيماً في غاية الضخامة والارتفاع تكون به سروج الخيل واقامتها. وبنى فوقه قصراً سمّاه المنصور فيه عشرون قبة، فيها برج مشرف على بساط مكناسة وجبالها. وغرس بجوار هذا الاصطبل بستاناً على طوله فيه من أنواع الاشجار كل غريب. وبداخل هذه القصبة نحو الخمسين قصراً كل قصر بمسجد، وحمّامه وميضاته ولا يفتقر لغيره. وهذا شيء لم يبرز في دولة عربية ولا عجمية في الجاهلية ولا في الاسلام. وكان عنده بأبواب قصوره على ما ذكروا ألفان وميتان من الخصيان السود»[٥].

وقد كان للعلم في مكناسة دولة. قال ابن الخطيب: «وبداخلها مدارس ثلاث لبث العلم كلفت بها الملوك الجلة الهمم وأخذها التنجيد فجاءت فائقة الحسن: ما شئت من أبواب نحاسية وبرك فياضة تقذف فيها صافي الماء أعناق أسدية وفيها خزائن الكتب والجراية الدارّة على العلماء والمتعلمين»[٦].

ولعل من أمتع ما وصلنا مقطوعة شعرية يفاضل فيها سيدي محمد العباس العلوي بين مكناس وغيرها من مدن المغرب، يقول:

«إذا افتخرت فاس بطيب معانيها ... ولطف أهاليها ورقراق واديها
ومراكش الحمرا بطلع نخيلها ... وحسن سجايا أهلها وأغانيها
وثغر رباط الفتح بالأدب الذي ... غدا مفرق العليا يصول بها تيها
فمكناسة الزيتون فاقت بتربة ... وطيب هواء وابتهاج مبانيها
فما مثلها الزهراء في حسن منظر ... ولم لا وسبط المصطفى هو بانيها
إمام همام ساعد السعد سعيه ... فكانت شموس الفضل مشرقة فيها[٧]

«وقد شاهدنا آثار الأقدمين بالمشرق والمغرب وبلاد الترك والروم فما رأينا مثل ذلك في دولهم ولا شاهدناه في آثارهم. بل لو اجتمعت آثار دول ملوك الاسلام لرجح بها ما بناه السلطان الأعظم المولى اسماعيل رحمه الله في قلعة مكناسة دار ملكه، ولم تزل تلك البناءات على طول الدهر قائمة كالجبال لم تخلفها عواصف الرياح ولا كثرة الأمطار والثلوج ولا آفات الزلازل التي تخرب المباني العظام والهياكل الجسام». قال: «ومن يوم مات المولى اسماعيل والملوك من بنيه وحفدته يخربون تلك القصور على قدر وسعهم وبحسب طاقتهم ويبنون بأنقاضها من خشب وزليج ورخام ولبن وقرمود ومعدن وغير ذلك الى وقتنا هذا، وبنيت من أنقاضها مساجد ومدارس ورباطات بكل بلد من بلدان المغرب، وما أتوا على نصفها هذه مدة من مائة سنة، وأما الجدارات فلا زالت ماثلة كالجبال الشوامخ وكل من شاهد تلك الآثار من سفراء الترك

والروم يعجب من عظمته ويقول: ليس هذا من عمل بني آدم ولا يقوم به مال»[٨].

ثم انتقل صاحب البستان الى وصف ما كان خارج مكناس من البساتين فقال: «كان عنده بجنان حمرية مائة ألف قعدة من شجر الزيتون وحبسه كله على الحرمين الشريفين، ومرت عليه بعد وفاته العصور وأيام الفترة والفتن والناس يحتطبونه فلم يظهر فيه أثر من ذلك، ولما بويع السلطان المولى محمد بن عبد الله أحياه وأجرى الماء إليه وأمر بإحصاء ما بقي من شجره فوجدوه ستين ألفاً، فكان رحمه الله بعث بثمن غلته الى الحرمين تنفيذاً لمراد جده وكذا ابنه المولى سليمان رحمه الله»[٩].

وكثيراً ما أوحت مكناس وما إليها من جبال زرهون كثيراً من الشعر. ومن ألطف ذلك قول عبد الرحمن بن زيدان:

بالحسن من مكناسة الزيتون ... قد صح عذر الناظر المفتون
فضل الهواء وصحة الماء الذي ... يجري بها وسلامة المخزون
سحت عليها كل عين ثرة ... للمزن هامية الغمام هتون
فاحمر خد الورد بين اباطح ... وافتر ثغر الزهر فوق غصون
ولقد كفاها شاهداً مهماً ادعت ... قصب السباق القرب من زرهون
جبل تضاحكت البروق بجوه ... في لوحه والتين والزيتون
حييت من بلد خصيب أرضه ... مثوى أمان او مناخ أمون
وضفت عليك من الالاه عناية ... تكسوك ثوبي أمنة وسكون[١٠]

الهوامش

(١) ابن زيدان: اتحاف الناس بجمال اخبار حاضرة مكناس، الرباط، ١٩٢٩، ج ١، ص ٢٣٣ـ٢٣٤.
(٢) الاستقصا، ج ٧، ص ٤٨.
(٣) نخب تاريخية، ص ٧٦ـ٧٧.
(٤) نفس المكان، ص ١٣.
(٥) نفس المكان، ١٤ـ١٥.
(٦) ابن زيدان: ج ١، ص ٢٣٤.
(٧) ابن زيدان: ج ١، ص ٢٥٠.
(٨) الاستقصا، ج ٧، ص ٥٥ـ٥٦.
(٩) نفس المكان، ج ٧، ص ١٠٢.
(١٠) ابن زيدان: ج ١، ص ٢٣٥.

٤ـ تَطوَان

عندما تدخل مدينة تطوان، او تطاوين كما يحلو للبعض ان يسميها، تشعر كأنك تدخل عشاً تأنقت الطيور في بنائه. وتشرف على المدينة من عل فتراها منيعة حصينة، فالجبل يدرأ عنها الأذى، والبحر يمدها بحاجتها من كل شيء اذا دهمها الخصم من الساحل.

وتطوان القائمة اليوم هي تطوان التي بناها مهاجرو الأندلس في القرن التاسع (الخامس عشر) على انقاض تطوان القديمة. فقد جاءها الغرناطيون لما أخذ الاسبان باسترداد الأندلس من العرب.

«ركب المهاجرون الغرناطيون البحر قاصدين بلاد المغرب وسرعان ما وصلوا الى الشاطىء المغربي المقابل لأندلسهم، فنزلوا امام مدينة تطوان التي ذكرنا سابقاً ان الاسبانيين كانوا قد خربوها، وانها بقيت خالية نحو تسعين سنة، وبعد ان اتخذ المهاجرون المذكورون اجراءات سنبينها، بنوا مدينة تطوان من جديد، وهذا البناء الاندلسي بتقسيماته وشوارعه ومنعرجاته لا زال جله موجوداً الى وقتنا هذا[١]».

وقد وصفها سيدي العربي الفاسي بعيد بنائها فقال:

«انها بلد مربع، وقصبتها في ركنها، ولها ثلاثة ابواب، وسورها في عرضه سبعة أذرع، ودار بالسور الأول سور ثان، وبعده دارت الحفائر وأعظمها حفير القصبة، ويعلو البلد من جهة الجوف جبل بنى عليه المنظري قصبة أكملها في عشرين سنة»[٢].

وقد تدخلت الاسطورة في بناء تطوان تدخلها في بناء غيرها من المدن، فروى أبو محمد سكيرج في تاريخه عند كلامه على بنائها من «انه بينما كان أهل هذه المدينة ذات يوم يبنون سور البلد، وقد حل وقت الأكل فجلسوا يأكلون، اذ انتحى رئيسهم السيد المنظري ناحية غير ناحيتهم، فوجد بها رجلاً كله نور، فلما سأله من هو؟ أجابه بأنه محمد رسول الله... فقال له: يا سيدي، ادع لهذه البلدة، فقال له: انا ضامنها ان شاء الله، إن يكن الناس في النعم الى الركبة، تكن هي الى العنق، وان كان الناس في الشر الى العنق، تكن هي الى الركبة»[٣].

وفي كناش قديم أبيات يظهر ان ناظمها قالها عقب الفراغ من بناء المدينة. وهي ابيات فيها ضعف لكنها تؤرخ للبناء، وهي:

«قد بنيت تطاون يقينا عام تفاحة من السنينا

في شهر شعبان في حرف الزاء ابتدأوا الحفير والبناء
وكملت عند تمام الكاف قد صح ذا عندي بلا خلاف
وكان عدة الرجال الابرار ميم وزاء ليس ثم أكثر
وعدة النساء نقط الياء فهؤلاء أسوا البناء»(٤)

وما كانت تطوان يتم بناؤها حتى أقبل الناس على سكناها، من المهاجرين وأهل البادية وبقية أنحاء المغرب. ويقول مؤرخ تطوان الشيخ الاستاذ محمد ابن داود:

«وأبطال الرجال الذين يهمهم الجهاد في سبيل الله، ويسرهم الاستشهاد في حومة الوغى وميدان الشرف، والفتيان الشجعان أباة الضيم، المتعطشون للكفاح والقتال دفاعاً عن الدين والوطن، كل أولئك تحولوا من الأندلس ومن انحاء المغرب الى مدينة تطوان الفتية، وتحصنوا بها واتخذوها مركزاً لغزواتهم ومضايقتهم للافرنج الذين اعتدوا على شواطىء الوطن المقدس ودنسوها باحتلالهم العسكري المهين للأمة وشرفها وكرامتها. والأعيان الذين سئموا سكنى البادية وأهوالها وفتنها، قصدوا المدينة ايضاً للاستقرار بها آمنين على أنفسهم واموالهم. وفقراء أهل البادية كانوا أيضاً يقصدون المدينة ليقوموا فيها بالخدمات الشاقة من حراثة الأراضي ورعي المواشي وحمل الاحجار وغيرها للبناء وخصوصاً في الفصول التي تقل فيها المأكولات عندهم.

«وجميع هؤلاء لا بد ان يتبعهم من يقوم بمصالحهم الضرورية من بنائين ونجارين وحدادين وصانعي الملابس والأحذية والاسلحة والأواني البيتية وغيرها، زيادة على التجار والمزارعين الخ. بهؤلاء كلهم عمرت تطوان وضاقت بأهلها وبالواردين عليها، فاضطر الناس لتوسعة المدينة ببناء أرباض متصلة بها»(٥).

واستمر الأمر بتطوان عبر القرنين العاشر (السادس عشر) والحادي عشر (السابع عشر) وهي في نمو وازدهار، يعنى بها حكامها، وتتسع ارباضها وينتشر ابناؤها في بساتينها وغياضها، ويستمتعون بأزاهيرها ورياضها. ولم تقتصر تلك المتعة على أبناء المدينة، فزوارها كانوا يرون محاسنها من قبل، كما رأيناها نحن لما زرناها مؤخراً.

وممن زارها في القرن العاشر (السادس عشر) الأديب التمغروتي الذي أرسله المنصور السعدي في سفارة الى القسطنطينية، فقضى في تطوان ثلاثة أشهر في ضيافة ابن المفضل الذي كان يتولى عن السلطان القبض عما يخرج من عند النصارى من سبتة وما يدخل اليها من التجارة. وكان التمغروتي يقضي وقته هناك مطلعاً على شؤون البلد مستفسراً احواله متمتعاً بما فيه من جمال. فخرج الى رياض يسمى الصوير وكان ذلك في رجب الفرد سنة ٩٩٧ فقال فيه:

«وكنا خرجنا في أثناء إقامتنا بتيطاون الى بستان الابر المفضل وفيه قصره مبني

مشرف على الرياض، فجلسنا في علوه وتحته بيت للنصارى خدمة البستان وهم لا ينفكون عن الشراب ولا يفارقونه، فقال الكاتب ارتجالاً ونحن هناك:

«وبسيط يطرز النهر في جا ... نبه برد خزه ووشاحه
قد نعمنا بنزهة كان فيها ... بيت راح وفوقه بيت راحه
في رياض تبسّم الزهر لما ... اطلع الياسمين فيها صباحه

وتغنت ام الحسين على عيدانها بالحسين شعر الفصاحة»[٦].

وفي أوائل القرن الحادي عشر (السابع عشر) رحل سيدي العربي الفاسي من مدينته فاس واستقر بتطوان. فلما أشرف على المدينة ولاحت له ديارها قال:

«انظر الى تطوان كالقرطاس ... بيضاء صافية من الأدناس

فأضاف الى ذلك ابو القاسم الفشتالي:

شرفت بساكنها الامام محمد ... نجل ابي الحجاج اعني الفاسي»

فأتم ذلك الشيخ علي بن الزبير بقول:

بث العلوم بها فصارت عندما ... أضحى بها، أضوى من النبراس
وتعطرت بنزوله وتتوجت ... كالغيث لما جاد غب اياس
يا طالبين علومه قد جاءكم ... حبر تقيٌّ طيب الانفاس
فعليكمُ بالأخذ عنه انه ... آسٍ يداوي علة الوسواس[٧]

عرفت تطوان، كما عرفت غيرها من المدن الإسلامية، بين مؤسساتها القضائية الفقهاء العدول، وقد عرف بين هؤلاء في أواخر القرن الحادي عشر (السابع عشر) الفقيه الأديب الشودري. ويبدو ان احوال العدول لم تكن يومها على ما يرام، فنظم الشودري رجزاً فكاهياً يشكو فيه حالتهم إلى القاضي فقال:

من مبلغ عني الفقيه المرتضى ... من قد غدا مقلد أمر القضا
أميننا ذا العدل في الاحكام ... والرفق بالمسكين والأيتام
أخبركم ان الشهود الكتبه ... قد أصبحوا وكلهم ذو مسغبه
قد انتهى دهر المعاش وانقضى ... وكل ما قد كان من خصب مضى
لا نستفيد درهماً للنفقه ... الا اذا نكتب بعض الأصدقه
أما رسوم الحكم والآجال ... والنسخ والتوكيل والمقال
فان ذلك جميعاً قد غبر ... ولم يصر يصلنا سوى الخبر
فلو لنا مال تعاطينا السبب ... ولا نبالي من قضى أو من كتب
وما لنا من حرفة فنحترف ... ونقتفي سبيلها ولا نقف

فبعضنا قد صار يفتل العزف ... ويصنع الجراب منها والقفف
وبعضنا لما اعتراه من غبن ... قد رام ان يبيع للناس اللبن
وآخر من العدول قد عزم ... ان يحطب العود ويأتي بالحزم
وبعضهم قد رام بيع الجبن ... وبعضهم قد رام بيع التبن
أما الذي له القوى والهمم ... فإنه بالفاس رام الخدمه
كذلك الأعوان قالوا كلهم ... لم يجدوا فلساً وضاع أهلهم
فهذه حالتنا كما ترى ... فكن بعينك الينا ناظرا
فأنت تدري أن خالق العباد ... سائلكم عن حالنا يوم التنادي[٨]

وقد ظفرت تطوان بزيارات من عدد كبير من أهل العلم والشعراء ومن إليهم في عصورها المختلفة. ذلك بأنها لطيفة جذابة هادئة فضلاً عما تقدمه للزائر من متع. وكان من الاعلام الكبار الذين ترددوا عليها في القرن الحادي عشر (السابع عشر) العلامة الفقيه الكبير أبو علي اليوسي والشاعر ابن زاكور. ولكل منهما انطباعات لطيفة سجلها نثراً وشعراً. وقد كانت إحدى زيارات اليوسي سنة ١٠٨٥ [١٦٧٤]، فقال في تلك المناسبة:

تطاون شفت الفؤاد المسقما ... وجلت من الأحزان ليلاً مظلما
وأطار منظرها المرونق بهجة ... عن قلبيَ المضنى هموماً جثما
بلد تقاسمت البهاء جهاته ... فتناصفت حسناً وفاقت ميسما
فترفعا في مرقب يطرى به ... أنساً ويطرب من رآه توسما
فحكى عروساً جليت إذ جليت ... أعلى منصتها الرفيعة مسنما
ما شئت من عين يكسرها الحيا ... بحذاء ثغر تشتفي فيه الظما
لولا الجبال الراسيات بجوها ... لحسبت منظرها الثريا في السما
فلقد غدت عدنا ألم ترَ تحتها الأ ... نهار تجري في بساط أدهما
وزرت على عدن ألم تر فوقها ... غرفاً زهت حسناً على تلك الدما
لله در أحبة غادرتهم ... فيها يعدون الصداقة مغنما
أرزوا الى الخيرات ظمئاً شرعاً ... ورأوا سبيل البر ديناً قيما
وأود لو كانت مجالس بينهم ... يضحين في سبل الهداية معلما
وشجا الحشا أن لم أجد من عالم ... يهدي الورى فيها ولا متعلما
إلا يسير صبابة من ذي حجا ... لصبابة بالعلم أضحى مغرما[٩]

على ان اليوسي الذي شفت تطوان فؤاده المسقم، لاحظ ان أهوالها لم تكن على ما يحب لها ويهوى. ولما كان رجلاً جريئاً صريحاً فقد كتب إلى سلطان البلاد رسالة

في ذلك جاء فيها:

«كان أهل تطوان من قبل إذا سمعوا الصريخ تهتز الأرض خيلاً ورماة، وقد بلغني اليوم أنهم سمعوا صريخاً من جانب البحر ذات يوم فخرجوا يسعون على أرجلهم بيدهم العصي والمقاليع، وهذا وهن في الدين وغرر على المسلمين، وإنما جاءهم الضعف من المغارم الثقيلة، وتكليفهم الحركات، واعطاء العدة كسائر الناس. فعلى سيدنا أن يتفقد السواحل كلها من قلعية إلى ماسة، ويحرضهم على الجهاد والحراسة، بعد ان يحسن إليهم ويعفيهم مما يكلف به غيرهم، ويترك لهم خيلهم وعدتهم، ويزيدهم ما يحتاجون إليه فهم حماة بيضة الاسلام. ويتحرى فيمن يوليه تلك النواحي ان يكون أشد الناس رغبة في الجهاد ونجدة في المضائق وغيرة على الاسلام، ولا يولي فيها من همته ملء بطنه والاتكاء على أريكته والله الموفق»[١٠].

وابن زاكور، شاعر المغرب في عصره، كانت له بتطوان صلات ود وقربى، وكانت له إليها زيارات متعددة. وقد أعمل في مناسبات قلمه فعبر عن شعوره نثراً وشعرا. فمن ذلك قوله:

«فوصلنا إلى محل ابتداء سفرنا ونهاية صدرنا، مدينة تطوان، ومغنى الأحباب والاخوان، سلمنا الله من طرائق البغي والعدوان»، الى ان قال: «ولما حللت بتطوان حرسها الله وساعدني جدي، وزرت ضريح جدي وشمت غرر أهل ودي، وانقشعت سحائب وجدي، وأنفقت فيها من الشعر على قدر وجدي، فمن ذلك ما قلته وقد أحلنا شيخنا العلامة الفقيه الفاضل الوجيه الذي جعل لمطارف محاسنها الموشية علامة وشيه، المصقع المدره الذي أنار شمس الأدب وبدره، ذو اليمن والبركة، ابو الحسن سيدي الحاج علي بن محمد بركة، إحدى جناته، وقد خلع عليها بعض صفاته، وأعارها بعض سماته، فاعتل نسيمها، واخضل أديمها ورق نعيمها، وراق شميمها، وأينع زهرها، وأنضج ثمرها، وفاح شذاها، ولاح سناها، بالمنزه المسمى بالكيتان، المطاول لغوطة دمشق وشعب بوان، ومعنا صاحبنا الأديب الأريب، الذي حاك من برود الأدب كل قشيب، وعصر من أفنانه كل غصن رطيب، ابو الحسن السيد الحاج علي الاندلسي عرف بمندوصة، أبقاه الله وأبنية مجده مرصوصة، فقلت:

تطوان ما أدراك ما تطوان ... سالت بها الأنهار والخلجان

قل ان لحاك مكابر في حبها ... هي جنة فردوسها الكيتان

وقلت أيضاً:

«تطوان تطوان لا شيء يضاهيها ... غنت بلابلها اذ سال واديها

والفجر والليل لولا بعض من فيها ... لما نويت رحيلاً عن مغانيها

«وهذا الكيتان من أجمل المواضع، وأفضل المتنزهات والمصانع، تطرد خلال

رياضه أنهار، تجري في الصباح بذائب اللجين وفي الاصيل برائق النضار، وتسجع بأدواحه أطيار، لا تدانيها نغمات الاوتار، وقد اعتدل هواؤه، واشتمل بالابتهاج بهاؤه، تغص الزهراء بطلاوة مرءاه، وتود الزوراء او ترتدي بملاءة حلاه، وتحسد جماله النضير وطرازه المرونق، محاسن السدير وبدائع الخورنق، ترتاح النفوس في بساتينه، وتحيى الارواح بشم رياحينه. ان حل من أنحله الوجد برباه، صاح من حينه: واطرباه! وأسلاه تسلسل غدرانه وتغريد ورشانه، عمن قطف لبه بأجفانه ومزق قلبه بهجرانه. فيه راق شعري، وانقدح زناد فكري، سمرت ليالي بجناته، مقتبساً من نور شياته، ومتمتعاً بنغمات أطياره، ونسمات أزهاره، فما شمت أبدع من سناها، ولا شممت أضوع من شذاها.

«واها لها من ليال هل تعود كما ... كانت وأي ليال عاد ماضيها
لم أنسها مذ نأت عني ببهجتها ... وأي أنس من الايام ينسيها»[١١]

ولابن زاكور قصيدة طويلة نظمها فيما بعد متذكراً تطوان ومغانيها وصحبه فيها. منها الابيات التالية:

قفا حدثاني عن مغان وأربع ... بجزع النقابين الهضاب فأنقع
فبانة جرعاء الحما فظبائه ... فآرامه اللاتي رتعن بأضلعي
وعن ذي حباب بالرياض مسلسل ... يسيغ كما انساب الحباب بأجرع
فشبه به والشمس راق أصيلها ... جمانا على سيف بتبر ملفع
سقى مرتع الاحباب ديمة واكف ... وهل غير أوطان الاحبة مرتعي
واني وان أمسيت في فاس ثاوياً ... لتطوان آمالي وفيها تولعي
ديار أناخ الحسن في عرصاتها ... وأرخى على أرجائها كل برقع
رعى الله أحباباً بتطوان كلما ... ذكرتهم اهتاجت شعائل أضلعي
أأحبابنا فيها هل الدهر سامح ... بلقياكم قبل الحلول بشرجعي
وهل لي في الكيتان نزهة وامق ... عسى أشتفي من لوعتي وتفجعي
فيا انهر الكيتان جادتك ديمة ... من الوابل الهتان غير مصدع
ويا منزل الاحباب لا زلت آهلاً ... بأهل العلا تزهو بكل سميذع
ويا جملة الاحباب مني عليكم ... سلام كأنفاس العبير المشعشع[١٢]

وأرباض تطوان الجميلة متعددة، وضواحيها تنعش النفس. ومنها، بالاضافة الى الكيتان، رأس الطرف الواقع على شاطىء البحر. ولابن زاكور في رأس الطرف ابيات منها:

راقت عشية رأس الطرف رأس فتى ... لم يثن رأس الجوى عن قلبه طرفه

حـالفنا الانس فـيـه والمـسـرة اذ عنَّ لنا المـتـمنى مـسـرجـاً طرفـه
والبـحـر مـمـا صـفـا أبدى ضـمـائره والبـرج مـمـا عـلا يكشف مـا خلفـه[١٣]

الهوامش

(١) داود، محمد: تاريخ تطوان، تطوان، مكتبة كريماديس ١٩٥٧، ج ١، ص ٨٥.
(٢) نفس المكان، ص ٩١.
(٣) نفس المكان، ص ٩٦.
(٤) نفس المكان، ص ٨٦.
(٥) نفس المكان، ص ١٠٠.
(٦) نفس المكان، ص ١٦٢.
(٧) نفس المكان، ص ٣٤٠.
(٨) نفس المكان، ص ٣٤٥.
(٩) نفس المكان، ص ٤١٣ـ٤١٤؛ وديوان اليوسي (طبع فاس)، الملزمة ٤، ص ٥.
(١٠) نفس المكان، ص ٤١٥.
(١١) نفس المكان، ص ٤١٦ـ٤١٨.
(١٢) نفس المكان، ص ٤١٨؛ وابن زاكور: المنتخب من شعر ابن زاكور، القصر الكبير، مطبعة الفنون ١٩٤١، ص ١٢١ـ١٢٢.
(١٣) نفس المكان، ص ٤٢١.

٥ـ إشْبيلِيَة

في جنوب غرب الاندلس، وفي رقعة من الأرض تجاري نهر الوادي الكبير، تمتد رقعة من الأرض مرتفعة سماها أهلها جبل الشرف، لإشرافه على ما حوله. وصفه قدامى الجغرافيين فقالوا «هو شريف البقعة، كريم التربة، دائم الخضرة، فراسخ في فراسخ طولاً وعرضاً، لا تكاد تشمس منه بقعة لالتفاف زيتونه واشتباك غصونه، وزيته من أطيب الزيوت كثيرة الرّفع عند العصر، لا يتغير على طول الدّهر، ومن هنا يتجهّز به الى الآفاق براً وبحراً. وكل ما استودع أرض اشبيلية نما وزكا وجلّ، والقطن يجود صنفه فيعم بلاد الاندلس ويتجهّز به التجار الى افريقية وسجلماسة وما والاها، وكذلك العصفر به يفضل عصر الآفاق»[١].

في لحف هذا الجبل وامتداده تقع اشبيلية «وهي مدينة قديمة أزليّة، يذكر أهل العلم باللسان اللطيني أن أصل تسميتها اشبالي معناه المدينة المنبسطة، ويقال ان الذي بناها يوليش القيصر، وانه أول من تسمى قيصر وكان سبب بنائه إياها أنه لما دخل الاندلس ووصل إلى مكانها أعجبه كرم ساحته، وطيب أرضه، وجبله المعروف بالشرف. فردم على النهر الأكبر مكاناً، وأقام فيه المدينة وأحدق عليها بأسوار من صخر، وبنى في وسط المدينة قصبتين متقنتين عجيبتي الشأن، تعرفان بالأخوين، وجعلها أم قواعد الأندلس، واشتقّ لها اسماً من اسمه ومن اسم رومية فسمّاها رومية يوليش»[٢].

وبإشبيلية آثار للأُوَل كثيرة، وبها اساطين عظام تدل على هياكل كانت بها. وقد تحدث الحميري صاحب كتاب «الروض المعطار» عن اشبيلية قال: «وكان سور اشبيلية من بناء الامام عبد الرحمن بن الحكم، بناه بعد غلبة المجوس عليها بالحجر وأحكم بناءها، وكذلك جامعها من بنائه، وهو من عجيب البنيان وجليله، وصومعته بديعة الصناعة، غريبة العمل، أركانها الأربعة عمود فوق عمود إلى أعلاها، في كل ركن ثلاثة أعمدة .... واستعمل عليها سعيد بن المنذر المعروف بابن السليم فهدم سورها وألحق أعاليه بأسافله، وبنى القصر القديم المعروف بدار الامارة، وحصّنه بسور صخر رفيع، وأبراج منيعة، وبنى سور المدينة في الفتنة بالتراب»[٣].

وكان لما فتح العرب الاندلس ان استقر أهل جند حمص باشبيلية، وظلت المدينة تتمتع بالخير الكثير أيام الامارة والخلافة، أي ايام سيادة قرطبة. وكان اهلها أهل فن

وأدب وغناء وسرور، بحيث انه كان يقال اذا توفي مغن حملت أدوات موسيقاه الى اشبيلية لبيعها.

ولكن الدولة الأَموية زالت وتقسم بلاد الأندلس أُمراء تنازعوا رقعتها فقامت امارات ملوك الطوائف، وكان بنو عباد في اشبيلية افسحهم ملكاً وأبعدهم صيتاً واكثرهم ذكراً في التاريخ والادب. وقد دام ملكهم سبعين سنة كانت كلها في القرن الخامس (الحادي عشر). وقد نفقت في أيامهم للادب سوق، وقامت للادباء دولة، وراجت للشعر بضاعة. وقد جاء في الروض المعطار عن اشبيلية في القرن الخامس (الحادي عشر) قول الحميري: «وهي كبيرة عامرة لها أسوار حصينة، وأسواقها عامرة، وخلقها كثير، وأهلها مياسير، وجل تجارتهم الزيت يتجهزون به الى المشرق والمغرب برًا وبحراً، فيجتمع هذا الزيت من الشرف، وهو مسافة أربعين ميلاً كلها في ظل شجر الزيتون والتين، أوله مدينة اشبيلية، وآخره مدينة لبْلة، وسعته اثنا عشر ميلاً، وفيه ثمانية آلاف قرية عامرة بالحمّامات والديار الحسنة، وبين الشرف واشبيلية ثلاثة أميال»[٤].

ووصف ابن زيدون جنات اشبيلية في أيام بني عباد قال:

وليل أدمنا فيه شرب مدامة ... الى أن بدا للصبح في الليل تأشير
وجاءت نجوم الليل تضرب في الدجى ... فولت نجوم الليل والليل مقهور
فجزنا من اللذات أطيب طيبها ... ولم يعرنا هم ولا عاق تكدير
خلا أنه لو طال دامت مسرتي ... ولكن ليالي الدّهر فيهنّ تقصير[٥]

كان بنو عباد يتذوقون الشعر، وكان بلاطهم موئل الشعراء، لكن المعتمد بن عباد كان نفسه شاعراً مبرزاً، فتم للشعر في ايامه ما لم يتم له في اي وقت آخر، فكان يكرم الشعراء بعطاياه وبشعره. وقد جمع بلاط بني عباد مجموعة من كبار شعراء الوقت هم ابن اللبلنة وابن حمديس الصقلي وابو بحر بن عبد الصمد وابن زيدون وابن عمار وابن وهبون.

قال المعتمد بن عباد الملك الشاعر يصف معاهد نعيمه وأنسه في إشبيلية:

ولقد شربت الراح يسطع نورها ... والليل قد مد الظلام رداء
حتى تبدّى البدر في جوزائه ... ملكاً تناهى بهجة وبهاء
لما أراد تنزهاً في غربه ... جعل المظلة فوقه الجوزاء
وتناهضت زهر النجوم يحفه ... لألاؤها فاستكمل اللألاء
وترى الكواكب كالمواكب حوله ... رفعت ثرياها عليه لواء
وحكيته في الأرض بين مواكب ... وكواعب جمعت سنا وسناء
إن نشّرت تلك الدروع حنادساً ... ملأت لنا هذي الكئوس ضياء
وإذا تغنّت هذه في مزهر ... لم تأل تلك على التريك غناء[٦]

نقل المقري قول ابن القطاع في المعتمد بن عباد أنه «أندى ملوك الأندلس راحة وأرحبهم ساحة، وأعظمهم سماداً وأرفعهم عماداً. ولذلك كانت حضرته ملقى الرحال وموسم الشعراء، وقبلة الآمال ومألف الفضلاء، حتى انه لم يجتمع بباب أحد من ملوك عصره من أعيان الشعراء وأفاضل الأدباء ما كان يجتمع ببابه وتشتمل عليه حاشيتا جنابه»[٧].

روى ابن حمديس عن وصوله الى اشبيلية مهاجراً من صقلية بعد ان احتلها النورمان قال: «أقمت بإشبيلية لما قدمتها على المعتمد بن عباد، مدة لا يلتفت إليّ ولا يعبأ بي حتى فطنت لخيبتي مع فرط تعبي، وهممت بالنكوص على عقبي. فإني لكذلك ليلة من الليالي في منزلي إذا بغلام معه شمعة ومركوب. فقال لي: أجب السلطان. فركبت من فوري ودخلت عليه. فأجلسني على مرتبة فنك. وقال لي: افتح الطاق التي تليك. ففتحتها فإذا بكور زجاج على بعد، والنار تلوح من بابيه، وواقدة تفتحهما تارة وتسدّهما أخرى. ثم دام سدّ أحدهما وفتح الآخر فحين تأملتهما قال لي أجز:

أنظرهما في الظلام قد نجما

فقلت:

كما رنا في الدجنة الأسد

فقال:

يفتح عينه ثم يطبقها

فقلت:

فعل امرىء في جفونه رمد

فقال:

فابتزه الدهر نور واحدة

فقلت:

وهل نجا من صروفه أحد

فاستحسن ذلك وأمر لي بجائزة سنية وألزمني خدمته»[٨].

والقصة التالية بين المعتمد ووزيره الشاعر ابن عمار تدل على سعة في الصدر ورقة في الشعر. قال الراوي:

وأدخلت على المعتمد يوماً باكورة نرجس فكتب الى ابن عمار يستدعيه:

قد زارنا النرجس الذكي ... وآن من يومنا العشي

وعندنا مجلس أنيق ... وقد ظمئنا وفيه ريّ

ولي خليل غدا سميّي ... يا ليته ساعد السميّ

فأجابه ابن عمار:

لبـيك لبـيك من منـاد | لـه النـدى الـرحـب والنـديّ
هـأنا بالبـاب عـبـد قنّ | قـبلتـه وجـهك السّني
شـرّفـه والـداه بـاسـم | شـرفـتـه أنت والنبـيّ(٩)

ودار الزمن دورته. فإن التفرق الذي مني به الأندلسيون أضعفهم، وقوّى عليهم جيرانهم الاسبان، الذين اخذوا يحتلون المدن والقلاع فرأى المعتمد بن عباد ان يستنجد بأمير المسلمين يوسف بن تاشفين المغربي المرابط فقبل هذا النجدة وجاء الأندلس. وقد جاء في وصف استقبال المعتمد له قول صاحب الروض المعطار:

«فلما عبر يوسف وجميع الجيوش انزعج الى اشبيلية على أحسن الهيئات جيشاً بعد جيش، وأميراً بعد أمير، وقبيلاً بعد قبيل، وبعث المعتمد ابنه الى لقاء يوسف. وأمر عمال البلاد بجلب الأقوات والضيافات. ورأى يوسف من ذلك ما سره ونشّطه. وتواردت الجيوش مع أمرائها في اشبيلية. وخرج المعتمد الى لقاء يوسف من اشبيلية في مائة فارس ووجوه أصحابه. فأتى محلة يوسف فركض نحو القوم وركضوا نحوه. فبرز اليه يوسف وحده والتقيا منفردين وتصافحا وتعانقا. وأظهر كل واحد منهما المودة والخلوص. فشكرا نعم الله، وتواصيا بالصبر والرحمة، وبشرا نفسهما بما استقبلاه من غزو أهل الكفر. وتضرعا إلى الله تعالى في أن يجعل ذلك خالصاً لوجهه مقرباً اليه. وافترقا، فعاد يوسف لمحلته، ورجع ابن عباد الى جهته. ولحق بابن عباد ما كان أعده من هدايا وتحف وألطاف أوسع بها محلة ابن تاشفين. وباتوا تلك الليلة.

«فلما صلوا الصبح ركب الجميع. وأشار ابن عباد على يوسف بالتقدم الى اشبيلية ففعل ورأى الناس من عزة سلطانه ما سرهم. ولم يبق من ملوك الطوائف بالأندلس إلا من بادر وأعان وخرج وأخرج. وكذلك فعل الصحراويون مع يوسف بكل صقع من أصقاعه رابطوا وصابروا»(١٠).

وتلا ذلك وقعة الزلاقة التي انتصر فيها ابن تاشفين وصحبه على الاسبان سنة ٤٧٩ [١٠٨٦]. وفرح المسلمون بذلك، لكن ابن تاشفين قرر فيما بعد خلع ملوك الطوائف وفيهم المعتمد صاحب اشبيلية. يقول الفتح بن خاقان عن ايام المعتمد الأخيرة في عاصمته: «ثم انصرف وقد أيقن بانتهاء حاله، وذهاب ملكه وارتحاله. وعاد الى القصر واستمسك فيه يومه وليلته مانعاً لحوزته، دافعاً للذل عن عزته. وقد عزم على أفظع أمر، قائلاً بيدي لا بيد عمرو. ثم صرفه تقاه عما نواه (يعني أنه هم بالانتحار) فنزل من القصر بالقسر الى قبضة الأسر. فقيد للحين وحان له يوم شرّ ما ظن أنه يحين ... ثم جمع هو وأهله وحملتهم الجواري المنشآت، وضمتهم جوانحها كأنهم أموات، بعدما ضاق منهم القصر، وراق منهم العصر، والناس قد حشروا بضفتي الوادي وبكوا بدموع كالغوادي. فساروا والنّوح يحدوهم، والبوح باللوعة لا يعدوهم»(١١).

وفي هذه الحالة قال المعتمد بن عباد أبياته التي كثيراً ما يتمثل بها:

ان يسلب القوم العدى ... ملكي وتسلمني الجموع
فالقلب بين ضلوعه ... لم تسلم القلب الضلوع
قد رمت يوم نزالهم ... الا تحصنني الدروع
وبرزت ليس سوى القميص ... عن الحشا شيء دفوع
أجلي تأخر لم يكن ... بهواي ذلي والخضوع
ما سرت قط الى القتا[١٢] ... ل وكان من أملي الرجوع
شيم الألى أنا منهم ... والأصل تتبعه الفروع[١٣]

ويبدو ان اشبيلية حافظت على بعض ما كان لها من قبل كدار للمعرفة. فقد روى ابن دحية صاحب المطرب من أشعار اهل المغرب في ترجمته لابن زرقون انه رجع الى اشبيلية فقرأ على القاضي الخطيب بجامعها. قال «وشاهدناه في آخر عمره قد اتخذ المسجد الجامع داراً، والتفت الى رواياته وتواليفه فروى صغاراً وكباراً. قرأت عليه كثيراً وسمعت، وأجاز لي ولأخي الحافظ أبي عمرو جميع رواياته ومجموعاته. وتوفي رحمه الله على أحسن حالاته ببلدة اشبيلية سنة ستّ وثمانين وخمسمائة [١١٩٠]، وله أربع وثمانون سنة. وخلّف أموالاً عظيمة، وكتباً في كل فن كريمة[١٣]».

الهوامش

(١) الهمذاني، أبو عبد الله بن عبد المنعم الحميري: صفة زيرة الأندلس، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٧، ص ٢١.
(٢) نفس المكان، ص ١٨ـ١٩.
(٣) نفس المكان، ص ٢٠ـ٢١.
(٤) نفس المكان، ص ١٩.
(٥) ابن دحية، أبو الخطاب عمر: المطرب في اشعار أهل المغرب، القاهرة، المطبعة الأميرية، ١٩٥٤، ص ١٦٥.
(٦) عبد الوهاب، عزام: المعتمد بن عباد، القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٩، ص ١٩ـ٢٠.
(٧) نفس المكان، ص ١٣.
(٨) نفس المكان، ص ٢٣.
(٩) نفس المكان، ص ٢٨ـ٢٩.
(١٠) نفس المكان، ص ٣٧ـ٣٨.
(١١) نفس المكان، ص ٥٥.
(١٢) نفس المكان، ص ٥٤ـ٥٥.
(١٣) ابن دحية، ص ٢٢١.

٦ـ تِلْمِسان

كانت طريقنا من الجزائر الى تلمسان تحاذي أطراف منطقة التل والسفوح الشمالية للأطلس. وهي طريق جميلة. «وقبل ان نصل تلمسان أخذت الطريق تدور بنا وتلف، متجنبة هذه الأودية السحيقة، مجارية لهذه الجبال السامقة، مستظلة بين الفينة والفينة بهذه الاشجار الباسقة، مشرفة، بين الحين والحين، على نهيرات عذب ماؤها وصفا لونه حتى لكأنه غير الماء. ولم نلبث ان أشرفنا على تلمسان، فإذا بنا في منبسط من الارض جاد فيه التراب، فأينع الثمر، وانتظم الشجر، وفاح من الزهور أريج، وكسا الجبال غاب، فنقلنا ذلك كله الى عالم فيه من الجمال ما يعجز الوصف»[١].

هذه المدينة قديمة جداً، وإذا صح ان اسمها مكون من كلمتين بربريتين ـ تلم ومعناها اثنان وسان التي تعني مدينة، فمعنى هذا انها تضارع وجود البربر تاريخاً. وقد شغلت غير دور في تاريخ الجزائر، لكنها تمتعت بمنعة واستقلال أيام قامت فيها دولة عبد الواد او الدولة الزيانية التي استمر وجودها ثلاثة قرون من أوائل السابع (الثالث عشر) الى أواسط العاشر (السادس عشر). وقد كانت الدولة الزيانية هذه بين حجري الرحى ـ فالحفصيون كانوا يهاجمونها من الشرق، وبنو مرين كانوا يطبقون عليها من الغرب، لكنها استطاعت ان تقف في وجه الفريقين، وان كانت قد احتلت بعض الوقت على أيدي المغاربة.

ولعلّ من أطرف أخبار الحملات على تلمسان تلك التي قام بها السلطان المريني يوسف سنة ٦٩٨ [١٢٩٩]، أيام كان عثمان بن يغمراسن يحكم في المدينة. قال صاحب الاستقصا:

«فنهض [السلطان يوسف] لحينه من فاس في رجب، سنة ٦٩٨، بعد ان استكمل حشده ونادى في قومه وعرض عسكره وأجزل اعطياتهم وأزاح عللهم، وسار في التعبية حتى نزل بساحة تلمسان ثاني شعبان سنة ثمان وتسعين وستمائة فأناخ عليها بكلكله وربض قبالتها على ترائبه وأنزل محلته بفنائها وأحاط بجميع جهاتها، وتحصن يغمراسن وقومه بالجدران وعولوا على الحصار.

«ولما رأى السلطان يوسف ذلك أدار سوراً عظيماً جعله سياجاً على تلمسان وما اتصل بها من العمران وصيّرها في وسطه، ثم أردف ذلك السور من ورائه بحفير بعيد

المهوى وفتح فيه مداخل لحربها ورتب على أبواب تلك المداخل مسالح تحرسه. واوعد بالعقاب من يختلف إلى تلمسان برفق أو يتسلل اليها بقوت، وأخذ بمخنقها من بين يديها ومن خلفها حتى لم يخلص اليها الطير لا بل الطيف. واستمر مقيماً عليها كذلك مائة شهر، ولما دخلت سنة اثنتين وسبعمائة [١٣٠٢] اختط إلى جانب ذلك السور بمكان فسطاطه وقبابه قصراً لسكناه واتخذ به مسجداً لصلاته وأدار عليهما سوراً يحرزهما. ثم أمر الناس بالبناء حول ذلك فبنوا الدور الواسعة والمنازل الرحيبة والقصور الانيقة واتخذوا البساتين وأجروا المياه، وأمر السلطان باتخاذ الحمامات والفنادق والمارستان، وابتنى مسجداً جامعاً أقامه على الصهريج الكبير وشيد له مناراً رفيعاً وجعل على رأسه تفافيح من ذهب ... ثم أدار السور على ذلك كله فصارت مدينة عظيمة استبحر عمرانها ونفقت أسواقها ورحل إليها التجار بالبضائع من جميع الآفاق وسماها المنصورة. فكانت من أعظم أمصار المغرب وأحفلها إلى أن خربها آل يغمراسن عند مهلك السلطان يوسف وارتحال جيوشه عنها»[٢].

وقد حدث ان هلك السلطان يوسف وهو على حصارها. وقد روى ابن خلدون قصة الأيام الأخيرة لحصار تلمسان قال: «وحدثني شيخنا محمد بن ابراهيم الآبلي قال: جلس السلطان ابو زيان صبيحة يوم الفرج وهو يوم الاربعاء في خلوة زوايا قصره واستدعى ابن حجاف، خازن الزرع، فسأله: كم بقي من الاهراء والمطامير المختومة؟ ... فقال له: انما بقي عولة اليوم وغد!! .. فاستوصاه بكتمانها. وبينما هم في ذلك دخل عليه أخوه أبو حمو فأخبروه فوجم لها وجلسوا سكوتاً لا ينطقون! ... وإذا بالخادم «دعد» قهرمانة القصر من وصائف بنت السلطان ابي اسحاق وحظية أبيهم خرجت من القصر اليهم وحيتهم تحيتها وقالت: تقول لكم حظايا قصركم وبنات زيان حرمكم ما لنا وللبقاء؟ وقد أحيط بكم واسف عدوكم لاتهامكم ولم يبق الا فواق بكية لمصارعكم، فأريحونا من معرة السبي وأريحوا فينا أنفسكم وقربونا إلى مهالكنا، فالحياة في الذل عذاب والوجود بعدكم عدم! ... فالتفت ابو حمو الى أخيه وكان من الشفقة بمكان، وقال: قد صدقتك الخبر فما تنظر بهن؟ ... فقال: يا موسى ارجئني ثلاثاً لعل الله يجعل بعد عسر يسرا! .. ولا تشاورني بعدها فيهن، بل سرح اليهود والنصارى إلى قتلهن! ... وتعال إلي نخرج مع قومنا الى عدونا فنستميت ويقضي الله ما يشاء. فغضب أبو حمو وأنكر الإرجاء في ذلك، وقال: انما نحن والله نتربص المعرة بهن وبأنفسنا، وقام عنه مغضباً وجهش السلطان أبو زيان بالبكاء! ... قال ابن حجاف ـ خازن الزرع ـ: وانا بمكاني بين يديه لا أملك متأخراً ولا متقدماً الى أن غلب عليه النوم، فما راعني إلا حرسي الباب يشير الى ان اذن السلطان بمكان رسول من معسكر بني مرين لسدة القصر، فلم اطق رجع جوابه الا بإشارة، وانتبه السلطان من خفيف اشارتنا فزعاً فأذنته واستدعاه، فلما وقف بين يديه قال له: ان يوسف بن يعقوب هلك

الساعة! .. وانا رسول حافده ابي ثابت اليكم؛ فاستبشر السلطان واستدعى أخاه وقومه حتى أبلغ الرسول رسالته بمسمع منهم، وكانت احدى المغربات في الأيام»[٣].

وتلمسان وصفها الادريسي، من أهل القرن السادس (الثاني عشر) قال:

«إن لها نهراً يأتيها من جبلها المسمى بالصخرتين، وان هذا الوادي يمر في شرقي المدينة وعليه أرحاء كثيرة وما جاورها من المزارع كلها سقي، وغلاتها ومزارعها كثيرة وفواكهها جمة، وخيراتها شاملة، ولحومها شحمية سمينة. وبالجملة انها حسنة لرخص أسعارها ونفاق اشغالها ومرابح تجاراتها، ولم يكن في بلاد المغرب بعد مدينة اغمات وفاس أكثر من أهلها أموالاً ولا أرفه منهم حالاً»[٤].

وقد كان ملوك بني زيان ينشّطون العلم، وكان منهم الشعراء والأدباء. ومن أشهر هؤلاء ابو حمو الثاني الذي ولي أمور المملكة سنة ٧٦٠ [١٣٥٩]. وقد وصف يحيى بن خلدون، وهو أخو المؤرخ المشهور، الذي عاش في عصر ابي حمو الثاني، تلمسان فقال: «وبها للملوك قصور زاهرة اشتملت على المصانع الفائقة، والصروح الشاهقة والبساتين الرائقة مما زخرفت عروشه ونمقت غروسه، وتناسبت أطواله وعروضه فأزرى بالخورنق والسدير»[٥].

وكانت ليالي المولد النبوي مما يحتفل به احتفالاً كبيرًا في تلمسان. فمن ذلك خبر الاحتفال بها سنة ٧٦٠ [١٣٥٩] على ما نقله الينا يحيى بن خلدون قال:

«وأطلت ليلة الميلاد النبوي على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم فأقام لها بمشور داره العلية مدعى كريماً وعرساً حافلة، احتشدت لها الأمم وحشر بها الاشراف والسوقة فما شئت من نمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة، ومشامع كأنها الاسطوانات القائمة على مراكز الصفر المموهة. والخليفة أيده الله صدر مجلسها ممتطئاً سرير ملكه يسر النظارين رواؤه، ويثلج الصدور عزه، وتحار في كمالات خلاله النهى حفافيه. ملأ التجلة من قومه واعيان الطبقات من أهل حضرة خلافته على مقاعد عينها الاختصاص ورتب بعضها فوق بعض المناصب، تخالهم قطع الرياض النضرات، قد اغضى الجلال من أبصارهم وخفضت المهابة من اصواتهم، فلا تبصر الا جمالاً ولا تسمع الا همساً. يطوف عليهم ولدان اشعروا اقبية الخز الملون وبأيديهم مباخر ومرشات، يغيم دخان عنبر تلك المفغم للاناف الجو فتمطر هذه الحفل وابلاً من ماء الورد المنسوب الى نصيبين»[٦].

وكان قصر ابي حمو فيه ساعة ومنجانة جاء عنها في الكتاب الذي أرخ فيه يحيى ابن خلدون لبني عبد الود قوله: «وخزانة المنجانة ذات تماثيل اللجين المحكمة قائمة المصنع تجاهه ـ يعني السلطان ـ باعلاها أيكة تحمل طائراً فرخاه تحت جناحيه، ويخاتله فيها أرقم خارج من كوة بجدر الايكة صعداً. وبصدرها أبواب مجوفة عدد ساعات الليل الزمانية، يصاقب طرفيها بابان مجوفان اطول من الأول واعرض فوق

جميعها، ودوين رأس الخزانة قمر اكمل يسير على خط استواء سير نظيره في الفلك، ويسامت أول كل ساعة بابها المرتج، فينقض من البابين الكبيرين عقابان بفي كل واحد منهما صنجة صفر يلقيها الى طست من الصفر مجوف بوسطه ثقب يفضي بها الى داخل الخزانة فيرن، ويريد الارقم ان ينهش أحد الفرخين فيصفر له أبوه فهنالك يفتح باب الساعة الراهنة وتبرز منه جارية محتزمة صورت في أحسن صورة، في يدها اليمنى رقعة مشتملة على نظم فيه تلك الساعة باسمها مسطور، فتضعها بين يدي السلطان بلطافة ويسراها موضوعة على فيها كالمبايعة بالخلافة لأمير المؤمنين. حيل احكمت يد الهندسة وضعها، وراض تدبير الخلافة أعلى الله مقامه شماسها»[٧].

وقد قال عبد الرحمن الجيلالي اثناء حديثه عن صناعات الجزائر وفنونها ما يلي: «ولا ينبغي ان يفوتنا هنا ونحن نؤرخ للصناعات والفنون بالجزائر، ان نترك الاشارة الى ما كان بقصر السلطان ابي تاشفين الأول من تلك الشجرة العجيبة المصنوعة من الفضة الواقعة على اغصانها تماثيل طيور مختلفة الاشكال والالوان تحاكي اشباهها من الطيور الطبيعية، وكلها مصنوعة بحيل ميكانيكية لطيفة يعلوها صقر، فاذا نفخ في اصل الشجرة صوتت تلك الطيور كلها باصوات على غرر نظرائها من الطيور. حتى اذا تموج الهواء وبلغ الى الصقر صوت فتنقطع لصوته جميع الاصوات كما نقل ذلك الامام القرافي عمن شاهد هذه الشجرة بنفسه وسمع تغريد طيورها بحضرة السلطان بتلمسان»[٨].

وأبو حمو الثاني كان شاعراً مجيداً، له شعر جميل جداً. وقد روى قصة مجيئه من تونس، حيث كان لاجئاً، وقتاله في سبيل الملك، والبيعة له في قصيدة طويلة نجتزىء منها بقوله:

قطعت الفيافي بالقلاص وانما ... تجاب الفلى بالخف أو بالمناسم
وقد خلتها بين الرياح زوابعاً ... تسابق في البيدا ظليم النعائم
مكحلة الاحداق فيها هشاشة ... مهملجة الاطراف سود المباسم
ومعها اسود الحرب تطوي بها الفلى ... يرون المنايا بعض تلك الغنائم
وخضت الفيافي فدفداً بعد فدفد ... لنيل العلى والصبر اذ ذاك لازمي
وكم ليلة بتنا على الجدب والطوى ... نراقب نجم الصبح في ليل عاتم
على متن صهال اغر محجل ... مديد الخطى لم يخش صعب الصلادم
تسربلت كردوسين من آل عامر ... ومن آل ادريس الشريف بن قاسم
رجال اذا جاش الوطيس تراهم ... اسود الوغى من كل ليث ضبارم
وجبت الفيافي بلدة بعد بلدة ... وطوعت فيها كل باغ وباغم
وجئت لأرض الزاب تذرف ادمعي ... لتذكار اطلال الربوع الطواسم

وشبكت عشري فوق رأسي فلم أجد ... بها مخبراً غير الربى والمعالم
وجاوزتها ما بين هوج هجائن ... رقاق الهوادي عاليات القوائم
وجزت بأرض ريغ راغت بأهلها ... ببلقعة قفر قفتها عزائمي[٩]

في القرن التاسع [الخامس عشر] زار عبد الباسط بن خليل الظاهري تلمسان فتحدث عنها كثيراً، فمما قال: «ولقينا بها جماعة أخرى من الفضلاء والأدباء والأطباء، منهم محمد بن علي ابن فشوش أحد أطباء تلمسان في المزاولة والدراسة، وسمعت من فوائدهم، وحضرت دروس بعضهم، ونقلت عنهم أشياء وأجازوني. ولازمت في الطب الرئيس الفاضل الماهر الادرى، ولا رأيت كمثله في مهارته في هذا العلم وفي علم الوفق والميقات وبعض العلوم القديمة مع التعبد الزائد في دينه على ما يزعمه ويعتقد»[١٠].

وقد قال محمد بن يوسف التغري يصف تلمسان:

أيها الحافظون عهد الوداد ... جددوا أنسنا بباب الجياد
وصلوها أصائلاً بليال ... كلآل نظمن في الأجياد
في رياض منضدات المجاني ... بين تلك الربا وتلك الوهاد
وبروج مشيدات المباني ... باديات السنى كشهب بوادي
رق فيها النسيم مثل نسيبي ... وصفا النهر مثل صفو ودادي
وزها الزهر والغصون تثنت ... وتغنت عليه ورق سوادي
وانبرى كل جدول كحسام ... عاري الغمد سندسي النجاد
وظلال الغصون تكتب فيه ... أحرفاً سطرت بغير مداد
تذكر الوشم في معاصم خود ... قضب فوقه ذوات امتداد
وكؤوس المنى تدار علينا ... بجنى عفة ونقل اعتقاد
واصفرار الأصيل فيها مدام ... وصفير الطيور نغمة شادي
كم غدونا بها لأنس ورحنا ... جادها رائح من المزن غادي
ولكم روحة على الدوح كادت ... ان تريح الصبا لنا وهو غادي
رقت الشمس في عشاياه حتى ... أحدثت منه رقة في الجماد
جددت بالغروب شجو غريب ... هاجه الشوق بعد طول البعاد[١١]

وقد أنبتت تلمسان عدداً كبيراً من المشاهير منهم محمد بن خميس والابلي والمشدالي. وهذا الاخير ذهب الى مصر ودرس في الأزهر. وممن صحبه وحضر درسه في الأزهر الامام السخاوي. وقد قال عنه: «وقد حصلت بيننا اجتماعات وصحبة ورأيت منه من حدة الذهن وذكاء الخاطر وصفاء الفكر وسرعة الإدراك وقوة الفهم وسعة الحفظ وتوقد القريحة واعتدال المزاج وسداد الرأي واستقامة النظر

ووفور العقل وطلاقة اللسان وبلاغة القول ورصانة الجواب وغزارة العلم وحلاوة الشكل وخفة الروح وعذوبة المنطق ما لم أره من أحد»[١٢].

ثم تطرق السخاوي الى ذكر درس المشدالي فقال:

«ثم حضرت درسه في فقه المالكية بالجامع الأزهر في ذي القعدة سنة اثنتين وخمسين ـ من القرن التاسع الهجري [١٤٤٥] ـ فظهر لي انني ما رأيت مثله، ولا رأى هو مثل نفسه وان من لم يحضر درسه لم يحضر العلم ولا سمع كلام العرب ولا رأى الناس بل ولا خرج الى الوجود. قال ومن سمع كلامه في العلم علم انه يخبر عن مشاهدة ومعاينة، وان غيره يخبر عن غيبة وليس المخبر عن المشاهدة كغيره. ولهذا نجد كلامه في القلب أثبت من كلام غيره، ولم أرَ أعظم تحريكاً للهمم من حاله ولا أشهد فعلاً للقلوب من مقاله، سماع درس واحد من تقريره أكثر نفعاً من سماع مائة من غيره. هيئة لعمري لا يحاط بكنهها، وهو آية أبرزه الله في هذا العصر للعباد. فمن قبلها يرجى له بركتها ومن أباها خشي عليه معاجلة العقوبة. لا يشبه كلامه في جزالته إلا كلام العرب العرباء ولا يضاهيه في طلاقته ورصانته سوى الالباء، على انه محشو من دقيق المعاني بما يمنع لعمري من التصنع ويشغل عن التكلف، بل تلك منه سجية غير محتاجة الى روية، وهمة عالية ما جنحت قط في التحصيل لدنية:

صفات يغار البدر منها وينثني لها خضعانا رؤوس المنابر

قال: فكان يقرأ القارىء بين يديه ورقة او أكثر ثم يسرد ما تضمنته من تصوير المسائل ويستوفي كلام أهل المذهب ان كان فقهاً، وكلام الشارحين إن كان غير ذلك، ثم يتبع ذلك بأبحاث تتعلق بتلك المسائل؛ كل ذلك في أسلوب غريب ونمط عجيب بعبارة جزلة وطلاقة كأنها السيل، وتحرز بديع بحيث يكون جهد الفاضل البحاث عند غيره ان يفهم ما يلقيه ويدرك بعض إدراك ما يجليه»[١٣].

الهوامش

(١) زياده، نقولا: الجزائر ومشاكلها، الابحاث ج ٥ (١٩٥٥) ص ٦٠ـ٦١.
(٢) الاستقصا، ج ٣، ص ٧٩ـ٨٠.
(٣) الجيلالي، عبد الرحمن: تاريخ الجزائر العام، الجزائر، المطبعة العربية، ١٩٥٥، ج ٢، ص ١٣٠ـ١٣١.
(٤) نفس المكان، ج ٢، ص ٢١٧ـ٢١٨.
(٥) نفس المكان، ج ٢، ص ٢٤٣.
(٦) ابن خلدون، ابو زكريا يحيى: بغية الرواد في تاريخ الملوك من بني عبد الواد، الجزائر، ١٩١٠، ج ٢، ص ٤٠.
(٧) الجيلالي، ج ٢، ص ٢٢٩ـ٢٣٠.
(٨) نفس المكان، ج ٢، ص ٢٣٣.
(٩) نفس المكان، ج ٢، ص ١٥٥.

(١٠) زياده، نقولا: الرحالة العرب، القاهرة، دار الهلال، ١٩٥٦، ص ٢٠٣.
(١١) الجيلالي، ج ٢، ص ٢٠٠.
(١٢) نفس المكان، ج ٢، ص ٢٥٦.
(١٣) نفس المكان، ج ٢، ص ٢٥٦ـ٢٥٧.

٧ـ الجَزائِر

مدينة تعتمد الى تلال تكلأها، وتلقي عليها غاباتها ظلالها، وتطل عليها حنواً وعطفاً. فاذا اطمأنت المدينة الى المنعة والحنو والعطف اتخذت من البحر لها قبلة ووجهة، فاتسعت آفاقها باتساعه، وعمق شعورها بعمقه، وامتدت آمالها بامتداده، وهدأت احلامها بهدوئه، وثارت ثائرتها بعصفه، وجاشت خواطرها بثورته. ذلك كان شأنها يوم وضع الانسان الحجر الأول في مدينة الجزائر، ولا يزال شأنها كذلك الى يوم الناس هذا. عرفناها كذلك وأواسط يومها يقيظ، وعرفناها وأمسيتها تنعش، وعرفناها وليلها يقلقك برده.

اقام الانسان أول مأوى له فيها قبل آلاف من السنين. وبلغت القمة في تاريخها غير مرة. فعرفت الرفعة والثراء، وخبرت الضعة والفقر. لكنها، في كل حال، ظلت مرفوعة الرأس، منتصبة القامة، تؤثر الشرف على الاستكانة.

واذا نحن خصصنا عصوراً على انها قمم في تاريخ الجزائر ـ مدينة وقطراً ـ لوجدنا الدولة الحمادية بينها، وهي الدولة التي قامت في أوائل القرن الرابع (العاشر).

وقد وصف الادريسي القطر في ايامه قال:

«ومدينة بجاية في وقتنا هذا مدينة المغرب الأوسط وعين بلاد بني حماد، والسفن اليها مقلعة، وبها القوافل منحطة والامتعة اليها براً وبحراً مجلوبة، والبضائع بها نافقة واهلها مياسير تجار، وبها من الصناعات والصنائع ما ليس بكثير من البلاد، واهلها يجالسون تجار المغرب الأقصى وتجار الصحراء وتجار المشرق، وبها الشدود وتباع البضائع بالاموال المقنطرة، ولها بواد ومزارع لفلاحة انواع الأثمار والأشجار وغراسة القطن والكتان وبقية انواع المنتوجات الزراعية. والحنطة والشعير بها موجودان كثيراً، والتين وسائر الفواكه بها منها ما يكفي لكثير من البلاد. وبها دار صناعة لإنشاء الأساطيل والمراكب والسفن والحرابي لأن الخشب في أوديتها وجبالها كثير موجود، ويجلب إليها من اقاليمها الزفت البالغ الجودة والقطران، وبها معادن الحديد الطيب موجودة وممكنة كما هي كذلك بعنابة، وبها من الصناعات كل غريبة ولطيفة»[١].

وفي أيام الحفصيين منذ اواسط القرن السابع (الثالث عشر)، كانت الجزائر،

على ما يقول الجيلالي: «مزدهرة بما فيها من اسواق قائمة وتجارة رائجة في أنواع الحبوب والتمور والماشية والصوف، وخاصة بمدينة قسنطينة وبجاية وسطيف وميلة والقلعة وارض الزاب؛ وسير القوافل كان يومئذ منظماً ما بين الجزائر والسودان، وكذلك المواصلات بحراً ما بين المملكة الحفصية والولايات الاطالية كقطلونية وصقلية وجنوة. فإنه كان لهذه الدول الغربية معاهدات وعلاقات تجارية مع الجزائر وتونس وكانت لها محطات ومستودعات لتبادل التجارة منبثة بكامل سواحل الشمال الافريقي كمركز بونة وبجاية. فمن هذه كانت تستورد حاجياتها الضرورية من حبوب وزيت وسمك وصوف ومرجان وانواع البسط والجلد الخ .. وذلك ما كانت الجزائر ولا تزال تغله الى الآن، وان المملكة الحفصية كانت بدورها كذلك تستورد من الخارج انواع الزجاج والمصوغ وأدوات الحديد الصناعية الخ .. فازداد بذلك ثراء الرعية، وبلغت ثروة اسرة القائد نبيل عشرين قنطاراً ذهباً ومثلها من قيمة الجواهر والعقار والاثاث! ...»[٢].

ويحدثنا الغبريني عن التدريس في ايامه فيذكر «لنا من دواوين امهات الفقه موطأ الامام مالك والتهذيب للبراذعي والجلاب والتلقين للقاضي عبد الوهاب البغدادي. ومختصر بن ابي زيد ورسالته الشهيرة ـ والمدونة وكتاب عبد الله بن عبد الحكم. والتفريع لابن الجلاب ـ والتبصرة للخمي ـ وكتب ابن العربي والمازري والقاضي عياض. ولم يكن يومئذ يعرف بالجزائر او غيرها من بلاد المغرب مختصر خليل حتى جاء به محمد بن الفتوح التلمساني سنة ٨٠٥ [١٤٠٢] فأقبل عليه الناس وعنوا به وتناولوه بالشرح والتدريس مكتفين به عن بقية دواوين الفقه المالكي وامهاته»[٣].

ومن مشاهير الجزائريين في ايام دولة بني حفص يحيى بن عبد المعطي. ويؤخذ من مجمل ما قاله عنه المؤرخون انه «سكن دمشق فسمع بها من ابن عساكر، وأقرأ بها النحو فانتفع به خلق كثير، وولاه الملك المعظم مصالح الجامع. ثم ان الملك الكامل بمصر رغب اليه في الانتقال إلى القاهرة فانتقل الشيخ الى بلاد الكنانة وتصدر هنالك لإملاء الأدب العربي وتدريسه بجامعها العتيق فالتف يومئذ حوله الطلبة واحتفلوا لدروسه، وأقبل عليه الناس يعظمونه ويكبرون علمه وأدبه فأخذوا عنه علماً كثيراً وادباً جما، واجرى له الملك على ذلك جراية، فأكب المترجم على التدريس والتأليف فتخرج عنه عدد عظيم. وكان مما وضعه من التآليف ألفيته في النحو المشهورة باسم الدرة الالفية في علم العربية وهي التي اشار اليها ابن مالك النحوي في ديباجة خلاصته واثنى عليه فيها، وهي منظومة من بحرين بعضها من السريع وبعضها من الرجز»[٤].

ومن أهل الأدب والشعر في تلك الفترة محمد بن الحسن القلعي، الذي قيل فيه:

«برع الشيخ في فنون كثيرة من العلم وخاصة الادب فإنه كان آية في تحريره غزير المادة فيه، تقرأ عليه جميع امهات كتب الادب والشعر فيقوم على جميعها احسن قيام،

وكان يحضر مجالسه الكثير من فضلاء الطلبة ونبهائهم. وكثيراً ما كانت تعرض عليه المسائل العويصة والمشاكل المختلفة في التفسير والحديث وغريب الشعر وغيره فيتصدى لشرحها وتحليلها بكيفية عجيبة مما لا يكاد يوجد عند غيره من العلماء بل ولا في نوادر الكتب ايضاً. ومن تلامذته المشهورين ابو العباس أحمد الغبريني مؤلف عنوان الدراية». فقد لازمه اكثر من عشر سنين واستفاد منه علماً كثيراً وأدباً جماً وسطر اعترافه بفضل شيخه هذا في عنوانه فقال:

«وهو أفضل من لقيت في علم العربية، لزمت عليه القراءة ما ينيف على عشرة أعوام واستمتعت به كثيراً واستفدت منه كبيراً. قرأت عليه الإيضاح من فاتحته الى خاتمته، وقرأت عليه جملة من الامالي وزهر الآداب ومن المقامات وقصائد متخيرات من شعر حبيب ومن شعر المتنبي وحضرت قراءة المفصل. وكان رحمه الله محباً في التعليل. وله من التآليف كتاب سماه بالموضع في علم النحو، وحدق العيون في تنقيح القانون ـ لعله قانون ابي موسى الجزولي ـ ونشر الخفي في مشكلات ابي علي، هو على الإيضاح. وكان يؤثره على غيره من الكتب»[٥].

وللقلعي شعر صوفي لطيف. فمن ذلك قوله:

امن اجل ان بانوا فؤادك مغرم ... وقلبك خفاق ودمعك يسجم
وما ذاك إلا أن جسمك منجد ... وقلبك مع من سار في الركب متهم
ومن قائل في نظمه متعجبا ... وجسم بلا قلب فكيف رأيتم؟! ..
ولا عجب ان فارق الجسم قلبه ... فحيث ثوى المحبوب يثوى المتيم
وما ضرهم لو ودعوا يوم اودعوا ... فؤادي بتذكار الصبابة يضرم
عساهم كما ابدوا صدوداً وجفوة ... يعودون للوصل الذي كنت اعلم
واني لأدعو الله دعوة مذنب ... عسى انظر البيت العتيق وألثم
فيما طول شوقي للنبي وصحبه ... ويا شد ما يلقى الفؤاد ويكتم[٦]

وقد أغرم غير واحد من الشعراء في ذلك الوقت بالتشطير والتخميس. فمن ذلك ان أحمد بن أبي القاسم الخلوف سمع بيتين لابن الاحمر صاحب الاندلس هما:

افاتكة اللحظ التي سلبت نسكي ... على أي حال كان لا بد لي منك
فاما بذل وهو أليق بالهوى ... واما بعز وهو أليق بالملك

فقال مخمساً:

اماط الهوى عن واضحي برقع النسك ... فوحدت من اهواه عن هوة الشرك
فقلت وقد افتت لحاظك بالفتك ... افاتكة اللحظ التي سلبت نسكي

على اي حال كان لا بد لي منك

يمـيناً بنجم القـرط منك اذا هوى وخـال على عـرش وجنتك اسـتوى
لئن لم تفي لا بد للقلب مـا نوى فـامـا بذل وهو أليق بالهـوى
وامـا بعـز وهو أليق بالملك(٧)

وللجزائر تقليد ادبي مستمر. فهذا محمد بن عمر المليكشي من أهل القرن الثامن (الرابع عشر) ذكره الرواة فقالوا: «كان صدراً في الطلبة والكتاب، فقيهاً كاتباً اديباً حاجاً راوية متصوفاً فاضلاً صاحب خطة الانشاء بتونس، ذا تواضع وايثار وقبول حسن، له شعر رائق، ونثر فائق، وكتابة بليغة، وتآليف مستظرفة، وعرفه المقرّي في نفحه نقلاً عن كتاب الاكليل الزاهر لابن الخطيب فقال بعدما ذكر اصله ونسبه حسب ما تقدم ... كاتب الخلافة، ومشعشع الأدب الذي يزري بالسلافة. كان بطل مجال، ورب راوية وارتجال، قدم على هذه البلاد وقد نبا به وطنه، وضاق ببعض الحوادث عطنه، فتلوم به تلوم النسيم بين الخمائل، وحل منها محل الطيف من الوشاح الجائل، ولبث مدة اقامته تحت جراية واسعة، ومبرة يانعة. ثم آثر قطره، فولاه وجهه وشطره، واستقبله دهره بالانابة، وقلد خطة الكتابة، فاستقامت حاله، وحطت رحاله، وله شعر أنيق، وتصوف وتحقيق، ورحلة الى الحجاز سعيها في الخير وثيق، ونسبها في الصالحات عريق.

«حدّث بعض من عني باخباره، ايام مقامه بمالقة واستقراره، أنه لقي بباب الملعب من ابوابها ظبية من ظبيات الانس، وقينة من قينات هذا الجنس، فخطب وصالها، واتقى بفؤاده نصالها، حتى همت بالانقياد، وانعطفت انعطاف الغصن المياد، فأبقى على نفسه وامسك، وأنف من خلع العذار بعدما تنسك وقال:

لم انس وقـفـتنا ببـاب الملعب بين الرجـا واليـأس من مـتـجنب
وعـدت فكنت مـراقـبـاً لحـديثـهـا بأذل وقـفـة خـائف مـتـرقب
وتدللت فـذلك بعـد تعـزز يأتي الغـرام بكل امـر مـعـجب
بدوية ابدى الجـمـال بوجـهـهـا مـا شـئت من خـد شـريق مـذهب
تدنو وتبـعـد نفـرة وتجنبـاً فـتكاد تحـسـبـهـا مـهـاة الربرب
ودنت بلحظ فـاتن لك فـاتر انضى وامضى من حسام المضرب
وأرتك بابل سـحـرها بجـفـونهـا فـسـبت وحق لمـثلهـا ان تسـتـبي
وتضـاحكت فـحكت بنيّـر ثغـرها لمـعـان نور ضـيـاء برق خلب
بمنظم في عـقـد سـمطي جـوهر عن شـبـه نور الاقـحـوان الاشنب
وتمـايلت كـالغـصن اخـضله الندى ريان من مـاء الشـبـيـبـة مـخـصب
تثنيـه أرواح الصـبـابة والصـبـا فـتـراه بين مـشـرّق ومـغـرب
ابت الروادف ان تمـيل بمـيله فـرست وجـال كـأنه في لولب

متتوجاً بهلال وجه دل في حلل السحاب لحاجب ومحجب
يا من رأى فيها محبا مغرما لم ينقلب إلا بقلب قلب
ما زال مذ ولى يحاول حيلة تدنيه من نيل المنى والمطلب
فأجال نار الفكر حتى اوقدت في القلب نار تشوّق وتلهب
فتلاقت الأرواح قبل جسومها وكذا البسيط يكون قبل مركب[٨]

الهوامش

(١) الجيلالي، ج ١، ص ٣٣.
(٢) نفس المكان، ج ٢، ص ٤٠ـ٤١.
(٣) نفس المكان، ج ٢، ص ٤٢؛ والحفناوي: تعريف الخلف، ج ١، ص ٢١ـ٢٢.
(٤) نفس المكان، ج ٢، ص ٥٥ـ٥٦؛ وابن خلكان: وفيات الاعيان، القاهرة، ١٩٤٨.
(٥) نفس المكان، ج ٢، ص ٦٠ـ٦١؛ الحفناوي: تعريف الخلف، ج ٢٢، ص ٣٥٩ـ٣٦٣.
(٧) نفس المكان، ج ٢، ص ٦٥؛ والسخاوي: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، القاهرة ١٣٥٣، ج ٢، ص ١٢٢ـ١٢٣.
(٨) نفس المكان، ج ٢، ص ١١١ـ١١٢.

٨ـ القَيْروَان

كانت الشمس تلقي بأشعتها الاولى على ابنتها البكر، لما خرجنا من تونس الحاضرة، فاستقبلنا الجو طرياً والسماء جذلة والأرض ريّانة. ووصلنا القيروان والنهار لم ينتصف بعد، فلم يدركنا قيظ. ودلفنا الى الجامع الكبير نستنطقه أخبار مدينته، فلم يبخل ولم يكتم شيئاً. انه شاهد على مجد كان وأمل سيكون. وكان أول ما عرفناه أن القيروان من صنع عقبة بن نافع. فهو الذي سار يفتح إفريقية بأمر معاوية بن أبي سفيان عام ٤٩ [٦٦٩]، فاتخذ طريقه على الواحات متجنباً طريق الساحل ذات المسالح والمهابط البحرية، وعقبة لا أسطول عنده. ولم يقف عقبة إلا في المغرب. وكان مما رآه عقبة إقامة مدينة للمسلمين في إفريقية، فأنشأ القيروان.

روى ابن عبد الحكم ان عقبة «لم يعجب بالقيروان الذي كان معاوية ابن حديج بناه قبله، فركب والناس معه حتى أتى موضع القيروان اليوم، وكان وادياً كثير الشجر كثير القِطَف، تأوي إليه السباع والوحوش والهوام»[1]. ولما وقف عقبة على الموضع الذي تخيره لاختطاط القيروان، نادى «أيتها الحيات والسباع! نحن أصحاب رسول الله ﷺ، ارحلوا عنا إنا نازلون ومن وجدناه بعد ذلك قتلناه». فنظر الناس في ذلك اليوم الى السباع تحمل أشبالها والذئاب تحمل اجراها والحيات تحمل أولادها، فأسلم كثير من البربر. واختط عقبة موضع المسجد ودار الإمارة واختط الناس معه حولهما».

ولم يمض وقت طويل حتى اتسعت المدينة فبلغت مساحة مبانيها نحو سبعة آلاف متر مربع، وبلغت الدور نحواً من ثلاثة عشر ألفاً. وشاع أمرها شرقاً وغرباً، فكثر الهابطون إليها اللاجئون الى حماها المستظلون بأمرائها الأغالبة الذين اتخذوها عاصمة لما استقر بهم الأمر في افريقية أو المغرب الادنى أواخر القرن الثاني (الثامن). فجددوا بناء الجامع ووسعوه وأقاموا فسقية الاغالبة بالقيروان «وهو حوض مستدير يبلغ قطره ١٢٨ متراً ويستند حائطه الى ٤٨ سنداً داخلية وخارجية وتقوم في وسطه نواة اسطوانية الشكل محفوفة بأربعة أعمدة».

وكان للأغالبة فخر واعتزاز، يعبّرون عنهما شعراً. فهذا أبو العباس يقول من قصيدة:

انا الملك الذي اسمو بنفسي ... فأبلغ بالسمو بها السحابا
اذا نقّبت عن كرمي ومجدي ... وجدتني المصاصة واللبابا

اظل عشيرتي بجناح عزي وأمنحها الكرامة والثوابا
وأصطنع الرجال واطبّيهم واغفر للمسيء اذا انابا
واسمو بالخميس الى الاعادي فاكسر بالعقاب لها العقابا
ابا ابن الحرب ربتني وليداً الى ان صرت ممتلئاً شبابا
لعمر ابيك ما ان عبت قومي وما اخشى بقومي ان أعابا
بنيت لهم مكارم باقيات اذا ما صارت الدنيا خرابا[٢]

استمرت القيروان تنمو وتتسع حتى اصبحت دار العلم والمعرفة في افريقية واستمرت على ذلك حتى خربتها الحملة الهلالية. وظهر في القرنين الرابع (العاشر) والخامس (الحادي عشر) استقلالها العلمي في جامعتها وبيت حكمتها وفقهها وكتبها. قال عبد الواحد المراكشي يصف ما كانت عليه: «وكانت القيروان في قديم الزمان منذ الفتح الى ان خرّبتها الأعراب، دار العلم بالمغرب، اليها ينسب اكابر علمائه، واليها كانت رحلة أهله في طلب العلم. وقد ألف الناس في اخبار القيروان ومناقبه وذكر علمائه ومن كان به من الزهاد والصالحين والفضلاء المتبتلين كتباً مشهورة، ككتاب ابي محمد بن عفيف وكتاب ابن زيادة الله الطبّني وغيرهما من الكتب، فلما استولى عليها الخراب كما ذكرنا تفرق أهلها في كل وجه، فمنهم من قصد بلاد مصر، ومنهم من قصد صقلية والاندلس، وقصدت منهم طائفة عظيمة اقصى المغرب فنزلوا مدينة فاس، فعقبهم بها الى اليوم»[٣].

وهذا الجامع الذي كان مركز الحياة، قال ابن غانم وهو أحد شعراء القيروان في وصفه في ليلة احتفال:

ومجلس تقوى يجلس الناس عنده جلوساً صموتاً فهو أوقر مجلس
قناديله في وحشة الليل داجياً هداية ابصار واينا انفس
يضيء بها صافي الزجاج كضوئها فتبهر لحظ الناظر المتفرس
كأن ثرياه نجوم تآلفت تألق في داج من الليل حندس
كأن القناديل المدارة حولها جفون رنت منهن اعين نرجس
كحسناء زفت في حلى مصوغة وفي حلل من تحت خز مورس
تجول لطيفات الحجى في نعوتها فتأتي بتشبيه بديع مجانس

ونحن اذ نحاول التعرف الى مظاهر الحياة الفكرية والاجتماعية في القيروان ابان ازدهارها، أي عصر الصنهاجيين، وجدنا بين أيدينا الكثير مما خلّفه مؤرخوها وشعراؤها وأدباؤها وزوارها. وهذا المقدسي الجغرافي يقول عنها إنها كانت مصراً بهياً عظيماً «قد جمع اضداد الفواكه والسهل والجبل والبحر والنعم، مع علم كثير ورخص عجيب ... ولا أرفق من أهلها، ليس [بينهم] غير حنفي ومالكي مع الفة

عجيبة، لا شغب بينهم ولا عصبية ... فهي مفخرة المغرب ومركز السلطات واحد الاركان. ارفق من نيسابور وأكبر من دمشق واجل من اصبهان ... والجامع [جامع عقبة ابن نافع] بموضع يسمى السماط الكبير ... أكبر من جامع ابن طيلون، باعمدة من الرخام»[٤].

عرفت القيروان من رجال الفقه اسد بن الفرات قاضي افريقية في عهد الاغالبة وقائد الحملة الاغلبية الى صقلية، والامام سحنون وابنه محمد وابن أبي زيد القيرواني. وسمعت الشعراء الكبار مثل ابن رشيق وابن شرف ينشدون في افيائها، وقرأت زهر الآداب للحصري، فاطلعت على غرر من أدب المشرق والمغرب ولفتات لجامع الزهر ونقدات في الأدب طريفة، وسمعت أنباء ابن الجزار الطبيب ورأت كتبه الثلاثين ونيفاً في هذا الموضوع. وروت اخبار عبد المنعم بن محمد الكندي المهندس الذي قال عنه عياض إنه «كان دبر جلب ماء البحر من الساحل الى القيروان وسوقه خليجاً من هناك بنظر هندسي ظهر له. ولكن اخترمته المنية قبل انفاذ رأيه فيه وظهور ما دبر منه»[٥]. وقال ابن خلدون: «ان القيروان وقرطبة كانتا حاضرتي المغرب والاندلس، واستبحر عمرانهما، وكان فيهما للعلوم والصنائع اسواق نافقة زاخرة. ورسخ فيهما التعليم لامتداد عصورهما، وما كان فيهما من الحضارة»[٦].

وقد ظهر صدى الخراب الذي اصاب القيروان في شعر ابن شرف الذي قال:

أطفالها ما سمعت بالفلا ... قط فعادت في الفلا دارها
ولا رأت أبصارها شاطئاً ... فعادت الآفاق استارها
ولم تكن تلحظها مقلة ... لو كحلت بالشمس اشفارها
فأصبحت لا تتقي لحظة ... إلا بأن تجمع اطمارها...[٧]

وهذا ابن رشيق يتحدث عن الحصري، وهو احد أعلام الأدب، فيقول عنه في كتابه «انموذج الزمان في شعراء القيروان»: «إنه كان شاعراً نقاداً، عالماً بتنزيل الكلام وتفصيل النظام يحب المجانسة والمطابقة ويرغب في الاستعارة، تشبهاً بأبي تمام وتتبعاً لآثاره ... وكان شبان القيروان يجتمعون عنده ويأخذون عنه. ورأس عندهم وشرف لديهم. وانثالت عليه الصلات من جميع الجهات»[٨].

ولعلّ أطرف ما قيل في وصف القيروان، قصيدة ابن رشيق التي وصف فيها بلده وصفاً دقيقاً قال:

كم كان فيها من كرام سادة ... بيض الوجوه شوامخ الايمان
متعاونين على الدّيانة والتقى ... لله في الاسرار والاعلان
ومهذّب جمّ الفضائل باذل ... لنواله ولعرضه صوّان
وأئمة جمعوا العلوم وهذّبوا ... سنن الحديث ومشكل القرآن

علماء ان ساءلتهم كشفوا العمى بفقاهة وفصاحة وبيان
وإذا الأمور استبهمت واستغلقت أبوابها وتنازع الخصمان
حلّوا غوامض كلّ أمر مشكل بدليل حقّ واضح البرهان
هجروا المضاجع قانتين لربّهم طلباً لخير معرّس ومغان
وإذا دجا الليل البهيم رأيتهم متبتّلين تبتل الرهبان[٩]

ومما يجدر ذكره ان ابن رشيق وابن شرف رحلا عن القيروان أواخر حياتهما، وقد كانا متعاصرين. ذلك ان ابن رشيق بقي في خدمة تميم بن المعز الصنهاجي، لكنه رأى الأحوال تتجه من سيىء الى أسوأ، فلم يعد يطيق البقاء في ظل دولة في طريق الانهيار، فهاجر الى صقلية، حيث وجد ان ابن شرف قد مل الاقامة في صقلية واعتزم الرحيل الى الاندلس. ورغب الى ابن رشيق أن يرافقه، لكن هذا كان يعرف أحوال ملوك الطوائف في الأندلس، فرفض وقال في ذلك بيتيه المشهورين:

مما يزهدني في أرض أندلس أسماء معتضد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد[١٠]

وبقي في الجزيرة الى ان توفي سنة ٤٥٦ [١٠٦٤]. أما ابن شرف فرحل الى الأندلس وظل هناك الى ان توفي بإشبيلية سنة ٤٦٠ [١٠٦٨]. وقد كان موقفه من الحياة يتلخص في مذهبه الذي عبّر عنه ببيتين من الشعر هما:

ان ترمك الغربة في معشر قد جبل الطبع على بغضهم
فدارهم ما دمت في دارهم وأرضهم ما دمت في أرضهم

ومما يروى عن ابن شرف انه تشوق الى القيروان، فقال:

يا قيروان! وددت اني طائر فأراك رؤية باحث متأمل
يا لو شهدتك إذ رأيتك في الكرى كيف رجاع صباي بعد تكهل
لا كثرة الاحسان تنسي حسرتي هيهات تذهب علتي بتعلل[١١]

وممن تشوق الى القيروان محمد بن عبدون من اهل القرن الرابع (العاشر) اذ قال:

يا ربع كم لي فيك من غصن يهفو صباه به وكم بدر
ومناسب الأوصاف اثقله حقف يكاد ينوء بالخصر
قد طالما عقدت قلائده مني مكان قلائد النحر
ولثمت صدراً فاح عنبره من غير ما طيب ولا عطر
وضممت انفاسي عليه وقد اشفقت من نفسي الذي يسري
وكأن صدري لا ضلوع له وكأن قلبي بان عن صدري

اعطي عهود الله صفقة من ... أعطى العهود بجانب الحجر
لو استطيع سبحت من طرب ... شوقاً اليك سواد ذا البحر
حتى أقبّل جانبيك كما ... قبّلت فيك مراشف البدر
وأفيض أجفاني لديك كما ... فاضت عليك وما بها تدري[١٢]

وابن رشيق، وجه وصية إلى الشعراء والأدباء جاء فيها قوله: «هذا على اني ذممت إلى المحدثين انفسهم في اماكن في هذا الكتاب، وكشفت لهم عوارهم، ونعيت لهم اشعارهم. وليس هذا جهلاً بالحق، ولا ميلاً إلى ثنيات الطرق، ولكن غضاً من الجاهل المتعاطي والمتحامل الجافي، الذي اذا اعطي حقه تعاطى فوقه وادعى على الناس الحسد[١٣].

وفد الهلاليون على افريقية في اواسط القرن الخامس (الحادي عشر)، فاحتلوها ودمروا مدنها، وأتلفوا مظاهر العمران فيها. وقد تألم ابن رشيق وهو في صقلية لما اصاب القيروان على ايدي المحتلين، فقال من قصيدة:

يستصرخون فلا يغاث صريخهم ... حتى إذا سئموا من الارنان
بادوا نفوسهم فلمّا أنفذوا ... ما جمّعوا من صامت وصوان
واستخلصوا من جوهر وملابس ... وطرائف وذخائر وأوان
خرجوا حفاة عائذين بربّهم ... من خوفهم ومصائب الألوان
هربوا بكلّ وليدة وفطيمة ... وبكلّ أرملة وكل حَصان
وبكلّ بكر كالمهاة عزيزة ... تسبي العقول بطرفها الفتّان
خود مبتّلة الوشاح كأنها ... قمر يلوح على قضيب البان
والمسجد المعمور جامع عقبة ... خرب المعاطن مظلم الأركان
قفر فما تغشاه بعد جماعة ... لصلاة خمس لا ولا لأذان
بيت به عبد الاله وبطّلت ... بعد الغلوّ عبادة الأوثان
بيت بوحي الله كان بناؤه ... نعم البنا والمبتنى والباني
أعظم بتلك مصيبة ما تنجلي ... حسراتها أو ينقضي الملوان[١٤]

الهوامش

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ليدن، بريل، ١٩٢٠، ج ١، ص ١٩٦.
(٢) شريط، عبد الله، وكرو، أبو القاسم: شخصيات أدبية، تونس، المطبعة العصرية، ١٩٥٨، ص ٩٣.
(٣) كنون، عبد الله: عبد الواحد المراكشي، ص ٢٨.
(٤) المقدسي، ص ٢٢٤-٢٢٥.

(٥) شخصيات أدبية، ص ٩٨.
(٦) ابن خلدون: المقدمة، بيروت دار الكتاب اللبناني ١٩٦١، ص ٧٧١ـ٧٧٢.
(٧) شخصيات أدبية، ص ٢١٠.
(٨) نفس المكان، ص ١٧٥.
(٩) ابن رشيق، الحسن بن علي: ديوان ابن رشيق القيرواني، بيروت، دار الثقافة، لا. ت. ص ٢٠٤.
(١٠) شخصيات أدبية، ص ٢٠٢.
(١١) نفس المكان، ص ٢١٣.
(١٢) النيفر، محمد: عنوان الاريب بما في تونس من عالم واديب، تونس، المطبعة التونسية، ١٣٥٢، ج ١، ص ٤٨.
(١٣) شخصيات أدبية، ص ٢٠٨.
(١٤) ابن رشيق، ص ٢٠٤ـ٢٠٦.

٩ـ تُونُس

انتصبت تونس على شاطىء البحر تعارك الزمن وتعاركه، تأخذ وتعطي. مر بها العبدري في القرن السابع (الثالث عشر) فقال يصفها: «ثم وصلنا الى مدينة تونس مطمح الآمال ومصب كل برق، ومحط الرجال من الغرب والشرق. وملتقى الركاب والفلك، وناظمة فضائل البرين في سلك. فإن شئت اصحرت في موكب، وان شئت ابحرت في مركب. كأنها ملك والإرباض لها اكليل، وارجاؤها روضة باكرتها ريح بليل. وان وردت مواردها نقعت غليلا، وإن رددت فرائدها شفيت حشا عليلا. جليت بها عروس الغروس، وحليت بها على ممر الدهر الطروس ... فاقت بحسن معانيها واتقان مغانيها غيرها من المدن وطالت، وسطت بنخوتها وانتخت بسطوتها على قواعد الشرق والغرب وصالت. وترجم حسنها البهيج وعرفها الاريج عن معناها. ولو نطقت لقالت:

انا الغادة الحسناء فاق جمالها ... فآلت يميناً لا خطبت على زوج
اذا الغانيات ارتدن وصل بعولة ... فمالي ولا فخر الى الزوج من حوج
اعادي اذا ما شئت ظبياً بقفرة ... واطرق نوه اليم في ظلم الموج
وفيّ لمكدود الحجيج استراحة ... فهم يردوني الدهر فوجاً على فوج
واني الى البيت العتيق كسلم ... به يرتقي من في الحضيض الى الاوج»[1]

وقد اينعت رياضها وامتلأت أسواقها وامتدت ارباضها وأُترعت متاجرها، فعرف أهلها الخير والنعمة. ودهمها الشر غير مرة فأقفرت أرضها، وفرغت حوانيتها وهدمت أسوارها، لكنها كانت في كل مرة تعود مرفوعة الرأس موفورة الكرامة.

فتحت افريقية ايام الامويين، وصارت المنطقة التي تدور في فلك مدينة تونس اليوم نقطة اطلاق للفتح والعلم والأدب. وتركز ذلك ايام الولاة والاغالبة في القيروان. لكن تونس، وهي مشرعة على البحر، كانت رئة أفريقية العربية ان كانت القيروان قلبها. ففي تونس كانت دار صناعة أنشأها حسان بن النعمان ووسعها ابن الحجاب فيما بعد. ودار الصناعة هذه هي التي مكّنت للأغالبة من الحصول على اسطول يفتح لهم صقلية وما اليها. على ان ابن الحجاب قام بعمل آخر لم يدر يومها أنه سيكون له أثر كبير في حياة تونس والمغرب الافريقي. ذلك بانه بنى جامع الزيتونة سنة ١١٤ (٧٣٢).

في أيام ازدهار افريقية زمن الصنهاجيين مر بمدينة تونس اكثر من رحّالة وجغرافي، وقد ترك هؤلاء عنها الكثير مما يسر ويفيد. فابن حوقل من أهل القرن الرابع (العاشر) يقول عنها:

«مدينة تونس وهي قديمة أزليّة ذات مياه جارية قليلة، والانتفاع بها كثير والعائدة الى أربابها صالحة. وهي خصبة في ذاتها متسعة بغلاتها ويعمل بها غضار حسن الصباغ وخزف حسن كالعراقي المجلوب. وكان اسمها في قديم الزمان ترشيش فلما احدث فيها المسلمون البنيان واستحدثوا البساتين والحيطان سمّيت تونس. وهي مصاقبة لقرطاجنة المشهور أمرها بالطيب وكثرة الفواكه وحسنها وجودة الثمار وصحة الهواء واتساع الغلات. ومن غلاّتها القطن ويحمل الى القيروان للانتفاع به، وكذلك القنّب والكرويا والعصفر والعسل والسمن والحبوب والزيت وكثير من الماشية مختصة بها»[٢].

وجاء في «العزيزي» وصف لتونس هو: «تونس مدينة جليلة، لها مياه ضعيفة جارية يزرع عليها، وفيها الخصب وكثرة الغلات. وهي في وطاءة من الأرض في سفح جبل يعرف بأم عمرو، يستدير بها خندق وسور حصين، ولها ثلاثة أرباض كبيرة من جهاتها، وارضها سبخة. وجميع بنائها بالحجر والآجر، وابنيتها مسقفة بالأخشاب، ودور أكابرها مفروشة بالرخام»[٣].

وقال البكري عن تونس في أوائل القرن الخامس (الحادي عشر): «وجامع تونس رفيع البناء مطلّ على البحر ينظر الجالس فيه الى جميع جواريه. ويرقى الى الجامع من جهة الشرق على اثنتي عشرة درجة. وبها أسواق كثيرة ومتاجر عجيبة وفنادق وحمّامات، ودور المدينة كلها رخام بديع ... ويصنع بتونس للماء من الخزف كيزان تعرف بالريحيّة، شديدة البياض في نهاية الرقة تكاد تشفّ، ليس يعلم لها نظير في جميع الأقطار. وتونس من أشرف بلاد افريقية وأطيبها ثمرة وأنفسها فاكهة، فمن ذلك اللوز الفريك يفرك بعضه بعضاً من رقة قشره ويحت باليد وأكثره حبتان في كل لوزة مع طيب المضغة وعظم الحبة؛ والرمان الضعيف الذي لا عجم له البتة مع صدق الحلاوة وكثرة المائية؛ والأترج الجليل الطيب الذكي الرائحة البديع المنظر؛ والتين الخارمي أسود كبير رقيق القشر كثير العسل لا يكاد يوجد له بزر؛ والسفرجل المتناهي كبراً وطيباً وعطراً؛ والعنّاب الرفيع في قدر الجوزة؛ والبصل القلوري في قدر الأترج مستطيل سابري القشر صادق الحلاوة كثير الماء. وبها من أجناس السمك ما لا يوجد في غيرها، يرى في كل شهر جنس من السمك لا يرى في الذي قبله، يملح فيبقى سنين صحيح الجرم طيب الطعم»[٤].

وممن ظهر في تونس في تلك الاثناء محرز بن خلف التونسي العالم الفقيه الشاعر. وقد مر محرز على قرطاجة فرأى خرابها وخلوها من أحبابها فقال، وقد همس:

مـــررت بربع بالســـراب تلفـــعـــا وطود جـــلال بالخطوب تصـــدعـــا
فـقلت وقـد اجـرت جـفـوني ادمـعـاً خليلي مـــرا بالمـــدينة واســـمـــعـــا

مـــدينة قـــرطاجنة ثم ودعـــا

رمـتـهـا صـروف الحـادثات بنبلهـا ورامت يد الأقـدار تشـتـيت شـملهـا
قـفـا وانظرا ان جـزتمـا بين سـبلهـا طلولاً بهـا تبكي لفـقـدان أهلهـا

كـمـا ندب الاطلال كـسـرى وتُبَّـعـا

فـإن لم تصـيـبـا في الرسـوم مـؤانسـاً ولم تجـدا بين القـبـاب مـجـالسـاً
ولن ترِيا منهـا مـجـيـبـاً مـمـارسـاً فـقـولا لهـا: مـا بال رسـمك دارسـاً

ومـــا بال وفـــد قـــد بناك وودعـــا

ترى قـبـضـة المـوت من بعـد بسطة وحطتـــه من بعـــد ارتفـــاع وخطة
وقـولا فـمـا أخـلاك من بعـد غـبطة وخـلاك من بعـد اجـتـمـاع وخلطة

ومن بعـد تشـيـيـد خـلاء وبلقـعـا

ويسرع التاريخ في تونس، كما يسرع في بقية أرجاء المغرب، فترى الأغالبة يعنون برقادة، والعبيديين يهتمون بالمهدية، والصنهاجيين يخلفون هؤلاء فيحاولون توطيد ملكهم هناك. ويعنون بالبناء والعمران والسفن والجيوش على ما تم على يدي كبيرهم المعز بن باديس. وفي أواسط القرن الخامس (الحادي عشر) هاجم الهلاليون افريقية، فأصيبت مدنها، وصمت شعراؤها، وخيم الصمت في ارجائها، لكنها كتب لها ان تنهض بعد العثار، فنفضت عن نفسها الغبار، وعادت الى العمل ليل نهار. فعاد المجد اليها ايام الحفصيين وتركز في مدينة تونس التي كانت قد اصبحت حتى قبل ذلك بقليل عاصمة الديار الافريقية.

ويُعد ابو زكرياء يحيى من اهل القرن السابع (الثالث عشر) أبرز شخصية في دولة الحفصيين. وهو الذي ابتنى جامع القصبة وصومعته الجميلة الشكل ونقش عليها اسمه وأذّن فيها بنفسه ليلة تمامها غرّة رمضان سنة ٦٣٠ (١٢٣٣). وشاد غير ذلك من المساجد والمدارس وابتنى ايضاً سوق العطارين بتونس وانشأ في قصره بالقصبة دار الكتب جمع فيها ستة وثلاثين الف مجلد من انفس المؤلفات، وقد تلاشت في آخر أيام الدولة الحفصية.

وفي العهد الحفصي انتشر التعليم بالبلاد بواسطة الكتاتيب والزوايا، وبتونس انتظم التعليم بجامع الزيتونة الذي تطور حتى صار أكبر جامعة اسلامية عرفتها بلاد المغرب بأسرها وأنبت علماء افذاذاً. وأسس الحفصيون نساء ورجالاً مدارس كثيرة منها المدرسة الشماعية والمدرسة العنقية والمدرسة التوفيقية الملحقة بجامع الهواء. وقد جلبوا لها الاساتذة من الاندلس ومن طرابلس ومن المهدية، وأسكنوا بها الطلبة

وقامـوا بإطعامهم وكونوا لهم بهـا المكتبـات فقامت بأكبـر قسط في تكوينهم تكويناً جامعيًا وتأهيلهم إلى تقلد المناصب الرفيعة.

«وانتشرت الثقافة ايضاً بواسطة المكتبات الكثيرة التي انشئت، ومن اشهرها مكتبة جامع الزيتونة التي عرفت بـ (العبدلية) ووضع بها أنفس الكتب.

«وقد ساهم بقسط وافر في النهضة العلمية مهاجرو الأندلس اذ كان من بينهم العلماء والأدباء والشعراء والكتاب. وبفضلهم ارتقى الفن.

«وبفضل ذلك كله، وبفضل تنشيط بعض الامـراء للعلم وذويه وللادب والشعراء، انتشـر التعليم وأقبل الناس على طلبه. وازدهرت الثقافة، وانتعش الأدب ونشطت حركته، وارتقى الطب وحمل لواءه خريجو المدرسة الصقلية والمدرسة الاندلسية. واصبحت تونس في هذه الميادين ام البلاد المغربية وقطبها الاكبر بلا منازع»[٥].

وبرز جامع الزيتونة كمركز للعلم والدرس والبحث بحيث قال عنه العبدري: «هذا الجامع من احسن الجوامع واتقنها واكثرها اشراقاً. ودائره مسقف ووسطه فضاء قد نصبت فيه اعمدة من خشب على قدر ارتفاع الجدر وشدت اليها حبال متينة في حلق من حديد مثبتة فيها وفي السقوف شداً محكماً. فإذا كان يوم الجمعة نشرت عليها شقق الكتان المطبقة الموصولة حتى تظلل جميع الفضاء. ذلك دأبهم فيها حتى ينصرم فصل الصيف»[٦].

أما العلم الذي تلقاه الناس فلم يقتصر على الشرع والدين واللغة والأدب، بل شمل غير ذلك. فقد روي ان ابا العباس احمد بن شعيب الفاسي الجزنائي الذي بعد أن قرأ على كثير من شيوخ فاس، انتقل إلى تونس فأخذ بها الطب والهيئة على الشيخ رحلة وقته في تلك الفنون يعقوب بن احمد راس.

ويبدو ان العلم كان امراً مألوفاً في تونس. فالعبدري يقول: «لا تنشد بها ضالة للعلم الا وجدتها ولا تلتمس بها بغية معوزة الا استفدتها ... وما من فن من فنون العلم الا وجدت بتونس به قائماً ولا مورداً من موارد المعارف إلا رأيت بها حوله واردا وحائماً»[٧].

وقد شغف العبدري بأهل تونس فقال عن لطفهم وإيناسهم ما نصه:

«وما رأيت لأهلها نظيراً شرقاً وغرباً شيماً فاضلة واخلاقاً حميدة. وقد كان الاخلق بمن شاهد اخلاقهم ان يصفهم ويضرب عمن لم يمنحهم الوداد وينصفهم. اذ ان ذلك من بعض واجبهم واقل مراتبهم؛ ولكن الزمان لا يعين على توفية الحقوق ولا يعتمد الفراغ إلا أهل العقوق. وناهيك ببلد لا يستوحش فيه غريب ولا يعدم فيه كل فاضل اريب. يبدأون من طرأ عليهم بالمداخلة ويخطبون منه لفضل طباعهم المواصلة، فهو منهم بين أهل مشفق ورفيق مرفق. وقد كان بعض خيار طلبتهم وحسبائهم لازمني مدة الاقامة بها وترك لأجلي مهمات أموره وعرفني بفضلائها وكان لا ينفصل عني

عامة النهار. وكثيراً ما كنت امر بمن لا يعرفني من أهلها فأسأله عن الطريق إلى ناحية منها فيقوم من حانوته ماشياً بين يدي يسأل الناس عن الطريق ويدل بي. وهذا من أغرب ما يسمع من جميل الأخلاق، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. ولولا اني دخلتها لحكمت بأن الصلاح في افق المغرب قد محي رسمه ونسي اسمه وضاع حظه وقسمه، ولكن قضى الله بأن الأرض لا تخلو من قائم له بحجة يرى سبيل الحق ويوضح المحجة[٨].

«فمن واظبته مدة الاقامة ولزمته لزوم الطوق للحمامة، الشيخ الفقيه الفاضل والحبر النزيه الكامل، قاضي القضاة وزين الحملة والرواة، ذو التواضع والانصاف والمعروف بوطأة الاكناف، مسند عصره والمرجوع اليه في مصره، أبو العباس أحمد ابن محمد بن حسن بن محمد بن الغماز الخزرجي وصل الله صيانته وأدام على الخيرات اعانته، فلقيت منه عالماً يأخذ بالاسماع والابصار وفاضلاً خلت عن مثله القرى والامصار ... يدأب على الإسماع دؤوب من عد العلم أرفع صناعة ورأى الاشتغال به انفع بضاعة، لا يشغله عنه الابقاء على اعضائه الواهية، ولا يصده عنه ما تتحمله من المشقة نفسه السامية، ولم يؤثر في قوة اجتهاده ضعف قواه ولا هوى به الى استيطاء الراحة هواه، بل يستعذب في خدمة العلم ما يلاقي ويعده عدة ليوم التلاقي»[٩].

والغماز، فضلاً عن كونه عالماً كبيراً، كان شاعراً. فمن ذلك قوله في التربية والوعظ:

يا منفق العمر في حرص وفي طمع ... الى متى، قد تولى وانقضى العمر
الى متى ذا التمادي في الظلال اما ... تنهاك موعظة لو تنفع الذكر
بادر متاباً على ما كان من زلل ... وما اقترفت من الآثام يغتفر
وجنب الحرص واتركه فما أحد ... ينال بالحرص ما لم يعطه القدر
ولا تؤمل ما ترجو وتحذره ... من ليس في كفه نفع ولا ضرر
واحذر هجوم المنايا واستعدَّ لها ... ما دام يمكنك الاعداد والحذر

ويكفي تونس فخراً تزهو به على البلدان ان تكون مسقط رأس ابن خلدون. وقد روى المؤرخ الكبير أخبار نشأته ودراسته في التعريف بنفسه قال:

«أما نشأتي فإني ولدت بتونس في غرة رمضان سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة (١٣٣٢)، وربيت في حجر والدي رحمه الله الى ان أيفعت. وقرأت القرآن العظيم على الاستاذ ... بن برال الانصاري ... وبعد ان استظهرت القرآن الكريم من حفظي، قرأته بالقراءات السبع المشهورة أفراداً وجمعاً في إحدى وعشرين ختمة ... ودارست عليه كتباً جمة ... وفي خلال ذلك تعلمت صناعة العربية على والدي وعلى أستاذي تونس ... منهم الشيخ الحصايري ... والزرزالي ... وابن القصار ... وابن بحر ... وأشار عليّ

هذا بحفظ الشعر فحفظت الكثير منه ... وأخذت الفقه بتونس عن جماعة منهم الجياني ... والقصير ... وكان قدم علينا في جملة السلطان أبي الحسن ... سنة ثمان وأربعين وسبعمائة جماعة من أهل العلم كان يلزمهم شهود مجلسه ويتجمل بمكانهم فيه ... ولما قدم (علي بن محمد بن ترومیت) على تونس ... لزمته وأخذت عنه الاصلين والمنطق وسائر الفنون الحكمية والتعليمية»[١٠].

ويقول في مكان آخر:

«لم أزل منذ نشأت وناهزت مكباً على تحصيل العلم، حريصاً على اقتناء الفضائل متنقلاً بين دروس العلم وحلقاته الى ان كان الطاعون الجارف، وذهب بالأعيان والصدور وجميع المشيخة وهلك أبواي رحمهما الله ... الى ان شدوت بعض الشيء ... استدعاني أبو محمد المستبد على الدولة بتونس يومئذ الى كتابة العلامة»[١١].

ومن هنا بدأت حياة ابن خلدون العامة التي انتهت به الى مصر.

وقد نكب ابن خلدون على يد السلطان أبي عنان، فبعث قصيدة الى السلطان يستعطفه جاء فيها:

على أي حال لليالي أعاتب ... وأي صروف للزّمان أغالب
كفى حزناً أني على القرب نازح ... وأني على دعوى شهودي غائب
وأني على حكم الحوادث نازل ... تسالمني طوراً وطوراً تحارب
سلوتهم إلا اذّكار معاهد ... لها في الليالي الغابرات غرائب
وان نسيم الريح منهم يشوقني ... إليهم وتصبيني البروق اللواعب[١٢]

وممن انجبته تونس أبو الفتح محمد بن عبد السلام الذي رحل الى المشرق فحج ودخل الشام فاستقر بدمشق. ولابن عبد السلام شعر كثير، نكتفي بايراد مقطوعة من قصيدته التي رثى بها تونس لما اصابها في القرن العاشر (السابع عشر) من نكبة اودت بالكثير من أهلها وعمرانها على ايدي الاسبنيول. قال:

وحيّ ربوع الحي من خير بلدة ... تخيرها قدماً افضل يونان
هي الحضرة العليا مدينة تونس ... انيسة إنسان رآها بانسان
لها الفخر والفضل المبين بما حوت ... من الانس والحسن المنوط باحسان
لقد حل منها آل حفص ملوكها ... مراتب تسمو فوق هامة كيوان
وسادوا بها عظم الملوك وشيدوا ... بها من مباني العز افخر بنيان
وكان لهم فيها بهاء وبهجة ... وحسن نظام لا يعاب بنقصان
وكان لهم فيها عساكر جمة ... تصول بأسياف وتسطو بمران
جيوش وفرمان يضيق بها الفضا ... وتحجم عنها الفرس من آل ساسان

وكـان لأهليـهـا المـفـاخـر والعلى ... وكـان بهـا حـصنا امـان وايمـان
وكـان على الدنيـا جـمـال بحـسنهـا ... وحـسن بنيـهـا من ملوك واعـيـان
وكـانت لطلاب المـعـارف قـبلة ... لمـا في حـمـاها من ائمـة عـرفـان
وكـان لأهل العلم فـيـهـا وجـاهة ... وجـاه وعـز مـجـده ليس بالفـاني
وكـان بواديهـا المـقـدس فـتـيـة ... تقـدس باريهـا بذكـر وقـرآن
ومن ادباء النظم والنثـر مـعـشـر ... تفـوق بناديهـا بلاغـة سـحـبـان
وكانت على الاعداء في حومـة الوغى ... تصـول بابطال وتسطو بشـجـعـان
ومـا برحت فـيـهـا مـحـاسن جـمـة ... ومن كل نـوع أهل حـذق واتقـان
الى ان رمـتـهـا الحـادثات بأسـهم ... وسلت عليـهـا سـيف بغي وعـدوان
فـمـا لبـثت تلك المـحـاسن ان عـفت ... واقـفـر ربع الانس من بعـد سكان
وشـتـت ذاك الانس بعـد جـمـعـه ... كـمـا انتـثـرت يومـاً قـلائد عـقـبـان

الهوامش

(١) العبدري نقلاً عن «المجلة الزيتونية»، المجلد الثاني (١٩٣٧)، الجزء الثالث، ص ١٢٢.
(٢) ابن حوقل، ص ٧٣ ـ ٧٤.
(٣) نقله القلقشندي في صبح الأعشى (القاهرة، ١٩٦٣)، الجزء الخامس، ص ١٠٢.
(٤) ياقوت، ج ٢، ص ٦١.
(٥) الكعاك، ص ٨٦ـ١٠١.
(٦) العبدري نقلاً عن «المجلة الزيتونية»، نفس المكان، ص ١٢٣.
(٧) نفس المكان، ص ١٢٥.
(٨) نفس المكان، ص ١٢٤ ـ ١٢٥.
(٩) نفس المكان، الجزء التاسع، ص ٣٨٥.
(١٠) ابن خلدون: التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥١، ص ١٥ـ٢٢.
(١١) نفس المكان، ص ٥٥.
(١٢) نفس المكان، ص ٦٧.

١٠ـ المَهْدِيَّة

أطل التجاني، الرحّالة التونسي، على المهدية فقال: «يوم الاثنين الثاني عشر لصفر (سنة ثمان وسبعمئة) (١٣٨١) وصلت الى المهدية فرأيت مدينة جليلا قدرها شهيراً في قواعد الاسلام ذكرها، وهي بناء عبيد الله المهدي أول خلفاء العبيديين وإليه تنسب»[١].

فالمهدية بناها الخليفة الفاطمي الأول عبيد الله المهدي، بعد ان استقر له الأمر في المغرب العربي. وقد أرادها عاصمة جديدة لدولة جديدة، وأرادها حصينة منيعة. وقد روى بعض أهل المعرفة بأخبار المهدي خبر بناء المهدية، قال:

«في سنة ٣٠٠ [٩١٢] خرج المهدي بنفسه الى تونس يرتاد لنفسه موضعاً يبني فيه مدينة خوفاً من خارج يخرج عليه، وأراد موضعاً حصيناً حتى ظفر بموضع المهدية، وهي جزيرة متصلة بالبر كهيئة كف متصلة بزنده؛ فتأملها فوجد فيها راهباً في مغارة فقال له: بم يعرف هذا الموضع؟ فقال: هذا يسمى جزيرة الخلفاء؛ فأعجبه هذا الاسم فبناها وجعلها دار مملكته وحصّنها بالسور المحكم والأبواب الحديد المصمت»[٢].

وروي: «وكان أول ما ابتني منها سورها الغربي الذي فيه أبوابها؛ وعندما وضع أول حجر منه وهو حاضر، أمر ناشباً كان بين يديه ان يوتر قوسه ويقف على ذلك الحجر ويرمي سهمه. ففعل الرامي ذلك فانتهى السهم الى المصلى ... وأمر المهدي بقياس مسافة هذه الرمية فكانت مائتي ذراع وثلاثة وثلاثين ذراعاً»[٣].

ويبدو اهتمام المهدي بتحصين المدينة من قول ابي عبيد البكري «وجعل فيها من الصهاريج العظام، وأهل تلك النواحي يسمونها مواجل، ثلثمائة وستين موجلاً غير ما يجري إليها من القناة التي فيها. والماء الجاري الذي بالمهدية جلبه عبيد الله من قرية ميَّانش، وهي على مقربة من المهدية، في أول أقداس ويصب في المهدية في صهريج داخل المدينة عند جامعها، ويرفع من الصهريج الى القصر بالدواليب، وكذلك يسقى أيضاً من قرية ميّانش من الآبار بالدواليب يصب في محبس يجري منه في تلك القناة»[٤].

ولأن المهدي كان يعرف قيمة الحروب البحرية، وما يقتضيه مثل ذلك من تحصين، فقد اهتم بالميناء. روي ان «مرسى المهدية منقور في حجر صلد يسع ثلاثين

مركباً. وعلى طرفي المرسى برجان بينهما سلسلة حديد، فإذا اريد ادخال سفينة ارسل حرّاس البرجين احد طرفي السلسلة حتى تدخل السفينة ثم يمدّونها كما كانت تحبيساً لها، ولما فرغ من احكام ذلك قال: اليوم امنت على الفاطميات، يعني بناته»[٥].

وأخذ عبيد الله ببناء القصر الكبير المعروف به الذي كانت به طيقان الذهب، وبنى ابنه قصراً له وبينهما فسحة.

قال ابن الرقيق: «ولما كمل سور المدينة وقصورها أراد عبيد الله الانتقال اليها فثقل ذلك على أوليائه وجنده وصعب عليهم استبداله بالموضع الذي استوطنوه، فقال لهم: ان صعب ذلك عليكم فنحن ننتقل ونترككم هاهنا ونجري عليكم الارزاق والصلات وعما قليل ستنتقلون الينا مسارعين. قال المؤرخون: فلم يكن بعد ذلك إلا زمان يسير حتى أرسل الله السماء بامطار غزيرة اخرجت مساكن رقادة واهدمت دورها واهلكت خلقاً عظيماً من اهلها، فخرج الناس في الأخبية والمفازات، وكتبوا الى المهدي يسألونه الانتقال الى المهدية فأجابهم الى ذلك فانتقلوا اليها وتمت عمارتها»[٦].

واتمام العمارة هذا كان على خطوتين. اما الاولى فهي ان المهدي استصغر المدينة التي بناها اصلاً في حدود غلوة سهم، فردم من البحر مقدارها وأدخله في المدينة فاتسعت، واقيم الجامع الاعظم ودار المحاسبات على ما ردم.

اما الخطوة الثانية في التوسع فقد جاءت في بناء زويلة. قال البكرى: «فلما استقام للمهدي ذلك أمر بعمارة مدينة اخرى الى جانب المهدية، وجعل بين المدينتين قدر طول ميدان وافردها بسور وابواب وحفظة وسماها زويلة. وأسكن ارباب الدكاكين من البزّازين وغيرهم فيها بحرمهم وأهاليهم وقال: انما فعلت ذلك لآمن غائلتهم، وذاك أن اموالهم عندي وأهاليهم هناك، فإن أرادوني بكيد وهم بالمهدية خافوا على حرمهم هنا، وبنيت بيني وبينهم سوراً وأبواباً فأنا آمن منهم ليلاً ونهاراً لأني افرّق بينهم وبين اموالهم ليلاً وبينهم وبين حرمهم نهاراً»[٧].

وقد زار المقدسي المهدية فقال عنها في كتابه احسن التقاسيم: «والمهدية على البحر مسوّرة بالحجر والجيل. شربهم من آبار وجباب ماء المطر. هي خزانة القيروان ومطرح اصقلية ومصر، عامرة آهلة، ومن أحب ان ينظر الى القسطنطينية فلينظر اليها ولا يتعنى الى بلد الروم فانها على عملها في جزيرة يدخل اليها من طريق واحد مثل الشراك»[٨].

إلا ان معاصره ابن حوقل ترك لنا صورة اوفى لما كانت عليه المهدية لما زارها سنة ٣٣٦ [٩٤٧] اي بعد الفراغ من بنائها بنحو ثلث قرن. قال ابن حوقل:

«والمهدية مدينة صغيرة استحدثها المهدي القائم بالمغرب وسماها بهذا الاسم وهي في نحر البحر، وتحول اليها من رقادة القيروان في سنة ثمان وثلثمائة [٩٢٠]. وهي من القيروان على مرحلتين، فرضة لما والاها من البلاد، كثيرة التجارة حسنة

السور والعمارة منيعة. ولها سور من حجارة وله بابان ليس لهما فيما رأيته من الأرض شبيه ولا نظير غير البابين اللذين على سور الرافقة، وعلى مثالها عملا ومثل شكلهما اتخذا. كثيرة القصور نظيفة المنازل والدور حسنة الحمامات والخانات خصبة رفهة الفواكه والغلات، طيبة الداخل نزهة الخارج بهية المنظر ادركتها سنة ست وثلثين [٩٤٧] وملوكها كماة وجيوشها حماة وتجارها طراة»[٩].

وقد تعرضت المهدية للكثير من النكبات، فمن ذلك ثورة ابن كيداد ثم نزوح الفاطميين عنها لما احتلوا مصر وبنوا القاهرة، ثم عبث بني هلال وتخريبهم في منتصف القرن الخامس (الحادي عشر)، ثم احتلال الفرنج لها في منتصف القرن السادس (الثاني عشر) ومع ذلك فقد ظل لها الكثير من تاريخها. ولا تزال تأسر لبك وتحتل قلبك موقعاً ولطفاً وانساً.

لم تكن المهدية ايام الفاطميين دار علم، فقد بنيت للسياسة واقيمت للدفاع ووسعت للامتناع وقويت للحصانة. وكان الفاطميون يومها في دور الانشاء السياسي والبناء الاداري والتحفز الحربي. فلما آن لهم أن يغنوا الحضارة الاسلامية أدباً وفلسفة وعلماً وشرعاً، كانوا قد انتقلوا الى القاهرة، ولم يبق للمهدية إلا ما في نفسها من قوة وعنفوان.

في هذه العصور التالية عرفت المهدية نفراً من أهل الشعر والفقه والادب منهم أبو الحسن الخولاني المعروف بالحداد القائل:

«قالت، وأبدت صفحة كالشمس من تحت القناع
بعت الدفاتر وهي آ خر ما يباع من المتاع
فأجبتها، ويدي على كبدي وهمّت بانصداع:
لا تعجبي فيما رأيـ ـت فنحن في زمن الضياع»[١٠]

وفي قوله اشارة الى ما كانت المهدية تعانيه في القرن الخامس (الحادي عشر).
ومن شعرائها أبو عبد الله الزناتي المعروف بالحنفي ترجم له التجاني نقلاً عن اشياخه قال: «ولد بها وهو من اعيانها وارتحل الى المشرق فدرس بدمشق مدة ثم انتقل الى الموصل فانتحل مذهب أبي حنيفة واشتغل به حتى صار اماماً فيه واشتهر بالنسبة اليه فلا يعرف في افريقية الا بذلك، ولم يكن في هذه العصور كلها ببلاد افريقية حنفي غيره. ولما عاد من المشرق لزم سكنى المنستير المتعبد المشهور بالفضل تحت جراية من الأمير أبي زكرياء رحمه الله، وكان اذا وفد على الحضرة اجتمع بالامير أبي زكرياء وجالسه. حدث عنه اشياخنا أبو يحيى بن عبد لاكريم العوفي، وأبو عبد الله محمد بن أبي القاسم القيسي الازدي، وانشدنا أبو عبد الله محمد القيسي المذكور قال: انشدني الحنفي لنفسه يذم بلده، ويصف أهلها بالبخل الابيات المشهورة: (الطويل)

اذا حل بالمهدية الضيف نازلاً يروم القرى زفّت اليه الكوامل
صحاف حكت عن ام موسى فؤادها يغالط فيها حسه ويماطل
اذا حسروا عنها المناديل انشدت وما السيف الا غمده والحمائل[١١]

ولم يكن الشعراء المهدويون كلهم ممن ينال من بلده. فهذا الليانى يقول موريا بنجد عنها:

هذا العذيب وهذه نجد اين الذي يقضي به الوجد
ما هكذا حال المحب اذا اعلام ربع حبيبه تبدو
سرّح دموع العين مبتدراً وبذكر ماضي عهدهم فاشد
والثم على شغف مواطئهم ان عاق عن مقصودك البعد
لم انس يوم وداعهم سحراً والدمع اسلم دره العقد
هزّ الصبا اغصان بانهم فتعانقت وتواجد الرند
هذا العذيب بدت له عذب في ظلها قد خيّم المجد
لا يخفق المسعى اذا خفقت اعلامها بل ينجح القصد
فعسى اللقاء يكون مقترناً ان انجدت كلفاً بها نجد
ولعلّ ما نرجو تجود به كفّ الزمان ويسعد الجد[١٢]

وثمة مداورة ومحاورة شعرية لطيفة عن مجالس الانس في المهدية.

الهوامش

(١) التجاني، أبو محمد عبد الله: رحلة التجاني، تونس، المطبعة الرسمية، ١٩٥٨، ص ٣٢٠.
(٢) ياقوت، ج ٥، ص ٢٣١.
(٣) التجاني، ص ٣٢١.
(٤) ياقوت، ج ٥، ص ٢٣١.
(٥) نفس المكان، ج ٥، ص ٢٣١.
(٦) التجاني، ص ٣٢٣.
(٧) ياقوت، ج ٥، ص ٢٣١.
(٨) المقدسي، ص ٢٢٦.
(٩) ابن حوقل، ص ٧١.
(١٠) ياقوت، ج ٥، ص ٢٣١ـ٢٣٢.
(١١) التجاني، ص ٣٦٩ـ٣٧٠.
(١٢) نفس المكان، ص ٣٧٢.

١١ـ طرابُلُسُ الغَرب

تقبل على طرابلس الغرب براً فتعجبك، وتقبل عليها بحراً فتأسرك، وتطل عليها جواً فتسحرك. فهي مدينة صفق لها البحر واعتز بها البر. فلا غرابة أن يقول عنها ابنها البار النائب الانصاري انها «بلدة كريمة البقعة، طيبة التربة، مختصبة القاعة، معتدلة الهواء والجو والنسيم، وربيعها وخريفها ومشتاها ومصيفها على قدر من الاعتدال ووسط من الحال»[١]. وهذا التجاني يقول انه «بخارج باب البحر منها منظر من أنزه المناظر مشرف على الساحل حيث مرسى المدينة، وهو مرسى حسن متسع»[٢].

وليس غريباً أن يتوق إليها الاديب أحمد بن حسين البهلول وهو طالب في الأزهر فيقول معبراً عن شوقه:

طرابلس الغـــرا ترى لي عـــودة ... إليك وهل يدنو الذي كان قد ذهب
سقا الجانب الشرقي منك سحابة ... ولا زال فيك من رياح الصبا يهب
بلاد لها بالخلد آية شبهة ... فمنها نبات الزعفران كذا العنب
ترى سوحها من فضة فإذا اكتست ... بشمس الضحى أضحت لجينتها ذهب
وفيها نخيل باسقات إذا الصبا ... تهب عليها أسقطت يانع الرطب
فيا حبذا ثغر، له النصر خادم ... ويا حبذا عين، بها الماء قد عذب
أمثل شوقاً شكلها، في ضمايري ... فيسقط دمعي الثكل من شدة التعب
لقد أعجزت أوصافها كل معرب ... وكل الذي أملى، وكل الذي كتب
وناهيك بالبئر الجديد وسده ... وجيرته دار بها القلب ملتهب
فلا تلحني إن أرّق البين مقلتي ... وكادت بي الأشواق تفضي الى العطب
فإن من الإيمان، والنص شاهد، ... محبتك الاوطان من سيد العرب
وكيف بدار قد حوت كل رفعة ... بقوم لهم في العلم باع وفي الأدب
سقيت أيا ربع الأحبة ديمة ... تدوم ولا زالت بك المزن تنسكب
فيا لك من ربيع إذا ما ذكرته ... أهيم كما الثكلى أو شارب الحبب[٣]

وطرابلس قديمة في التاريخ. عرفها الفينيقيون ميناء ومسكناً، واهتم بها اليونان

ملجأ ومأمنا، واتخذها الرومان مأوى وموطناً. وكانت بأيدي البزنطيين لما أن جاءها العرب فاتحين. وقد روى ابن عبد الحكم: «سار عمرو بن العاص في الخيل حتى قدم برقة فصالح أهلها على ثلاثة عشر ألف دينار يؤدونها إليه جزية ... ولم يكن يدخل برقة يومئذ جابي خراج، إنما كانوا يبعثون بالجزية إذا جاء وقتها. ووجه عمرو بن العاص عقبة بن نافع حتى بلغ زويلة، وصار ما بين برقة وزويلة للمسلمين.

«ثم سار عمرو بن العاص حتى نزل طرابلس في سنة اثنتين وعشرين (٦٤٣) ... فنزل على القبة التي على الشرف من شرقيها فحاصرها شهراً لا يقدر منها على شيء. فخرج رجل من بني مدلج ذات يوم من عسكر عمرو متصيداً في سبعة نفر. فمضوا غربي المدينة حتى أمعنوا عن العسكر ثم رجعوا فأصابهم الحر فأخذوا على ضفة البحر وكان البحر لاصقاً بسور المدينة، ولم يكن فيما بين المدينة والبحر سور. وكانت سفن الروم شارعة في مرساها الى بيوتهم فنظر المدلجي وأصحابه فإذا البحر قد غاض من ناحية المدينة ووجدوا مسلكاً إليها من الموضع الذي غاض منه البحر. فدخلوا منه حتى أتوا من ناحية الكنيسة وكبروا فلم يكن للروم مفزع إلا سفنهم. وأبصر عمرو أصحابه السبعة في جوف المدينة فأقبل بجيشه حتى دخل عليهم فلم تفلت الروم إلا بما خف لهم في مراكبهم. وغنم عمرو ما كان في المدينة»[٤].

وقد أصاب طرابلس وغيرها من مدن ليبيا ما أصاب الكثير من مدن الشمال الافريقي في الأيام التي تلت الفتح. فالحروب كثيرة والثورات متعاقبة والولاة متعددون والخطر يهدد البلاد من البحر وغيره. لكن أخيراً استقرت الأمور بعض الشيء وأفادت طرابلس من ذلك كما أفاد غيرها. ولذلك نجدها في القرن الرابع (العاشر) وما تلاه تستمتع بتجارة زاهرة وزراعة مزدهرة، يشهد على ذلك ما قاله عنها الجغرافيون العرب الذين عرفوها عن كثب.

فالمقدسي يصفها بقوله: «وأطرابلس مدينة كبيرة على البحر مسورة بحجارة وجيل، لها باب البحر وباب الشرق وباب الجوف وباب الغرب. شربهم من آبار وماء مطر. كثيرة الفواكه والانجاص والتفاح والألبان والعسل واسمها كبير. وأجدابية عامرة بنيانهم حجارة على البحر وشربهم من الأمطار. وسرت كذلك، ولهما بواد وشعارى. وصبرة في بادية وهي حصينة بها نخيل وتين، شربهم من ماء المطر»[٥].

وابن حوقل يقول عنها: «فأما أطرابلس فكانت قديماً من عمل افريقية وسمعت من يذكر أن عمل أفريقية، لما كانت أطرابلس مضافة اليها معروف معلوم، وكان من صبرة وهي منزل من اطرابلس على يوم، وبه ضريبة على القوافل وقتنا هذا. ولم أعرفها قديماً ولا سمعت بها على الخارج من اطرابلس الى القيروان وعلى القادم من القيروان الى اطرابلس غير ما يقبضه المتولي عمل أطرابلس من كل جمل ومحمل وحمل. وذلك كالذي بلبدة، وهي أيضاً قرية بينها وبين أطرابلس إلى جهة المشرق

مرحلتان، من الضريبة على الجمال والأحمال والمحامل والبغال والرقيق والغنم والحمير الى ما عدا ذلك من الأسباب الواردة وأخذ الصدقات والخراج واللوازم ... والبربر المقيمين هنالك من هوارة وغيرهم اليه. وهي مدينة بيضاء من الصخر الأبيض على ساحل البحر، خصبة حصينة كبيرة ذات ربض، صالحة الأسواق كبيرة فنقل السلطان بعضها إلى داخل السور. وهي ناحية واسعة الكور كثيرة الضياع والبادية وارتفاعها دون ارتفاع برقة في وقتنا هذا، وبها من الفواكه الطيبة اللذيذة الجيدة القليلة الشبه بالمغرب وغيره كالخوخ والفرسك والكمثرى اللذين لا شبه لهما بمكان. وبها الجهاز الكثير من الصوف المرتفع وطيقان الأكسية الفاخرة الزرق والكحل النفوسية والسود والبيض الثمينة. إلى مراكب تحط ليلاً نهاراً، وترد بالتجارة على مر الأوقات والساعات، صباحاً ومساء، من بلد الروم وأرض المغرب بضروب الأمتعة والمطاعم، وأهلها قوم مرموقون بنظافة الأعراض والثياب والأحوال؛ متميزون بالتجمل في اللباس، وحسن الصور والقصد في المعاش، الى مروآت ظاهرة وعشرة حسنة ورحمة مستفاضة ونيات جميلة، الى مراء لا يفتر وعقول مستوية وصحة نية ومعاملة محمودة ومذهب في طاعة السلطان سديد، ورباطات كثيرة ومحبة للغريب أثيرة ذائعة. ولهم في الخير مذهب من طريق العصبية لا يدانيهم أهل بلد، اذا وردت المراكب ميناهم عرضت لهم دائماً الريح البحرية فيشتد الموج لانكشافه ويصعب الإرساء فيبادر أهل البلد بقواربهم وحبالهم متطوعين فيقيد المركب ويرسى به في أسرع وقت بغير كلفة لأحد ولا غرامة حبة ولا جزاء بمثقال»[٦].

والبكري يصفها بهذه العبارة: «وعلى مدينة طرابلس سور صخر جليل البنيان وهو على شاطىء البحر. ومبنى جامعها أحسن مبنى، وبها أسواق حافلة جامعة ... ومرساها مأمون من أكثر الرياح. كثيرة الثمار والخيرات ولها بساتين جليلة في شرقيها، ويتصل بالمدينة سبخة كبيرة يرفع منها الملح الكثير»[٧].

أنجبت طرابلس جماعة كبيرة من أهل العلم والفقه والأدب والشعر، بعضهم نبغوا قبل الغزوة الهلالية، وبعضهم برز حتى بعد أن نال المدينة ما نالها من تدمير.

فمن هؤلاء ابو محمد بن ابي الدنيا، من أهل القرن السابع (الثالث عشر). «ولد هذا الفاضل بطرابلس ونشأ بها واخذ عن جماعة من علمائها ورحل الى المشرق وحج ... وبرع في العلوم الشرعية وعلوم التصوف وارتحل إلى تونس». ثم عاد إلى طرابلس وقد بنى المدرسة المنتصرية في طرابلس وهي التي ظلت ملجأ للعلم حتى القرن التاسع (الخامس عشر). وقد نظم في الانقطاع عن الناس:

طرق السلامة والفلاح قناعة ... ولزوم بيت بالتوحش مؤنس
يكفيه أنسا أن يكون أنيسه ... آي الكتاب ونوره في الحندس
واذا رأت عيناه انساناً أتى ... فلينفرن نفور ظبي المكنس

ولقلما ينفك صاحب مقول من عثرة أو زلة في المجلس
تحصى وتكتب والجهول مغفل حتى يراها في مقام المفلس[٨]

في مطلع القرن الثامن (الرابع عشر) زار أبو محمد عبد الله التجاني طرابلس الغرب وقضى فيها عاماً ونصف عام واياماً، وقد خلّف لنا وصفاً لبعض ربوع المدينة من خير ما وصل الينا.

قال التجاني يصف وصول موكب الأمير اللحياني الذي كان يرافقه: «ولما توجهنا الى طرابلس وأشرفنا عليها كاد بياضها مع شعاع الشمس يعشى الابصار فعرفت صدق تسميتهم لها بالمدينة البيضاء. وخرج جميع أهلها مظهرين للاستبشار رافعين أصواتهم بالدعاء، وتخلى والي البلد اذ ذاك عن موضع سكناه وهو قصبة البلد فنزلنا بها. ورأيت آثار الضخامة بادية على هذه القصبة، غير أن الخراب قد تمكن منها وقد باع الولاة أكثرها فما حولها من الدور التي تكتنفها الآن انما استخرجت منها، ولها رحبتان متسعتان»[٩].

ودخل التجاني حمام البلد وتجول في شوارع المدينة فقال في ذلك: «ودخلت حمام البلد وهو المجاور للقصبة فرأيت حماماً صغير الساحة إلا أنه قد بلغ من الحسن غايته، وتجاوز من الظرف نهايته. وكان هذا الحمام من منافع القصبة فبيع من جملة ما بيع منها، وهو الآن محبس على بعض المساجد. وبالبلد حمامان آخران غيره إلا أنهما في الحسن دونه. ورأيت شوارعها فلم أر اكثر منها نظافة ولا أحسن اتساعاً واستقامة، وذلك أن اكثرها تخترق المدينة طولاً وعرضاً من اولها الى آخرها على هيئة شطرنجية ... ورأيت بسورها من الاعتناء، واحتفال البناء ما لم أره لمدينة سواها، وسبب ذلك ان لأهلها حظاً من مجباها، يصرفونه في رم سورها، وما تحتاج اليه من مهم أمورها، فهم لا يزالون أبداً يجددون البناء فيه، ويتداركون تلاشيه بتلافيه»[١٠].

والتجاني عالم فاضل، لذلك فإنه لم يغفل المدارس والعلماء. قال: «والقائم برسم العلم في هذه البلدة في وقتنا هذا شيخنا الامام الحافظ أبو فارس عبد العزيز بن عبد العظيم بن عبد السلام بن عبد العزيز بن عبيد، وهو رجل ليس من عمرو ولا زيد، ناهيك من رجل قد نال من المعارف ما اشتهى، وحاز فيما حاز من العلوم الاصولية والفرعية الغاية والمنتهى. حضرت درسه بمسجد مجاور لداره فرأيت رجلاً متضلعاً من العلم ذاكراً بالمذهب ذكراً لا يجاريه فيه أحد ولا تكاد مسألة تشذ عنه؛ حسن العبارة مشاركاً في علوم جمة وله اعتناء بحفظ كلام القرويين في المذهب من تعليل أو تفسير أو تفريق أو تخريج ...

«ولما حضرت درسه وتحققت مكانته المكينة في العلم أحببت القراءة عليه مدة اقامتنا هنالك، وطلب مخدومنا أن يكون ذلك بمحضر منه فلم يكن بد من استدعاء

الشيخ لموضع سكنانا فعقدنا مجلساً لذلك بالقصبة وفي مجلس الأمر منها. وطلب الحضور بذلك المجلس جماعة من أعيان الطلبة بالبلد فأذن لهم، ورأينا ان يكون المقروء حديث خير الأنام، الذي هو الاصل لجميع الاحكام. فابتدأت القراءة بلفظي لصحيح مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري رحمه الله تعالى في غرة شهر شعبان من العام المذكور قراءة تفقه فيه، وتدقيق للبحث في الفاظه الكريمة ومعانيه، وقد كنت ابتدأت تقييد ما انتجته فيه بيننا المناظرة، وأفادته المحاضرة، مما جاء كالاكمال لكتاب «الاكمال»، ثم بعد ذلك في الشهر نفسه ابتدأت قراءة دولة أخرى من كتاب المسند الصحيح للامام الحافظ أبي عبد الله محمد بن اسماعيل الجعفي البخاري رحمه الله، وامتد في قراءتهما مدى، قرىء فيه منهما ما هو نور وهدى، إلى أن دعا بنا داعي البين فاعجلت النقلة عن تمام الكتابين»[١١].

وعلق التجاني على ثروة البلد فقال: «واعتماد كل واحد منهم في طعامه، وما يدخره من قوت عامه، انما هو على ما يجلب اليها في البحر. وعن عادتهم أن لا يتركوا أحداً يخرج شيئاً مما حصل ببلدهم من الطعام الى خارجه ويعاقبون على اخراجه، وليس البلد بلد احتراث. وهو بالجملة بحري لا يرى الا ان أرضهم معدمة المثال في اصابة الزرع اذ أصابت وليس يدري مثلها في ذلك»[١٢].

وقال الاستاذ الكبير العارف بالله تعالى ـ أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي المغربي ـ رحمه الله تعالى، في رحلته: «انها مدينة مساحتها صغيرة وخيراتها كثيرة، ونكاياتها للعدو شهيرة، ومآثرها جليلة، ومعاييها قليلة. أنيقة البناء فسيحة الفناء، عالية الاسوار، متناسبة الادوار، واسعة طرقها، الى ما جمع لأهلها من زكي الاوصاف، وجميل الانصاف، وسماحة عن المعتاد زائدة، وعلى العافين بأنواع المبرات عائدة. لا تكاد تسمع من أحد من أهلها لغواً الا سلاماً، ولو لم أستحق ملاماً، سيما مع الحجاج الواردين، ومن انتسب الى الخير من الفقراء العابرين، فانهم يبالغون اكرامهم، ولا يألون جهداً في افضالهم عليهم وانعامهم، فجزاهم الله خيراً، وأعانهم وسائر بلاد المسلمين أجمعين».

وقال الامام الكبير والطود الشهير ـ محمد بن عبد السلام بن عبد الله بن محمد ابن محمد بن ناصر ـ في رحلته:

«وبالجملة فهذه البلاد انيقة، في بحار الجمال والحسن غريقة، أعطي سكانها الشجاعة والنهاية في الحزم والبراعة، اشربت قلوب الكفرة منها مهابة، ما ارادهم أحد بسوء الا والله تعالى كالملح أذابه. أمطر الله عليهم سحائب الرحمة، ودمر اعداءهم من سائر الكفرة والظلمة. تراهم يحبون من هاجر اليهم، ولا يألون من اسرابهم واكرامهم. تسمح ايديهم بالعطايا، ومواىدهم الهدايا. وزاد البلد حسناً ما بساحتها من المنشية، ذات النخيل البهية، والمناظر الرائقة، والفواكه الفائقة. يكل عنها نطاق

البيان، ولا يضبطها لسان ولا بنان، لا سيما الاترج الذي لا يوجد بغيرها له مناظر، والليمون الذي يتخذ منه انواع الأزهار لتطييب الثياب والأبدان»[١٣].

وممن أنجبته طرابلس، العارف بالله الشيخ أحمد البهلول «عالم الصلحاء وصالح العلماء، شهير الكرامات وكبير المقامات. كان غزير المادة باهراً في الرواية والدراية. عاش في القرن الثاني عشر (الثامن عشر). وقد نظم تخميس العياضية في مدح خير البرية، التي ننقل الآن مختارات منها:

علقت بأحوى ماله من مماثل ... حكى غصن بان مائس في علائل
إذا رمت اسلو عن حبيب مماطل ... أبى القلب ان يصغي الى قول عاذل
ولوح بي في مسائي وغدوتي

أبيت وقلبي يشتكي حر ناره ... لأجل رشيق ينثني في ازاره
يحاكي زهور الورد عند احمراره ... تورد خديه وآس عذاره
ونرجس عينيه سؤالي وبغيتي

تمكن في الاحشاء كل التمكن ... وصافيته في الود من كل ممكن
ولما رأيت العمر في الصد قد فني ... تغزلت في شعري به غير أنني
رجعت الى مدح النبي بهمتي

وبلغ سلامي ان وصلت مسلما ... على ساكن الجرعاء من أيمن الحمى
واني بهم ما زلت صبا متيما ... جفاني الكرى لم يهنني النوم عندما
فنيت بحب الغانيات الدواعج

وقفت ذليلاً مستجيراً بعدلهم ... وقوف مطيع راجياً نيل رفدهم
وان صرموا حبلي وثقت بحبلهم ... جنحت عليّ ان أفوز بوصلهم
وأحظى بربات الحلى والدمالج

فتاة من الاعراب تغنو بغنة ... وتلك على العشاق أعظم فتنة
لقد شغلتني في هواها بمحنة ... عيون لها في القلب رشق أسنة
وأمضى من البيض الحداد القواطع

أروح بجهلي في المعاصي وأفتدي ... وألهو ورأس المال قد ضاع من يدي
ولما رأيت النفس للوعظ تهتدي ... جلوت عروساً من مديح محمد
بها صح نجحي في جميع الحوائج

لطول جفاكم قد تجافيت مرقدي ... وقد مل سمعي ما يقول مفتدي

ولمـــا وهـى صـــبـــري وقل تجلدي دعـــوت إلهي بالنبي مـــحـــمـــد
تخـفف عني مـا لقـيت من الوجـد
فـتنت بفـتـان سـبـاني بحـسـره سقى الصقر صرفاً لي بكاسات خمره
يمـــيل كنشـــوان يتـــيـــه بسكره رمـاني بسهم البعـد من قوس هجـره
وصيـرني أرعى النجوم الى الفجـر
أنوح على الأحـبـاب في السـر والعلن وأندبهـا في عـرصـة الدار والدمن
ولمـا رأيت الشـيب في مـفـرقي سكن زجـرت فـؤادي عن هواهم بحب من
لمادحه في الحشر أسنى الجوائز[١٤]

الهوامش

(١) الانصاري: المنهل العذب، طرابلس الغرب، الفرجاني ١٩، ج ١، ص ١٩ـ٢٠.
(٢) التجاني، ص ٢٤٦.
(٣) المنهل العذب، ج ١، ص ٢١ـ٢٣.
(٤) ابن عبد الحكم، ص ١٧٠ـ١٧١.
(٥) المقدسي، ص ٢٢٤.
(٦) ابن حوقل، ص ٦٨ـ٧٠.
(٧) ياقوت، ج ٤، ص ٢٥.
(٨) المنهل العذب، ج ١، ص ١٦٤.
(٩) التجاني، ص ٢٣٧.
(١٠) نفس المكان، ص ٢٣٧ـ٢٣٨.
(١١) نفس المكان، ص ٢٥٥ـ٢٥٦.
(١٢) نفس المكان، ص ٢٥٨ـ٢٥٩.
(١٣) الانصاري: نفحات النسرين والريحان، بيروت، ١٩٦٣، ص ٥٧ـ٥٨.
(١٤) علي مصطفى المصراتي: لمحات ادبية عن ليبيا، طرابلس الغرب، المطبعة الحكومية، ١٩٥٩، ص ١٧ـ١٩.

١٢ـ القَاهِرَة

وقفت على قمة هرم الجيزة الأكبر، وألقيت بنظرة إلى ما انبسط امامي، فرأيت دنيا تآمرت الطبيعة والانسان على اقامتها وتزويقها وزخرفتها. فقد حباها الله ماء النيل الذي يحيي الأرض ويبعث فيها الروح والريحان، ومكّن للانسان ان ينقل هذا الماء إلى أمكنة متعددة. لكن حيث يقف الماء، تبدأ الصحراء. وهكذا فقد رأيت خطاً يفصل اللون الأصفر عن الأخضر من دون ان يكون بين اللونين خلاف او بين الأرضين شقاق.

وخلف هذه الحقول الخضراء والأرض الصفراء، انساب نهر لمعت مياهه في شمس الأصيل، فكانت كأنها عصا موسى جاءت تأكل السحر والساحرين. فتلوّت لاحقة بهم وتموّج سيرها تبعاً لذلك، فغش بها الناس فظنوها حية تسعى، وما هي إلا الخير والبركة.

ورأيت أمامي، على شيء من البعد، جبل المقطم تعلوه قلعة للحراسة ومسجد للعبادة. وبين المقطم والأهرام نشر التاريخ أمجاده، التليد منها والطريف، فثمة ممفيس وابو هولها واهرامها، وهناك مصر العتيقة التي وجدها العرب يوم جاءوا مصر فاتحين وكنيستها الكبرى ماري جرجس، وعلى مقربة منها فسطاط عمرو بن العاص وجامعه، وهناك القطائع والعسكر ثم القاهرة المعزية، والمنائر تزين الأفق، والأزهر يؤوي العلم، وجامع السلطان حسن كأنه قلعة للفن. وقد رأيت هذا المنظر بعد ذلك مرات من الطائرة، لكن قمة الهرم أثبت للرائي، وأكثر عوناً للمتأمل وأرحب فسحة لصاحب الأمل.

فتح عمرو بن العاص مصر، ونصب فسطاطه الموقت، وهمّ باتخاذ عاصمة غربي نهر النيل، لكن عمر بن الخطاب ابى ذلك، فظل الفسطاط العاصمة، ونما واتسع ونشأت حوله الارباض والبساتين. وأقام بنو طولون وغيرهم القطائع والعسكر. وجاء الفاطميون فأنشأوا قاهرة المعز. ويبدو ان اسم الفسطاط ظل غالباً حتى في القرن الرابع (العاشر) اذ زار مصر المقدسي فقال في وصف الفسطاط، وهو المدقق الحريص:

«الفسطاط هو مصر في كل قول لأنه قد جمع الدواوين، وحوى امير المؤمنين، وفصل بين المغرب وديار العرب واتسع بقعته وكثر ناسه وتنضر اقليمه واشتهر اسمه

وجلّ قدره. فهو مصر وناسخ بغداد ومفخر الاسلام ومتجر الانام، واجل من مدينة السلام. خزانة المغرب ومطرح المشرق وعامر الموسم، ليس في الامصار آهل منه. كثير الاجلة والمشايخ عجيب المتاجر والخصائص حسن الاسواق والمعايش. الى حمّاماته المنتهى ولقياسيره لباقة وبها، ليس في الاسلام اكبر مجالس من جامعه، ولا أحسن تجملاً من اهله، ولا اكثر مراكب من ساحله. أهل من نيسابور واجلّ من البصرة واكبر من دمشق. به اطعمة لطيفة، وادامات نظيفة، وحلاوات رخيصة، كثير الموز والرطب، غزير البقول والحطب. خفيف الما، صحيح الهوا، معدن العلما، طيّب الشتا، اهله أهل سلامة وعافية، ومعروف كثير وصدقة، نغمتهم بالقرآن حسنة، ورغبتهم في الخير بيّنة، وحسن عبادتهم في الآفاق معروفة. قد استراحوا من أذى الامطار، وامنوا من غاغة الاشرار. ينتقدون الخطيب والامام ولا يقدّمون الا طيّباً وان بذلوا الاموال. قاضيهم ابداً خطير، والمحتسب كالأمير، ولا ينفكون ابداً من نظر السلطان والوزير، ولولا عيوب له كثير، ما كان له في العالم من نظير. وهو نحو ثلثي فرسخ طبقات بعضها فوق بعض، وكانت جانبين: الفسطاط والجيزة، ثم شقّ بعض الخلفاء من ولد العبّاس خليجاً على قطعة منها فسمّيت تلك القطعة الجزيرة لأنها بين العمود والخليج، وسمّي خليج أمير المؤمنين، منه شربهم. ودورهم اربع طبقات وخمس كالمنابر، يدخل اليهم الضياء من الوسط. وسمعت انه يسكن الدار الواحدة نحو مائتي نفس، وانه لما صار اليها الحسن بن احمد القرمطي خرج الناس اليه فرآهم مثل الجراد فهاله ذلك، وقال: ما هذا؟ قيل: هؤلاء نظّارة مصر ومن ما يخرج اكثر. وكنت يوماً أمشي على الساحل واتعجب من كثرة المراكب الراسية والسائرة، فقال لي رجل منهم: من أين انت؟ قلت: من بيت المقدس. قال: بلد كبير اعلمك يا سيدي، اعزّك الله، ان على هذا الساحل وما قد اقلع منه الى البلدان والقرى من المراكب ما لو ذهبت الى بلدك لحملت اهلها وآلاتها وحجارتها وخشبها حتى يقال ههنا مدينة»[1].

وتحدث المقدسي في مكان آخر عن انطباعاته عن جوامع البلد وأسواقه فقال:

«وأبطيت يوماً عن السعي الى الجمعة فألفيت الصفوف في الاسواق على اكثر من الف ذراع من الجامع، ورأيت القياسير والمساجد والدكاكين حوله مملوءة من كل جانب من المصلين. وهذا الجامع يسمى السفلاني من عمل عمرو بن العاص وفيه منبره حسن البناء، في حيطانه شيء من الفسيفس على اعمدة رخام أكبر من جامع دمشق، والازدحام فيه اكثر من الجوامع الست. قد التفت عليه الأسواق إلا أن بينها وبينه من نحو القبلة دار الشط وخزائن وميضاة. وهو اعمر موضع بمصر وزقاق القناديل عن يساره، وما يدريك ما زقاق القناديل. والجامع الفوقاني من بناء بني طيلون اكبر وأبهى من السفلاني على اساطين واسعة مصهرجة وسقوفه عالية، في وسطه قبّة على عمل قبّة زمزم فيها سقاية، مشرف على قمم الخليج وغيره وله زيادات وخلفه دار حسنة،

ومنارته من حجر صغيرة، درجها من خارج، والحدّ بين اسفل وفوق مسجد عبد الله قد بني على مساحة الكعبة. ويطول الوصف بنعت اسواقه وجلالته غير انه أجلّ امصار المسلمين واكبر مفاخرهم وآهل بلدانهم. ومع هذه الكثرة اشتريت به الخبز الحوّاري ولا يخبزون غيره ثلاثين رطلاً بدورهم والبيض ثمانية بدانق والموز والرطب رخيص يجيء ابداً اليه ثمرات الشام والمغرب، وتسير الرفاق اليه من العراق والمشرق، ويقطع اليه مراكب الجزيرة والروم، تجارته عجيبة ومعايشه مفيدة وامواله كثيرة. لا ترى احلى من مائه ولا اوطأ من اهله ولا أحسن من بزّه ولا ابرك من نهره»[٢].

وأشار المقدسي الى القاهرة فقال:

«والقاهرة مدينة بناها جوهر الفاطمي لما فتح مصر وقهر من فيها. كبيرة حسنة بها جامع بهي وقصر السلطان وسطها، محصّنة بابواب محددة على جادّة الشام ولا يمكن احداً دخول الفسطاط إلا منها لأنهما بين الجبل والنهر، ومصلى العيد من ورائها والمقابر بين المصر والجبل. والعزيزية قد اختلت وخربت عامّتها وكانت المصر في القديم وبها كان ينزل فرعون وثم قصره ومسجد يعقوب ويوسف. وعين شمس مدينة على جادّة الشام كثيرة المزارع بها مسدّ النيل ايام زيادته، جامعهم في السوق»[٣].

لكن القاهرة وجدت من يصفها ويؤرخ لها فيما بعد. فقد زارها ناصري خسرو في أواسط القرن الخامس (الحادي عشر)، وكانت المدينة قد استقرت واتسعت واينعت واثمرت عمراناً وتجارة وعلماً وأدباً. لذلك كان وصفه وثيقة تاريخية لطيفة، خاصة وهي حديث زائر لا تمدح مصري ببلده. فمن ذلك قوله عن القاهرة: «وأول مدينة يصل اليها المسافر من الشام الى مصر هي القاهرة. وتقع مدينة مصر جنوبها. وتسمى القاهرة «المعزية»، ويقال للمعسكر «الفسطاط».

«وقدرت أن في القاهرة ما لا يقل عن عشرين الف دكان، كلها ملك للسلطان، وكثير منها يؤجر بعشرة دنانير مغربية في الشهر، وليس بينها ما تقل اجرته عن دينارين. والأربطة والحمامات والأبنية الأخرى كثيرة لا يحدها الحصر، وكلها ملك السلطان، إذ ليس لأحد ان يملك عقاراً او بيتاً غير المنازل وما يكون قد بناه الفرد لنفسه، وسمعت ان للسلطان ثمانية ألف بيت في القاهرة ومصر، وأنه يؤجرها ويحصل أجرتها كل شهر. يؤجرونها للناس برغبتهم ثم يتقاضون الأجر فلا يجبر شخص على شيء»[٤].

وقال عن قصر السلطان، وهو يقصد الخليفة الفاطمي طبعاً:

«ويقع قصر السلطان في وسط القاهرة، وهو طلق من جميع الجهات، ولا يتصل به اي بناء. وقد مسحه المهندسون فوجدوه مساوياً لمدينة ميافارقين، وكل ما حوله فضاء، ويحرسه كل ليلة الف رجل، خمسمائة راجل وخمسمائة فارس. وهم ينفخون البوق ويدقون الطبل والكوس من وقت صلاة المغرب ويدورون حول القصر حتى

الصباح. ويبدو هذا القصر، من خارج المدينة، كأنه جبل، لكثرة ما فيه من الأبنية المرتفعة»[٥].

وانطباعات ناصري خسرو عن القاهرة تدل على ذوق مرهف وإحساس رقيق. فهو يقول:

«وفي المدينة بساتين وأشجار بين القصور تسقى من ماء الآبار. وفي قصر السلطان بساتين لا نظير لها، وقد نصبت السواقي لريها. وغرست الأشجار فوق الأسطح فصارت متنزهات.

«وحين كنت هناك أجر منزل مساحته عشرون ذراعاً في اثني عشر ذراعاً بخمسة عشر ديناراً مغربياً في الشهر. والمنزل الذي أقمت فيه، كان أربعة أدوار، ثلاثة منها مسكونة، والرابع خال، وقد عرض على صاحبه خمسة دنانير مغربية كأجرة شهرية، فرفض معتذراً بأنه يلزمه ان يقيم به أحياناً، ولو انه لم يحضر مرتين في السنة التي أقمتها هناك.

«وكانت البيوت من النظافة والبهاء بحيث تقول انها بنيت من الجواهر الثمينة لا من الجص والآجر والحجارة. وهي بعيدة عن بعضها، فلا تنمو أشجار بيت على سور بيت آخر، ويستطيع كل مالك ان يعمل ما ينبغي لبيته في كل وقت، من هدم او اصلاح، دون أن يضايق جاره»[٦].

ولعلّ القارىء يحب ان يعرف كيف وصف الرحالة الجامع والأسواق، وهي دوماً تحيط بالجامع في كل بلد اسلامي. قال الكاتب:

«وفي وسط سوق مصر جامع يسمى «باب الجوامع»، شيده عمر بن العاص، أيام امارته على مصر من قبل عمر بن الخطاب. وهذا المسجد قائم على اربعمائة عمود من الرخام. والجدار الذي عليه المحراب مغطى كله بألواح الرخام الابيض التي كتب القرآن عليها بخط جميل. ويحيط بالمسجد، من جهاته الأربع، الأسواق، وعليها تفتح أبوابه. ويقيم بهذا المسجد المدرسون والمقرئون. وهو مكان اجتماع سكان المدينة الكبيرة، ولا يقل من فيه، في أي وقت، عن خمسة آلاف، من طلاب العلم والغرباء والكتاب الذين يحررون الصكوك والعقود وغيرها.

«ويوقدون في ليالي المواسم أكثر من سبعمائة قنديل. ويقال ان وزن الثريا خمسة وعشرون قنطاراً فضة، كل قنطار مائة رطل وكل رطل أربعة وأربعون ومائة درهم. ويقال انه حين تم صنعها لم يتسع لها باب من أبواب المسجد لكبرها، فخلعوا باباً وأدخلوها منه ثم ردوا الباب مكانه. ويفرش هذا المسجد بعشر طبقات من الحصير الجميل الملون بعضها فوق بعض، ويضاء كل ليلة بأكثر من مائة قنديل.

«وعلى الجانب الشمالي للمسجد سوق يسمى «سوق القناديل» لا يعرف سوق مثله في أي بلد، وفيه كل ما في العالم من طرائف. ورأيت هناك الأدوات التي تصنع من

الذبل كالأوعية والأمشاط ومقابض السكاكين وغيرها. ورأيت كذلك معلمين مهرة ينحتون بلوراً غاية في الجمال، وهم يحضرونه من المغرب. وقيل انه ظهر حديثاً، عند بحر القلزم، بلور ألطف وأكثر شفافية من بلور المغرب. ورأيت أنياب الفيل، أحضرت من زنجبار، وكان وزن كثير منها يزيد على مائتي منّ. كما أحضر جلد بقر من الحبشة، يشبه جلد النمر، ويعملون منه النعال. وقد جلبوا من الحبشة طائراً أليفاً كبيراً، به نقط بيضاء وعلى رأسه تاج مثل الطاووس.

«ويصنعون بمصر الفخار من كل نوع، وهو لطيف وشفاف بحيث إذا وضعت يدك عليه من الخارج ظهرت من الداخل، وتصنع منه الكؤوس والأقداح والأطباق وغيرها، وهم يلونونها بحيث تشبه البوقلمون فتظهر بلون مختلف في كل جهة تكون بها، ويصنعون بمصر قوارير كالزبرجد في الصفاء والنظافة ويبيعونها بالوزن»[٧].

ولا بد لنا من العودة الى ابن جبير لنتعرف أحوال القاهرة في القرن السادس (الثاني عشر). فقد كان الرحّالة المغربي المشهور صاحب قلم دقيق أنيق وأسلوب بارع رشيق، فهو يتأثر ثم يعبّر عن تأثره بشكل يساعد على انطباع الصورة شمولاً، ويمكنك من تقصي الدقائق تفصيلاً. فاستمع إليه يقول في وصف المارستان. «المارستان الذي بمدينة القاهرة، وهو قصر من القصور الرائقة حسناً واتساعاً، أبرزه لهذه الفضيلة تأجراً او احتساباً، وعين قيماً له من أهل المعرفة، وضع لديه خزائن العقاقير ومكّنه من استعمال الأشربة واقامتها على اختلاف أنواعها. ووضعت في مقاصر ذلك القصر أسرة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكسي. وبين يدي ذلك القيم خدمة يتكفلون بتفقد أحوال المرضى بكرة وعشية، فيقابلون من الأغذية والأشربة ما يليق بهم. وبإزاء هذا الموضع موضع مقتطع للنساء المرضى، ولهنّ من يكفلهنّ. ويتصل بالموضعين المذكورين موضع آخر متسع الفناء فيه مقاصير عليها شبابيك الحديد اتخذت محابس للمجانين، ولهم أيضاً من يتفقد في كل يوم أحوالهم ويقابلها بما يصلح لها. والسلطان يتطلع لهذه الأحوال كلها بالبحث والسؤال ويؤكد في الاعتناء بها والمثابرة عليها غاية التأكيد»[٨].

وكان بين من عرف القاهرة واطلع على أحوالها رحالة عالم هو عبد اللطيف البغدادي الذي كتب الكثير عن القطر بكامله. وقد أعجب بأبنية تلك المدينة فقال عنها:

«وأما أبنيتهم ففيها هندسة بارعة وترتيب في الغاية، حتى انهم قلما يتركون مكاناً غفلاً خالياً عن مصلحة. ودورهم أقبح وغالب سكناهم في الأعالي ويجعلون منافذ منازلهم تلقاء الشمال والرياح الطيبة، وقلما تجد منزلاً إلا وتجد فيه باذاهيج. وباذاهيجاتهم كبار واسطة للريح عليها تسلط ويحكمونها غاية الاحكام حتى انه يقوم على عمارة الواحد منها ماية دينار الى خمسمائة، وان كانت باذاهيجات المنازل

الصغار يغرم على الواحد منها دينار. وأسواقهم وشوارعهم واسعة وأبنيتهم شاهقة. ويبنون بالحجر النحيت والطوب الأحمر وهو الآجر، وشكل طوبهم على نصف طوب العراق»[٩].

لكن لعلّ ألطف صورة شاملة حصلنا عليها لمصر في القرن السابع (الثالث عشر) هي تلك التي خطها قلم ابن سعيد المغربي. والصورة طريفة واقعية، لأن الرجل روى ما اختبره مباشرة. قال ابن سعيد:

«ولما استقررت بالقاهرة تشوّقت الى معاينة الفسطاط فسار معي اليها أحد أصحاب القرية. فرأيت عند باب زويلة من الحمير المعدة لركوب من يسير الى الفسطاط جملة عظيمة لا عهد لي بمثلها في بلد. فركب منها حماراً وأشار اليّ ان أركب حماراً آخر، فأنفت من ذلك جرياً على عادة من خلفته في بلاد المغرب. فأخبرني انه غير معيب على أعيان مصر، وعاينت الفقهاء وأصحاب البزّة والشارة الظاهرة يركبونها فركبت. وعندما استويت راكباً أشار المكاري الى الحمار فطار بي وأثار من الغبار الاسود ما أعمى عيني ودنس ثيابي وعاينت ما كرهته. ولقلة معرفتي بركوب الحمار، وشدة عدوه على قانون لم أعهده، وقلة رفق المكاري وقعت في تلك الظلمة المثارة من ذلك العجاج فقلت:

لقيت بمصر أشدّ البوار ... ركوب الحمار وكحل الغبار
وخلفي مكار يفوق الرياح ... لا يعرف الرفق مهما استطار
أناديه مهلاً فلا يرعوي ... الى ان سجدت سجود العثار
وقد مدّ فوقي رواق الثرى ... وألحد فيها ضياء النهار

«فدفعت الى المكاري أجرته وقلت له: احسانك ان تتركني أمشي على رجلي؛ ومشيت الى ان بلغتها. وقدّرت في الطريق بين الفسطاط والقاهرة وحققته بعد ذلك نحو ميلين. ولما أقبلت على الفسطاط أدبرت عني المسرّة وتأملت أسواراً مثلمة سوداء وآفاقاً مغبرة ودخلت من بابها وهو دون غلق يفضي الى خراب مغمور بمبان مشتتة الوضع غير مستقيمة الشوارع قد بنيت من الطوب الأدكن والقصب والنخيل طبقة فوق طبقة، وحول أبوابها من التراب الأسود والأزبال ما يقبض نفس النظيف ويغض طرف الظريف. فسرت وأنا معاين لاستصحاب تلك الحال الى ان صرت في أسواقها الضيقة فقاسيت من ازدحام الناس فيها لحوائج السوق والروايا التي على الجمال ما لا تفي به الا مشاهدته ومقاساته، الى ان انتهيت الى المسجد الجامع فعاينت من ضيق الأسواق التي حوله ما ذكرت ضده في جامع اشبيلية وجامع مراكش. ثم دخلت اليه فعاينت جامعاً كبيراً قديم البناء غير مزخرف ولا محتفل في حصره التي تدور مع بعض حيطانه وتنبسط فيه. وأبصرت العامة رجالاً ونساء قد جعلوه معبراً بأوطئة أقدامهم يجوزون فيه من باب الى باب ليقرب عليهم الطريق. والبياعون يبيعون

فيه أصناف المسكّرات والكعك وما سوى ذلك. والناس يأكلون في عدة أمكنة منه غير محتشمين لجري العادة عندهم بذلك. وعدة صبيان بأواني ماء يطوفون على كل من يأكل قد جعلوا ما يحصل لهم منه رزقاً، وفضلات مأكلهم مطروحة في صحن الجامع. وفي زواياه العنكبوت قد عظم نسجه في السقف والأركان والحيطان. والصبيان يلعبون في صحنه. وحيطانه مكتوبة بالفحم والحمرة بخطوط قبيحة مختلفة من كتب فقراء العامة. الا ان مع ذلك على الجامع المذكور من الرونق وحسن القبول وانبساط النفس ما لا نجده في جامع اشبيلية مع زخرفه ...

«واستحسنت ما أبصرته من خلق المتصدرين لإقراء القرآن والفقه والنحو في عدة أماكن، وسألت عن موارد أرزاقهم فأخبرت أنها من فروض الزكاة وما أشبه ذلك. ثم اخبرت ان اقتضاء ذلك يصعب الا بالجاه والتعب.

«ثم انفصلنا من هناك الى ساحل النيل فرأيت ساحلاً كدر التربة غير نظيف ولا متسع الساحة ولا مستقيم الاستطالة ... الاّ انه مع ذلك كثير العمارة بالمراكب وأصناف الارزاق التي تصل من جميع أقطار النيل. ولئن قلت اني لم أبصر على نهر ما أبصرته على ذلك الساحل فاني أقول حقاً.

«والحال ان أهل الفسطاط في نهاية من اللطافة واللين في الكلام ... ورعاية قدر الصحبة وكثرة الممازحة والالفة، مما يطول ذكره. وأما ما يرد على الفسطاط من متاجر البحر الاسكندراني والبحر الحجازي فانه فوق ما يوصف، وبه مجمع ذلك لا بالقاهرة، ومنها يجهز الى القاهرة وسائر البلاد. وبالفسطاط مطابخ السكر والصابون ومعظم ما يجري هذا المجرى. لأن القاهرة بنيت للاختصاص بالجند كما ان جميع زيّ الجند بالقاهرة أعظم منه بالفسطاط. وكذلك ما ينسج ويصاغ، وسائر ما يعمل من الأشياء الرفيعة السلطانية والحراب في الفسطاط كثير. والقاهرة أجدّ وأعمر وأكثر زحمة باعتبار انتقال السلطان اليها وسكنى الاجناد فيها».

واهتم ابن سعيد بالمجتمع الفسطاطي القاهري اهتماماً خاصاً مع العناية بالمتجر والمصنع والناس. فقال في ذلك:

«والمكان المعروف بالقاهرة بين القصرين هو من الترتيب السلطاني لأن هنالك ساحة متسعة للعسكر والمفرجين ما بين القصرين. ولو كانت القاهرة كلها كذلك كانت عظيمة القدر كاملة الهمة السلطانية. ولكن ذلك أمد قليل ثم تسير منه إلى أمد أضيق وتمرّ في مكان كدر حرج بين الدكاكين اذا ازدحمت فيه الخيل مع الرجالة كان مما تضيق به الصدور وتسخن منه العيون. ولقد عاينت يوماً وزير الدولة وبين يديه الأمراء وهو في موكب جليل وقد لقي في طريقه عجلة بقر تحمل حجارة، وقد سدت جميع الطرق بين يدي الدكاكين. ووقف الوزير وعظم الازدحام وكان في موضع طباخين والدخان في وجه الوزير وعلى ثيابه وقد كاد يهلك المشاة وكدت أهلك في جملتهم.

وأكثر دورب القاهرة ضيقة مظلمة كثيرة التراب والازبال، والمباني عليها من قصب وطين مرتفعة قد ضيقت مسلك الهواء والضوء بينها: ولم أر في جميع بلاد المغرب أسوأ منها حالاً في ذلك. ولقد كنت إذا مشيت فيها يضيق صدري وتدركني وحشة عظيمة حتى أخرج إلى بين القصرين. ومن عيوب القاهرة انها في أرض النيل الأعظم ويموت الانسان فيها عطشاً لبعدها عن مجرى النيل لئلا يصادرها ويأكل ديارها. وإذا احتاج الانسان إلى فرجة في نيلها مشى في مسافة بعيدة بظاهرها بين المباني التي خارج السور الى موضع يعرف بالمقس. وجوّها لا يبرح كدراً مما تثيره الأرض من التراب الأسود.

«والفسطاط أكثر أرزاقاً وأرخص اسعاراً من القاهرة لقرب النيل من الفسطاط. والمراكب التي تصل بالخيرات تحط هناك ويباع ما يصل فيها بالقرب منها، وليس يتفق ذلك في ساحل القاهرة لأنه يبعد عن المدينة. والقاهرة هي أكثر عمارة واحتراماً وحشمة من الفسطاط. لأنها أجلّ مدارس وأضخم خانات وأعظم ديارا لسكنى الأمراء فيها لأنها المخصوصة بالسلطنة لقرب قلعة الجبل منها. فأمور السلطنة كلها فيها أيسر وأكثر وبها الطراز، وسائر الأشياء التي تتزين بها الرجال والنساء ... والفقير المجرد فيها يستريح بجهة رخص الخبز وكثرته ... ومطابخ السكر والمواضع التي يصنع بها الورق المنصوري مخصوصة بالفسطاط دون القاهرة ... والمعايش فيها متعذرة نزرة لا سيما أصناف الفضلاء، وجوامك المدارس قليلة كدرة ...»[١٠].

وقد نال القاهرة نصيب من قلم ابن بطوطة الساحر، فتحدث عنها كثيراً، لكننا نكتفي بما قاله عن مدارسها:

«وأما المدارس بمصر فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها. وأما المارستان الذي بين القصرين عند تربة الملك المنصور قلاوون، فيعجز الواصف عن محاسنه، وقد أعد فيه من المرافق والأدوية ما لا يحصر، ويذكر ان مجباه ألف دينار كل يوم. وأما الزوايا فكثيرة، وهم يسمونها الخوانق واحدتها خانقة، والأمراء بمصر يتنافسون في بناء الزوايا، وكل زاوية بمصر معينة لطائفة من الفقراء وأكثرهم الأعاجم، وهم أهل أدب ومعرفة بطريقة التصوف، ولكل زاوية شيخ وحارس، وترتيب أمورهم عجيب. ومن عاداتهم في الطعام أنه يأتي خادم الزاوية الى الفقراء صباحاً، فيعين له كل واحد ما يشتهيه من الطعام، فإذا اجتمعوا للأكل، جعلوا لكل إنسان خبزه ومرقه في إناء على حدة لا يشاركه فيه أحد. وطعامهم مرتان في اليوم، ولهم كسوة الصيف، ومرتب شهري من ثلاثين درهماً للواحد في الشهر الى عشرين. ولهم الحلاوة من السكر في كل ليلة جمعة، والصابون لغسل أثوابهم، والأجرة لدخول الحمام، والزيت للاستصباح. وهم أعزاب وللمتزوجين زوايا على حدة. ومن المشترط عليهم حضور الصلوات الخمس، والمبيت بالزاوية. واجتماعهم بقبة داخل الزاوية. ومن عاداتهم ان يجلس كل واحد

منهم على سجادة مختصة به. وإذا صلوا الصبح قرأوا سورة الفتح وسورة الملك وسورة عم، ثم يؤتى بنسخ من القرآن العظيم مجزأة، فيأخذ كل فقير جزءاً ويختمون القرآن ويذكرون. ثم يقرأ القرآن على عادة أهل المشرق، ومثل ذلك يفعلون بعد صلاة العصر.

«ومن عاداتهم مع القادم انه يأتي باب الزاوية، فيقف به مشدود الوسط، وعلى كاهله سجادة، وبيمناه العكاز، وبيسراه الابريق، فيعلم البواب خادم الزاوية بمكانه، فيخرج إليه ويسأله من أي البلاد أتى؟ وبأي الزوايا نزل في طريقه؟ ومن شيخه؟ فإذا عرف صحة قوله، أدخله الزاوية وفرش له سجادته في موضع يليق به، وأراه موضع الطهارة، فيجدد الوضوء، ويأتي الى سجادته فيحل وسطه ويصلي ركعتين، ويصافح الشيخ ومن حضر ويقعد معهم. ومن عاداتهم انه إذا كان يوم الجمعة أخذ الخادم جميع سجاجيدهم، فيذهب بها الى المسجد، ويفرشها لهم هنالك، ويخرجون مجتمعين ومعهم شيخهم، فيأتون المسجد، ويصلي كل واحد على سجادته، فإذا فرغوا من الصلاة قرأوا القرآن على عادتهم، ثم ينصرفون مجتمعين الى الزاوية ومعهم شيخهم».

كانت القاهرة، منذ ان أنشأها الفاطميون، داراً للعلم يقبل عليها المتعطشون إليه والراغبون فيه. وقد ذكر غير واحد من مؤرخيها وزوارها كثرة مدارسها، على نحو ما نجد عند ابن جبير وابن بطوطة والمقريزي وسواهم. ولنذكر ان ابن خلدون استقر في القاهرة في النصف الثاني من القرن الثامن (الرابع عشر) وظل فيها حتى وفاته.

وقد هبط الرجل مصر وهو علم من الأعلام، ومؤرخ يشار إليه بالبنان. فلما عرف السلطان بأمره، أراد ان يفيد منه، فولي القضاء غير مرة، وولي التدريس بالقمحية. فهو يتحدث عن المدارس حديث مؤرخ عارف بشؤونها من الداخل. ولذلك فإننا ننقل بعض ما جاء في كلامه عن المدرسة القمحية. قال ابن خلدون:

«أهل هذه الدولة التركية بمصر والشام معنيّون ... بإنشاء المدارس لتدريس العلم، والخوانق لإقامة رسوم الفقراء في التخلق بآداب الصّوفية السنّية في مطارحة الاذكار، ونوافل الصلوات، أخذوا ذلك عمّن قبلهم من الدول الخلافية، فيختّطون مبانيها ويقفون الأراضي المغلة للإنفاق منها على طلبة العلم، ومتدربي الفقراء ... واقتدى بسنّتهم في ذلك من تحت أيديهم من أهل الرياسة والثروة، فكثرت لذلك المدارس والخوانق بمدينة القاهرة، وأصبحت معاشاً للفقراء من الفقهاء والصوفية، وكان ذلك من محاسن هذه الدولة التركية، وآثارها الجميلة الخالدة.

«وكنت لأول قدومي على القاهرة، وحصولي في كفالة السلطان، شغرت مدرسة بمصر من إنشاء صلاح الدين بن أيوب، وقفها على المالكية يتدارسون بها الفقه، ووقف عليها أراضي من الفيّوم تغلّ القمح، فسميت لذلك القمحية، كما وقف أخرى على الشافعية هنالك، وتوفي مدرّسها حينئذ، فولاّني السلطان تدريسها ... وحضرني يوم جلوسي للتدريس فيها جماعة من أكابر الأمراء تنويهاً بذكري، وعناية من السلطان

ومنهم بجانبي، وخطبت يوم جلوسي في ذلك الحفل بخطبة ألممت فيها بذكر القوم بما يناسبهم، ويوفي حقهم، ووصفت المقام ...

«ولما سبحت في اللّج الأزرق، وخطوت من أفق المغرب الى أفق المشرق، حيث نهر النهار ينصبّ من صفحه المشرق، وشجرة الملك التي اعتزّ بها الاسلام تهتز في دوحة المعرق، وازهار الفنون تسقط علينا من غصنه المورق، وينابيع العلوم والفضائل تمدّ وشلنا من فراته المغدق، أولوني عناية وتشريفاً، وغمروني إحساناً ومعروفاً، وأوسعوا بهمتي إيضاحاً، ونكرتي تعريفاً ... فأقامني السلطان ـ أيّده الله ـ لتدريس العلم بهذا المكان، لا تقدّماً على الأعيان، ولا رغبة عن الفضلاء من أهل الشّان، واني موقن بالقصور، بين أهل العصور، معترف بالعجز عن المضاء في هذا الفضاء. وأنا أرغب من أهل اليد البيضاء، والمعارف المتّسعة الفضاء، ان يلمحوا بعين الارتضاء، ويتغمّدوا بالصّفح والاغضاء، والبضاعة بينهم مزجاة، والاعتراف من اللوم ـ إن شاء الله ـ منجاة، والحسنة من الاخوان مرتجاة ...

«وانفضّ ذلك المجلس، وقد شيّعتني العيون بالتّجلة والوقار، وتناجت النفوس بالأهلية للمناصب»[١١].

الهوامش

(١) المقدسي، ص ١٩٧ـ١٩٨.
(٢) نفس المكان، ص ١٩٨ـ٢٠٠.
(٣) نفس المكان، ص ٢٠٠.
(٤) ناصري خسرو: سفرنامه (ترجمة يحيى الخشاب) القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٥.
(٥) نفس المكان، ص ٤٨.
(٦) نفس المكان، ص ٥٠.
(٧) نفس المكان، ص ٥٩ـ٦٠.
(٨) ابن جبير، ص ٢١.
(٩) البغدادي، عبد اللطيف: الافادة والاعتبار، القاهرة، مطبعة وادي النيل، ١٨٦٩، ص ٥٢.
(١٠) المقري، ابو العباس احمد: نفح الطيب، القاهرة، مطبعة البابي، لا. ت، ج ١، ص ٤٨٦ـ٤٩١.
(١١) ابن خلدون: التعريف ص ٢٧٩ـ٢٨٥.

١٣ـ مكّة المكرّمة

جاء في القرآن الكريم ان ابراهيم طلب اليه تعالى ان يجعل البلد الذي نزل فيه آمناً، ثم رفع اليه عز وجل ضراعة بقوله: «ربنا اني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلوة فاجعل افئدة الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون».

وقد اختار الله تعالى رسوله ﷺ من أهل هذا البيت الذي بمكة، وبذلك جعله مهوى افئدة من مشارق الأرض ومغاربها. فكل مسلم يأمل أن يتاح له في يوم من الأيام ان يزور الكعبة المشرفة والبيت الحرام. والتعبير عن الشعور الذي يراود المسلم اذ تتحقق امنيته دونه كثيرون ممن حج واعتمر ولمس الحجر الأسود. ومن هؤلاء ابن جبير الذي فعل ذلك في القرن السادس (الثاني عشر). فقد قال:

«فأقمنا بياض يوم الاربعاء المذكور مريحين بالقرين فلما حان العشي رحنا منه محرمين بعمرة، فأسرينا ليلتنا تلك فكان وصولنا مع الفجر الى قريب الحرم. فنزلنا مرتقبين لانتشار الضوء ودخلنا مكة حرسها الله، في الساعة الاولى من يوم الخميس الثالث عشر لربيع المذكور وهو الرابع من شهر اغشت [آب]، على باب العمر وكان اسراؤنا تلك الليلة المذكورة والبدر قد القى على البسيطة شعاعه، والليل قد كشفت عنّا قناعه، والأصوات تصكّ الآذان، بالتلبية من كل مكان، والألسنة تضج بالدعاء، وتبتهل الى الله بالرغباء، فتارة تشتد بالتلبية، وآونة تتضرّع بالأدعية، فيا لها ليلة كانت في الحسن بيضة العقر، فهي عروس ليالي العمر، وبكر بنيّات الدهر. الى أن وصلنا في الساعة المذكورة من اليوم المذكور حرم الله العظيم، ومبوأ الخليل ابراهيم، فألفينا الكعبة البيت الحرام عروساً مزفوفة الى جنة الرضوان، محفوفة بوفود الرحمن. فطفنا طواف القدوم ثم صلينا بالمقام الكريم وتعلقنا بأستار الكعبة عند الملتزم وهو بين الحجر الأسود والباب، وهو موضع استجابة الدعوة. ودخلنا قبّة زمزم وشربنا من مائها وهو لما شرب له كما قال ﷺ. ثم سعينا بين الصفا والمروة ثم حلقنا واحللنا فالحمد لله الذي كرّمنا بالوفادة عليه، وجعلنا ممن انتهت الدعوة الابراهيمية اليه وهو حسبنا ونعم الوكيل»[1].

وقد خلّف لنا المقدسي الجغرافي من اهل القرن الرابع (العاشر) انطباعاته عن مكة فقال:

«مكة هي مصر هذا الاقليم قد خطت حول الكعبة في شعب واد. رأيت لها ثلاث نظائر: عمّان بالشام واصطخر بفارس وقرية الحمراء بخراسان. بناؤها حجارة سود ملس وبيض ايضاً ويعلوها الآجر. كثيرة الاجنحة من خشب الساج وهي طبقات مبيّضة نظيفة حارّة في الصيف الا ان ليلها طيّب. قد رفع الله عنهم مؤونة الدفاع وأراحهم من كلف الاصطلاء، وكلما نزل عن المسجد الحرام يسمّونه المسفلة وما ارتفع عنه المعلاة. وعرضها سعة الوادي والمسجد في ثلثي البلد الى المسفلة والكعبة، في وسطه وفيه طول باب الكعبة مرتفع عن الأرض نحو قامة عليه مصراعان ملبسان بصفائح الفضّة قد طليت بالذهب قبال المشرق»[٢].

كان لمكة قبل الاسلام تاريخ وحروب يحتفظ التاريخ واصداؤه منها بالكثير. فهذا جلاء خزاعة لجرهم عنها يقول عنه الحارث بن عمرو:

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا ... أنيس ولم يسمر بمكة سامر
ولم يتربّع واسطاً فجنوبه ... الى السر من وادي الأراكة حاضر
بلى، نحن كنا أهلها فأبادنا ... صروف الليالي والجدود العواثر
وأبدلنا ربي بها دار غربة ... بها الجوع باد والعدو المحاصر
وكنا ولاة البيت من بعد نابت ... نطوف بباب البيت والخير ظاهر
فأخرجنا منها المليك بقدرة، ... كذلك ما بالناس تجري بالمقادر
فصرنا أحاديثا وكنا بغبطة، ... كذلك غضتنا السنون الغوابر
وبدّلنا كعب بها دار غربة ... بها الذئب يعوي والعدو المكاثر
فسحّت دموع العين تجري لبلدة ... بها حرم آمن وفيها المشاعر

ولكن مكة دخلت التاريخ من الباب الواسع لما ان اوحى الله الى رسوله (ص) في غار حراء ان «اقرأ باسم ربك الاكرم، الذي علم بالقلم، علم الانسان ما لم يعلم»، «فكان ذلك ايذاناً بدعوة روحانية حملت انفاسها على ترتيل القرآن وأحاديث الرسول وسنته الى مشارق الأرض ومغاربها. وصار كل مسلم يتطلع شوقاً الى اليوم الذي يحقق فيه امنيته في الحج.

وقد خرج رسول الله ﷺ من مكة مهاجراً فلما خرج منها «وقف على الحزورة وقال: اني لأعلم انك احب البلاد الي، وانك احب ارض الله الى الله، ولولا ان المشركين اخرجوني منك ما خرجت». ويروى عن عائشة أنها قالت «لولا الهجرة لسكنت مكة، فإني لم أر السماء بمكان اقرب الى الارض بمكة، ولم يطمئن قلبي ببلد قط ما اطمأن بمكة، ولم ار القمر بمكان احسن منه بمكة»[٣].

ولما دخل رسول الله ﷺ مكة في عام الفتح، كان ابن ام مكثوم آخذاً بزمام ناقته وهو يطوف، فقال:

«يا حبذا مكة من وادي ارض بها اهلي وعوادي
ارض بها ترسخ أوتادي ارض بها امشي بلا هادي»[٤].

وهذا من ألطف ما يمكن ان يقال تشوقاً الى الوطن.

وهذا التاريخ الطويل، مثل كل تاريخ طويل لأي مكان، تعتوره فترات متباينة. ولكن الشيء الذي تحتفظ به مكة، وتحتفظ به المدينة، مع كل تقلبات الاحوال، هو هذه المكانة الخاصة التي يكنها المسلم لهما، وهذا الاحترام الدائم لهما.

وقد مر بمكة، أو على الاصح بالحجاز كله، زمن عقب وفاة الرسول ﷺ كان الناس فيه يقصدون تلك الربوع دارسين متعرفين الى الكثير من شؤون الإسلام. وقد لخص الدكتور جبرائيل جبور ذلك بقوله:

«وقد قويت هذه الحركة الدينية ذلك العصر في مدينتين من مدن الحجاز، هما مكة والمدينة. فبعد ان مات النبي، وظل أكثر صحابته وتابعيهم في الحجاز، وبعد ان دفن في المدينة، وصارت هذه عاصمة لخلفائه الراشدين، واصبحت مكة قبلة المسلمين ومزار حجهم، وبعد ان تم القرآن زمن عثمان، وبعد ان اتسعت رقعة المملكة الاسلامية زمن بني امية ودخل الكثيرون من أهل الأمم المغلوبة في الإسلام، أخذ الكثيرون يفدون على الحجاز في طلب علوم هذا الدين الجديد، والتعرف الى اسباب التنزيل والظروف التي احاطت به في مكة والمدينة، وتفسير الآيات وجمع الحديث أو درسه واستنباط الاحكام وما الى هذه الأمور. وهل هناك من هم أدرى بهذه المسائل من علماء مكة والمدينة الذين عاش النبي بين ظهرانيهم، وسمعوه يتلو القرآن عليهم، وسألوه عن الكثير من أمور دنياهم ودينهم؟ ولذلك فقد كانت مكة والمدينة أهم مركزين للحياة الدينية في ذلك العصر، وكان رجال هاتين المدينتين بوجه عام معلمي العالم الإسلامي آنئذ، ومفقهي المسلمين في أمور دينهم. وقد ذكرت الكتب التاريخية والدينية اسماء الكثيرين من هؤلاء المعلمين العلماء من صحابة وتابعين، عرباً كانوا أو موالي، كعلي، وابن مسعود، وابن عمر، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن عباس، وسعيد بن المسيب، ومجاهد بن جبر، وعكرمة مولى ابن عباس، ونافع مولى عبد الله بن عمر، وعطاء ابن أبي رباح، وسليمان ابن يسار، وغيرهم. وقد نشأ عن هذا في المدينة ظهور مالك بن انس مؤسس المذهب المالكي في آخر القرن الأول، وقد أخذ عن ربيعة الرأي، وخلّف لنا كتاب الموطأ الذي يعد من اقدم الكتب الإسلامية في الحديث والشرع.

«على انه كان الى جانب هذا كله حياة لهو وطرب وحياة شعر وادب. فقد كثر المال في ايدي المكيين والمدنيين، فعنوا بالحياة المترفة حيناً، وتمتعوا بما يرافق ذلك من لهو بريء وغزل لطيف ونسيب من السحر الحلال. وهذه مكة عرفت فيها حياة الدعابة والعبث واللهو مقرونة الى شيء من التحفظ والاحتياط. وكانت فيها الكعبة

ومواسم الحج وكانت اقرب الى حياة البادية من المدينة، فلم يقو العبث فيها ولم ينتشر المجون مثل انتشاره بالمدينة»[٥].

وكان عمر بن ابي ربيعة وصحبه ورفاقه محور هذه الحياة اللاهية في مكة يوم استقر فيها وأخذ يطوف منها الى الطائف وغيرها. وحتى عمر أثر عليه جو مكة فتاب وتنسك في اخريات ايامه. ولعلّ المقطوعة التالية من خير ما يعبر عن شعوره نحو سابق ايامه ولاحق اوقاته. يقول عمر بن أبي ربيعة:

اصبح القلب قد صحا وأنابا ... هجر اللهو والصبا والربابا
كنت أهوى وصالها فتجنت ... ذنب غيري فما تملّ العتابا
فتعزيت عن هواها لرشدي ... حين لاح القذال مني فشابا
بعثت للوصال نحوي وقالت ... ان لله درّه كيف تابا
من رسول اليه يعلم حقاً ... اجمع اليوم هجرة واجتنابا
ان لم اصرفه للذي قد هوينا ... عن هواه فلا اسغت شرابا
بعثت نحو عاشق غير سال ... مع ثواب فلا عدمت ثوابا
بحديث فيه ملام لصب ... موجع القلب عاشق فأجابا
فأتاها للحين يعدو سريعاً ... وعصى في هوى الرباب الصحابا

ومكة نالت الكثير من الخير على ايدي حكام المسلمين وأثريائهم في العصور المختلفة. ومن ثم كثرت فيها المدارس والسقايات والربط والزوايا والمساجد. فكل مسلم يجب ان يتقرب الى الله تعالى عن طريق الخير للمسلمين أجمعين، ويحب ان يذكر في مكة والمدينة.

والرحالون يصفون ما يلقون في مكة والمدينة جملة وتفصيلاً. فالمساجد والمواكب وترتيب الحج والعمرة وما اليهما كلها موضحة مبينة. وعندنا منها الكثير الكثير. ولننتقل الساعة الى ابن جبير، رحالة القرن السادس (الثاني عشر) الذي أفرد جزءاً كبيراً من رحلته لمكة والمدينة، ولننقل عنه بعض ما يذكر. قال ابن جبير.

«ومن أغرب ما الفيناه فاستمتعنا باكله واجرينا الحديث باستطابته الرطب، وهو عندهم بمنزلة التين الأخضر في شجره. يجنى ويؤكل وهو في نهاية من الطيب واللذاذة. لا يسأم التفكه به، وإبّانه عندهم عظيم يخرج الناس اليه كخروجهم إلى الضيعة او كخروج أهل المغرب لقراهم ايام نضج التين والعنب. ثم بعد ذلك عند تناهي نضجه يبسط على الأرض قدر ما يجف قليلاً ثم يركم بعضه على بعض في السلال والظروف ويرفع ...

«وكانوا ايضاً يتحدثون بكثرة نعمها في هذا العام ولين سعرها وانها خارقة للعوائد السالفة عندهم. كان سَوْمُ الحنطة اربعة أصواع بدينار مؤمني، وهي أوْبتان من كيل مصر وجهاتها، والأوبتان قدحان ونصف قدح من الكيل المغربي. وهذا السعر في

بلد لا ضيعة فيه، ولا قوام معيشة لأهله الا بالميرة المجلوبة اليه، سعر لا خفاء بيمنه وبكرته، على كثرة المجاورين فيها في هذا العام وانجلاب الناس اليها وترادفهم عليها. فحدثنا غير واحد من المجاورين الذين لهم بها سنون طائلة انهم لم يروا هذا الجمع بها قط ولا سمع بمثله فيها ... والله يجعله مرحوماً معصوماً بمنه ...

«ولأهل هذه الجهات المشرقية كلها سيرة حسنة، عند مستهل كل شهر من شهور العام، يتصافحون ويهنىء بعضهم بعضاً ويتغافرون ويدعو بعضهم لبعض كفعلهم في الاعياد، هكذا دائماً ...

«فأبصرنا من ذلك ما نصف بعضه على جهة الاختصار وذلك لأنا عاينا شوارع مكة وأزقتها من عصر يوم الاربعاء، وهي العشية التي ارتقب فيها الهلال، قد امتلأت هوادج مشدودة على الابل، مكسوة بأنواع كساء الحرير وغيرها من ثياب الكتان الرفيعة بحسب سعة أحوال أربابها ووفرهم، كل يتأنق ويحتفل بقدر استطاعته. فأخذوا في الخروج إلى التنعيم ميقات المعتمرين، فسالت تلك الهوادج في أباطح مكة وشعابها، والإبل قد زينت تحتها بأنواع التزيين، وأشعرت بغير هدى بقلائد براقة المنظر من الحرير وغيره، وربما فاضت الاستار التي على الهوادج حتى تسحب أذيالها في الأرض»[٦].

وقد نقل الينا ابن بطوطة، رحّالة القرن الثامن (الرابع عشر) غير منازع، صورة قلمية للصفا والمروة هي من ألطف ما كتب. قال ابن بطوطة:

«ومن باب الصفا الذي هو أحد أبواب المسجد الحرام إلى الصفا ست وسبعون خطوة، وسعة الصفا سبع عشرة خطوة، وله أربع عشرة درجة، علياهن كأنها مصطبة. وبين الصفا والمروة أربعمائة وثلاث وتسعون خطوة، منها من الصفا إلى الميل الأخضر ثلاث وتسعون خطوة، ومن الميل الأخضر إلى الميلين الأخضرين خمس وسبعون خطوة. وللمروة خمس درجات، وهي ذات قوس واحدة كبيرة. وسعة المروة سبع عشر خطوة. والميل الأخضر هو سارية خضراء مثبتة مع ركن الصومعة التي على الركن الشرقي مع الحرم، عن يسار الساعي إلى المروة. والميلان الأخضران هما ساريتان خضراوان ازاء باب عليّ من أبواب الحرم، احداهما في جدار الحرم عن يسار الخارج من الباب، والأخرى تقابلها. وبين الميل الأخضر والميلين الأخضرين يكون الرمل ذاهباً وعائداً. وبين الصفا والمروة مسيل فيه سوق عظيمة، يباع فيها الحبوب واللحم والتمر والسمن وسواها من الفواكه. والساعون بين الصفا والمروة لا يكادون يخلصون لازدحام الناس على حوانيت الباعة. وليس بمكة سوق منتظمة سوى هذه، الا البزازون والعطارون عند باب بني شيبة. وبين الصفا والمروة دار العباس (رضي الله عنه)، وهي الآن رباط يسكنه المجاورون عمره الملك الناصر (رحمه الله). وبنى أيضاً دار وضوء فيما بين الصفا والمروة سنة ثمان وعشرون، وجعل لها بابين أحدهما في السوق المذكور، والآخر في سوق العطارين، وعليها ربع يسكنه خدامها»[٧].

وقد ورد في كتاب شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام لقاضي القضاة تقي الدين الفاسي وصف لمكة في العصور المتأخرة، جاء فيه قوله:

«مكة المشرفة بلدة مستطيلة كبيرة تسع من الخلايق ما لا يحصيهم إلا الله عزّ وجلّ في بطن واد مقدس والجبال محدقة بها كالسور لها. ولها مع ذلك ثلاثة أسوار سور من أعلاها ويعرف بسور باب المعلاة وفيه بابان أحدهما لا باب له ويكون في الغالب مسدوداً، وسوران في أسفلها أحدهما يعرف بسور باب الشبيكة وفيه باب كبير وخوخة صغيرة لا باب لها. والسور الآخر يعرف بسور باب الماجن ويعرف أيضاً بسور باب اليمن لأنه على طريق البرّ الى اليمن».

وعرفت مكة المدارس الكثيرة، كما عرفت العلماء المجاورين. وكم كان لهؤلاء أثر في الحياة العلمية في الحجاز وخارجه، إذ كان يقبل عليهم طلاب العلم من أنحاء العالم الإسلامي.

وقد نقل مؤرخ متأخر ان مكة كان فيها إحدى عشرة مدرسة كبرى منها مدرسة الملك الممدوح «جميل الصفات مغيث أهل الحرمين الشريفين جزيل الصلات مولانا السلطان الملك المنصور غياث الدين أبي المظفر أعظم شاه بن السلطان السعيد الشهيد اسكندر شاه بن السلطان شمس الدين المغفور صاحب بنجالة بلّغه الله آماله وهي على الفقهاء من أصحاب المذاهب الأربعة. فكان المتولّي لشراء عرصتها وعمارتها ووقفها من يديه لذلك وغيره من مصالحها التي تذكر، وفوّض إليه فيه النظر، خادمه المكين وثقته الأمين الجانب العالي الافتخاري ياقوت السلطاني الغياثي لا زالت الخيرات على يديه جارية والنّعم عليه متواليه. وكان الشراء لعرصتها ولنخيل وسقية توقف عليها باثني عشر ألف مثقال في أول شهر رمضان من سنة ثلاث عشرة وثمانمائة (١٤١١) ثم أعيد عقد البيع على ذلك في شهر شوال من السنة المذكورة لموجب اقتضاء الحال. وفي شهر رمضان المذكور ابتدى في هدم ما كان في موضعها من الأبنية وفيه ايضاً ابتدى في بنائها وفرغ من ذلك في آخر صفر سنة اربع عشرة وثمانمائة (١٤١١). وفي شهر ربيع من هذه السنة وجمادى الأولى فيها بيّض باطنها والصهريج الذي في جوفها وغالب ظاهرها وعمل فيها أيضاً كثير مما يطلب عمله في العمايز، وأحكمت فيها العمارة فاستحسنها ذوو البصاير. وكان وقفها في سابع عشر المحرم سنة اربع عشرة بعد الفراغ من عمارة سفلها وغالب علوّها. وقرروا فقهاء اربعة من المدرسين وهم قضاة مكة الاربعة يومئذ وستين نفراً من المتفقّهين، عشرين من الشافعية وعشرين من الحنفية وعشرة من المالكية وعشرة من الحنابلة. وجعل الإيوان الشرقي منها محل تدريس الشافعية والحنفية والايوان الغربي محل تدريس المالكية والحنابلة. وجعل الواقف المنازل التي تعلوها وفي إحدى عشرة خلوة محلاً

لسكنا جماعة من الفقراء خلا واحدة منها فإنه جعلها خاصاً للمدرسة المذكورة. وكان ابتداء التدريس فيها في يوم السبت سابع جمادى الآخرة سنة اربع عشرة وثمانماية (١٤١١) على الحالة التي قد قررت حين الوقف في تعيين أوقات التدريس بها في أيام الاسبوع. فكان تدريس الشافعي ضحوة يوم الاثنين وكان تدريس الحنفي في ضحوة يوم الأحد وضحوة يوم الاربعاء وضحوة يوم الخميس وكان تدريس المالكي فيما بين الظهر والعصر يوم السبت والأحد والاثنين وباشرت ذلك من حين ابتدائه، وكان تدريس الحنبلي فيما بين الظهر والعصر من يوم الاربعاء والخميس. ووقف الواقف المقدم ذكره على المدرسين والفقهاء والسكان بالمدرسة المذكورة وعلى مصالحها ما اشتراه لذلك وذلك حديقتان وسقية ماء فأما الحديقتان فتعرف إحداهما بسلمة والأخرى بالحلّ وهما بالضيعة المعروفة بالرّكاني بوادي مرّ من أعمال مكة المشرفة، وأما سقية الماء فهي أربع وجاب من قرار عين الضيعة المذكورة وجبتان منها تعرفان بحسن منصور ليله ونهاره والوجبتان الأخيرتان تعرفان بحسن يحيى ليله ونهاره. وجعل الواقف المذكور الريع المتحصّل من ذلك في كل سنة يقسم خمسة أقسام: قسم للمدرسين الاربعة بالسويّة بينهم؛ وثلاثة أقسام للطلبة بالسوية بينهم؛ وقسم منه يقسم ثلاثة أقسام، قسم منه يصرف في مصالح المدرسة المذكورة من الزيت والماء وغير ذلك، والقسمان الآخران من هذا القسم يصرفان للسكان بالمدرسة المذكورة بالسوية بينهم».

ونالت مكة بيمارستانها، شأنها في ذلك شأن غيرها من المدن الاسلامية. ومن المعروف من اوقافها «البيمارستان المستنصري العباسي بالجانب الشمالي من المسجد الحرام وتاريخ وقفه سنة ثمان وعشرين وستماية (١٢٣١) وعمّره في عصرنا الشريف حسن بن عجلان صاحب مكة عمارته التي هو عليها الآن، وزاد فيه على ما كان عليه اولاً ايوانين: احدهما في جهته الشامية والآخر في جهته الغربية. واحدث فيه صهريجاً ورواقاً فوق الايوانين اللذين احدثهما وفوق الايوان الشرقي الذي كان فيه من قبل وجدّد هو عمارته وفوق الموضع الذي فيه الشبّاكان المشرفان على المسجد الحرام. وأدخل فيه البير التي كانت يستقا منها للميضاة. ووقف جميع ما بناه وما يستحق منافعه في الموضع المذكور المدة التي يستحقها على الضعفاء والمجانين».

وقد وصف ابن ظهيرة المتأخر زمناً ما في المسجد الحرام من القبب قال:

«فيه الآن قبتان كبيرتان متقاربتان جداً الى جانب بير زمزم من جهة الشرق احداهما، وهي التي تلي زمزم، معدة لمصالح المسجد كالمصاحف والربعات الموقوفة وحفظ الفوانيس والشمع والشمعدانات النحاس والكراسي الخشب التي ترفع عليها الرباع وما أشبه ذلك من الأشياء الموقوفة لمصالح المسجد الحرام. والقبة الثانية هي سقاية العباس وخلفها محل لطيف مسقوف فيه آلات الوقادة كالعيدان التي تنزل بها

القناديل ويسرج بها وكالقصب المجوف الذي تطفىء به المصابيح، وبعض الشيء من الزيت الذي يحتاج لوقيد الشهر، وبعض شيء من القناديل الزجاج والحراريق»[٨].

وزوار مكة على العموم معجبون بأهل البلد الحرام، كثيرو التحدث عن فضائلهم. وهذا ابن بطوطة يقول في ذلك:

«ولأهل مكة الأفعال الجميلة، والمكارم التامة، والأخلاق الحسنة، والايثار للضعفاء والمنقطعين، وحسن الجوار للغرباء. ومن مكارمهم أنهم متى صنع أحدهم وليمة يبدأ فيها باطعام الفقراء المنقطعين المجاورين، ويستدعيهم بلطف ورفق وحسن خلق، ثم يطعمهم. وأكثر المساكين المنقطعين يكونون بالأفران حيث يطبخ الناس أخبازهم، فاذا طبخ أحدهم خبزه واحتمله الى منزله يتبعه المساكين، فيعطي كل واحد منهم ما قسم له ولا يردهم خائبين، ولو كانت له خبزة واحدة، فانه يعطي ثلثها أو نصفها، طيّب النفس بذلك من غير ضجر. ومن أفعالهم الحسنة أن الايتام الصغار يقعدون بالسوق، ومع كل واحد منهم قفتان: كبرى وصغرى، وهم يسمون القفة مكتلاً، فيأتي الرجل من أهل مكة الى السوق، فيشتري الحبوب واللحم والخضر، ويعطي ذلك الصبي، فيجعل الحبوب في احدى قفتيه، واللحم والخضر في الاخرى، ويوصل ذلك الى دار الرجل ليهيأ له طعامه منها، ويذهب الرجل الى طوافه وحاجته، فلا يذكر ان أحداً من الصبيان خان الأمانة في ذلك قط، بل يؤدي ما حمل على أتم الوجوه. ولهم على ذلك أجرة معلومة من فلوس. وأهل مكة لهم ظرف ونظافة في الملابس. وأكثر لباسهم البياض، فترى ثيابهم أبداً ناصعة ساطعة، ويستعملون الطيب كثيراً، ويكتحلون، ويكثرون السواك بعيدان الأراك الاخضر. ونساء مكة فائقات الحسن، بارعات الجمال، ذوات صلاح وعفاف. وهن يكثرن التطيب، حتى إن احداهن لتبيت طاوية وتشتري بقوتها طيباً. وهن يقصدن الطواف بالبيت في كل ليلة جمعة، فيأتين في أحسن زي، وتغلب على الحرم رائحة طيبهن، وتذهب المرأة منهن فيبقى أثر الطيب بعد ذهابها عبقاً»[٩].

ثمة أبيات من قصيدة طويلة لشوقي، حرّية بأن نشرك القراء بها، لمناسبة الحديث عن مكة المكرمة. قال:

أشرق النور في العوالم لما ... بشرتها بأحمد الانبياء
باليتيم الأمي والبشر المو ... حى اليه العلوم والأسماء
قوة الله ان تولت ضعيفاً ... تعبت في مراسه الأقوياء
أشرف المرسلين، آيته النطق ... مبينا، وقومه الفصحاء
لم يفه بالنوافع الغرّ حتى ... سبق الخلق نحوه البلغاء
وأتته العقول منقادة اللب ... ولبّى الأعوان والنصراء
جاء للناس، والسرائر فوضى ... لم يؤلف شتاتهن لواء

وحمى الله مستباح وشرع الله والحق والصواب وراء
فلجبرئيل جيئة ورواح وهبوط إلى الثرى وارتقاء
يحسب الأفق في جناحيه نور سلبته النجوم والجوزاء.

الهوامش

(١) ابن جبير: الرحلة، ليدن، بريل، ١٩٠٧، ص ٥٨.
(٢) المقدسي، ص ٧١.
(٣) ياقوت الحموي، ج ٥، ص ١٨٥.
(٤) نفس المكان، ج ٥، ص ١٨٣.
(٥) جبور، جبرائيل: عمر بن أبي ربيعة، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٣٥، ج ١، ص ١٣٨-١٣٩.
(٦) ابن جبير، ص ٩٩-١٠٧.
(٧) ابن بطوطة: مهذب رحلة ابن بطوطة، القاهرة، ١٩٣٤، ص ١١٣.
(٨) تواريخ مكة، الجزء الثاني من صفحة ١٠٥ إلى صفحة ١٠٧.
(٩) ابن بطوطة، الجزء الاول ص ٣٤٤ إلى ٣٤٧.

١٤ـ المَدينَة المُنوَّرة

لما خرج النبي من مكة المكرمة مهاجراً قال، فيما روي عن أبي هريرة «اللهم إنك قد اخرجتني من احب ارضك الي فانزلني احب أرض اليك»، فأنزله المدينة. فلما نَزلها قال «اللهم اجعل لنا بها قراراً ورزقاً واسعاً». وما كان الله يخيب للنبي طلبة. واذا لم تكن للمدينة الا القليل من التاريخ قبل ذلك، فقد أصبح لها تاريخ ضخم بعد أن هاجر اليها الرسول. فقد أصبحت مهبط ما تبقى من الوحي، وصارت عاصمة الإسلام ومقر خلفاء رسول الله عقوداً بعده. واليها شدت الرحال حجاً وزيارة وتعلماً وتبركاً. فليس غريباً، والحالة هذه، أن يقال فيها «ومن خصائص المدينة انها طيبة الريح وللعطر فيها فضل رائحة لا توجد في غيرها»[١].

ولعلّ أول ما اقيم في المدينة بعد هجرة النبي اليها مسجد رسول الله. وقد روى صاحب مسالك الابصار قصة بنائه وتوسيعه، قال:

المسجد النبوي «هو موضع منبره وجوار مقبره ومقام مصلاه ودار آخرته واولاه. قدم رسول الله فنزل في علو المدينة ... فاقام أربع عشرة ليلة ... وكان يصلي حيث ادركته الصلاة، ثم انه أمر ببناء المسجد فأرسل الى ملأ بني النجار فجاءوا فقال: يا بني النجار، ثامنوني بحائطكم هذا. فقالوا: لا والله. ما نطلب ثمنه الا الى الله تعالى. وكان في المكان نخل وقبور المشركين وخرب. فأمر النبي بالنخل فقطع وبقبور المشركين فنبشت وبالخرب فسويت، وصفوا النخل قبلة وجعلوا عضادتيه حجارة، وجدرانه من اللبن وكانوا يرتجزون ورسول الله معهم وهم يقولون:

اللهم انه لا خير الا خير الآخرة فانصر الانصار والمهاجره

وظل سقفه من الجريد. فلم يزد أبو بكر فيه شيئاً وزاد فيه عمر وبناه على بنيانه في عهد رسول الله باللبن والجريد وأعاد عمده خشباً. ثم غيره عثمان. فزاد فيه زيادة كبيرة وبنى جداره بالحجارة المنقوشة والقصة، وجعل عمده حجارة وسقفه بالساج. وجعل طوله مئة وستين ذراعاً وعرضه مئة وخمسين. ثم ان الوليد بن عبد الملك زاد فيه فجعل طوله مئتي ذراع وعرضه بين مئتين ومئة وثمانين»[٢].

ومع ان المدينة خسرت مكانتها كعاصمة سياسية فيما بعد، فقد ظل لها مقامها في نفوس المسلمين. وكيف يمكن ان تنقص منزلتها وفيها الروضة المباركة. وقد جاء

في المواهب اللدنية ان محمد بن حرب الهلالي أتى قبر النبي ﷺ فزاره وجلس بحذائه. فجاء اعرابي فزاره ثم قال: يا خير الرسل ان الله انزل عليك كتاباً صادقاً وقال فيه ولو انهم اذ ظلموا انفسهم جاؤك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيما. وقد جئتك مستغفراً من ذنبي مستشفعاً بك إلى ربي وانشأ يقول:

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه فطاب من طيبهن القاع والاكم
نفسي الفداء لقبر انت ساكنه فيه العفاف وفيه الجود والكرم»[٣].

وهذا ابن جبير يرحل وينتقل ويصل الحجاز لأداء الفريضة فإذا وصل المدينة غمرته سعادة كبرى. فيقول في ذلك «وفي عشي ذلك اليوم دخلنا الحرم المقدس، لزيارة الروضة المكرمة المطهرة، فوقفنا بإزائها مسلمين، ولترب جنباتها المقدسة مستلمين، وصلينا بالروضة التي بين القبر المقدس والمنبر، واستلمنا اعواد المنبر القديمة التي كانت موطىء الرسول ﷺ، والقطعة الباقية من الجذع الذي حن اليه ﷺ، وهي ملصقة في عمود قائم امام الروضة الصغيرة التي بين القبر والمنبر، وعن يمينك اذا استقبلت القبلة فيها. ثم صلينا صلاة المغرب مع الجماعة. وكان من الاتفاق السعيد لنا ان وجدنا بعض فسحة في تلك الحال، لاشتغال الناس باقامة مضاربهم، وترتيب رحالهم فتمكنا من الغرض المقصود، وفزنا بالمشهد المحمود، وأدينا حق السلام على الصاحبين الضجيعين: صديق الاسلام وفاروقه. وانصرفنا إلى رحالنا مسرورين، ولنعمة الله علينا شاكرين. ولم يبق لنا أمل من آمال وجهتنا المباركة ولا وطر الا وقد قضيناه، ولا غرض من أغراضنا المأمولة الا وبلغناه، وتفرغت الخواطر للاياب للوطن، نظم الله الشمل، وتمم علينا الفضل والحمد لله على ما اولاه واسداه، واعاده من جميل صنعه وابداه، فهو اهل الحمد والشكر ومستحقه لا الله سواه»[٤].

وعرفت المدينة جمعاً كبيراً ممن عني بالعلم والأدب في غير عصر من عصورها. وهي الى اليوم مركز من مراكز التعليم. فالمجاورون من أهل العلم وطلابه لم ينقطعوا عنها قط. وما أكثر ما وجد فيها طلابه رغبتهم ومعلموه راحتهم.

ولو اننا أردنا ان نشير الى وقت من الأوقات خاص أو عصر من العصور متميز، لاخترنا القرن الهجري الاول (السابع) وصدر الثاني (الثامن). فمع ان العاصمة نقلت الى دمشق، فإن الأدب والعلم اينعا في الحجاز ايضاً. وهذه جماعة مالك بن انس تفقه الناس واصدقاء عمر بن ابي ربيعة يشنفون آذانهم بالشعر العذب.

فمدرسة مالك بن انس في الفقه كانت ذات أثر كبير في تطور العلوم الاسلامية ويؤخذ من أقوال الرواة والباحثين ما يلي: إن مدرسة مالك هي مدرسة المدينة. فقد كان هو الطبقة الثالثة في رواية الحديث، الذي تحدر اليه من الصحابة وبينهم عمر وعثمان وعائشة عن طريق فقهاء المدينة السبعة ومنهم ابن مسعود وابن الزبير وابن

المسيب الى الزهيري وابن سعيد. ورجال هذه المدرسة عرفوا بالحديث والفقه فيه. وكانت المسائل التي تعرض لها فقهاء المدينة اقل عدداً مما عرض له فقهاء اقطار اخرى، بسبب ما كانت عليه الامور في المدينة من بساطة وابتعاد عن التعقيد، ولتحرج المدنيين في إبداء الرأي. وكان مالك يعمل بخبر الواحد اذا صح في رواية الحديث. وقد روي عنه انه قال: لقد أدركت سبعين ممن يقول قال رسول الله ﷺ عند هذه الاساطين، وأشار الى مسجد رسول الله، فما اخذت عنهم شيئاً، وان أحدهم لو اؤتمن على بيت مال لكان أميناً، إلا انهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن. وكانت له قاعدة أساسها، على رواية ابن عبد البر، لا يؤخذ العلم من أربعة ويؤخذ ممن سواهم: لا يؤخذ من سفيه، ولا يؤخذ من صاحب هوى يدعو الى بدعته، ولا من كذّاب يكذب في أحاديث الناس وان كان لا يتهم على حديث رسول الله ﷺ، ولا من شيخ له فضل وصلاح وعبادة اذا كان لا يعرف ما يحمل وما يحدث به»[٥].

وخلاصة القول إن الأصلين اللذين اعتمدهما مالك هما قول الصحابي وعمل أهل المدينة وهما الأمران اللذان صبغا مدرسته الفقهية بتضييق الرأي اذا قورنت بغيرها من مدارس الفقه المعاصرة. وقد خلّف لنا مالك كتاب «الموطأ» وفيه أحاديث جمعها من خمسة وتسعين رجلاً كلهم مدنيون إلا ستة، وما رواه عن الستة قليل. والموطأ كتاب فقه ايضاً. وهو من اوائل الكتب التي أُلفت في الحديث والفقه. ومن آثار مالك غير المباشرة «المدونة» التي جمع فيها اسد بن الفرات تلميذ مالك ستة وثلاثين الف مسئلة حملها معه الى العراق ثم الى القيروان، حيث اصبحت أساساً للعلماء المالكيين في المغرب.

والجماعة الاخرى التي طبعت المدينة وما اليها بطابعها هي جماعة عمر بن ابي ربيعة. وقد حظيت هذه الفترة من تاريخ الحجاز الأدبي بمؤرخ معاصر هو الدكتور جبرائيل جبور الذي تحدث عنها فقال: «ولعل هذا العصر كان عصر المدينة الذهبي الذي تغنت بامجاده الشعراء وقتئذ، من جمال في الرياض المحيطة بالمدينة، الى لين ودعة في العيش، الى غنى ومال عظيم، الى تساهل من قبل رجال الحكم. ولعلك التفت الى هذه النواحي الجديدة في حياة اهلها في ذلك العصر، من اتخاذ بعضهم غرفة خاصة، جعلها نادياً، يتردد الرجال اليها، فيها من الألعاب الوان كثيرة، ومن ضروب التسلية طائفة كبيرة. ومن ترددهم ايضاً الى حفلات الغناء، فقد كانت تعقد فيها، كما رأيت، حفلات كثيرة للغناء منها عامة ومنها خاصة، كان يلبس المغنون في بعضها، كما روي، لباساً خاصاً.

«ولقد كانت هذه المواسم الغنائية التي تعقد في المدينة مقصد الكثيرين من طلاب اللهو، لا سيما من اهل مكة. ولنا، في أخبار بعض شعراء مكة وشبابها من اهل المرح واللهو، ما يفيد أنهم كانوا يقدمون خصيصاً لحضور مثل هذه الحفلات الغنائية.

«وكـان صـاحـبنا عـمـر من اكـثـر الناس ترددا لـمـثل هذه الـحـفـلات، وهـو في المدينة[٦]، وعمـر بن ابي ربيعة أشـهر من أن يعرف، ومع ذلك فمقطوعة من شعره بعد توبته، اذ وخط الشيب رأسه، فيها متعة نحب ان ننقلها الى غيرنا. قال:

تقـــول وليــــدتي لمــــا رأتني ... طربت وكنت قــد اقــصــرت حــينا

أراك اليــوم قــد أحــدثت شــوقــاً ... وهـاج لـك الهـــــوى داء دفــــينـا

وكنت زعــــــمت انك ذو عـــــزاء ... إذا مـــا شــئت فــارقت القـــرينا

بـربـك هل أتـاك لـهـــــا رســـــول ... فـــســاقك أم لقــيت لهــا خــدينا

فــــقـلـت شـكـا إلـيّ أخ مـــــحـب ... كـــبـــعض زمـــاننا إذ تعلمـــينا

فـــــقصّ علـيّ مـــا يلقى بهـند ... فـــذكـــر بعض مـــا كنا نســـينا

وذو القـلب المـــصـــاب ولو تعــزى ... مــشــوق حــين يلقى العــاشـقــينا

وكم مـن خلـة أعــــرضـت عنهـــا ... لأجلـكـم وكـنـت بـهـــــا ضـنـيـنـا

أردت فــراقــهــا وصـــبــرت عنهــا ... ولـو جـنَّ الفـــؤاد بـهـــا جنونا[٧]

وممن زار المدينة العياشي المغربي الذي جاءها في القرن الحادي عشر (السابع عشر)، وأقام فيها شهوراً، ثم كتب في وصف اختباره ما يلي:

«كانت مدة إقامتنا بالمدينة المشرفة سبعة أشهر ونصف وكنا نسكن أولاً في محل نزولنا بجوار مشهد السيد اسماعيل وكان أفسح الأمكنة وأوسعها وأبعدها عن زحام الناس. به أخلية للوضوء وبئران وكان قيم المشهد احد أصحابنا المغاربة المجاورين وهو الذي أنزلنا به وكان يتولى اصباحه وكنسه وإغلاق أبوابه ويقبض ما يؤتى به من الصدقة إليه. ولاه ذلك مفتي المالكية بالمدينة صاحبنا الخطيب أحمد وأخوه الخطيب عبد الرحمن لأن ولاية المشهد لهما، فإذا اجتمع من الصدقات ما له بال دفع لهما حصة منه وانتفع بالباقي كما هو شأن سائر المشاهد بالمدينة بل بغيرها.

«وكنا مدة نزولنا به في أرغد عيش وألذه لا يزاحمنا فيه غيرنا لولا بعد من المسجد، فكنا إذا خرجنا لصلاة الظهر في أيام الحر تكاد الرمضاء تحرقنا إنما نتقي ببقايا الظلال ومبادي الفيء تحت الجدران ومع ذلك يلفحنا الحر لفحاً فلا نصل الى المسجد إلا بعد مشقة ولا كنا نحتسب في ذلك خطأنا، ونغتفر ذلك لما اغتبطنا به من السعة وجوار أهل البقيع. فنمر كل يوم مراراً على باب البقيع ونسلم على أهله وندعو. ومن طلع منا على سطح المشهد أشرف على البقيع كله وما والاه من الأجنة وحدائق النخل. ويكون جبل أحد الذي هو أحد جبال الجنة قبال وجهه. وما كان ينغص علينا فيه إلا كثرة النخاولة الى ذلك المحل ...

«وللنخاولة عادة في كل يوم الخميس غالباً. يأتون الى المشهد من أول النهار

ويطبخون هناك طعاماً كثيراً ويجتمعون رجالاً ونساء بأولادهم. وفي الغالب يأتون لختان أولادهم فإن من له ولد يريد ختانه لا يختتنه إلا في ذلك اليوم في ذلك المكان. وربما جاؤوا لغير ختان بل لمجرد زيارة واطعام طعام ولا يحضر معهم غيرهم وغالب ما يطبخون هناك الأرز والهريسة واللحم»[٨].

والعقيق، متنزه المدينة وملهاها ورد ذكره كثيراً على ألسنة الشعراء. فمن ذلك قول أعرابي:

أيا نخلتي بطن العقيق امانعي ... جنى النخل والتين انتظاري جناكما
لقد خفت أن تنعتاني بطائل، ... وأن تمنعاني مجتنى ما سواكما
لو أن أمير المؤمنين على الغنى ... يحدث عن ظليكما لاصطفاكما

زوجت أعرابية ممن يسكن عقيق المدينة وحملت الى نجد فقالت:

اذا الريح من نحو العقيق تنسمت ... تجدد لي شوق يضاعف من وجدي
إذا رحلوا بي نحو نجد وأهله ... فحسبي من الدينا رجوعي الى نجدي

وقد وصف ابن بطوطة مسجد رسول الله في المدينة بعبارة انيقة شيقة تليق بالمكان، قال:

«المسجد العظيم مستطيل، تحفّ به من جهاته الأربع بلاطات دائرة به، ووسطه صحن مفروش بالحصى والرمل. ويدور بالمسجد الشريف شارع مبلط بالحجر المنحوت. والروضة المقدسة، (صلوات الله وسلامه على ساكنها) في الجهة القبلية مما يلي الشرق من المسجد الكريم. وشكلها عجيب لا يتأتى تمثيله، وهي مدورة بالرخام البديع النحت الرائق النعت، قد علاها تضميخ المسك والطيب مع طول الأزمان. وفي الصفحة القبلية منها مسمار فضة، هو قبالة الوجه الكريم. وهنالك يقف الناس للسلام مستقبلين الوجه الكريم، مستدبرين القبلة، فيسلمون، وينصرفون يميناً الى وجه أبي بكر الصديق. ورأس أبي بكر (رضي الله عنه) عند قدمي رسول الله ﷺ. ثم ينصرفون الى عمر بن الخطاب. ورأس عمر عند كتفي أبي بكر (رضي الله عنهما). وفي الجوف من الروضة المقدسة (زادها الله طيباً)، حوض صغير مرخّم، في قبلته شكل محراب، يقال إنه كان بيت فاطمة بنت رسول الله (صلى الله عليه وسلم تسليماً)، ويقال أيضاً: هو قبرها والله أعلم»[٩].

الهوامش

(١) ياقوت، ج ٥، ص ٨٣.
(٢) ابن فضل الله العمري: مسالك الابصار، القاهرة، مطبعة دار الكتب، ١٩٢٤، ج ١، ص ١٢٣ـ١٢٥.

(٣) القسطلاني، شهاب الدين: المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، القاهرة، مطبعة مصطفى شاهين، ١٢٨١ هـ، ج ٢، ص ٥١٠.
(٤) ابن جبير، ص ١٦٧ـ١٦٨.
(٥) أمين، أحمد: فجر الاسلام، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٠، ص ١٧٥ـ١٧٦.
(٦) جبور: عمر بن ابي ربيعة، ج ١، ص ٩٤.
(٧) نفس المكان، ج ٢، ص ١٩٤.
(٨) بلاشير: منتخبات من آثار الجغرافيين في القرون الوسطى، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٣٢، ص ٣٧١ـ٣٧٣.
(٩) ابن بطوطة: مهذب رحلة ابن بطوطة (١٩٣٤)، ص ٩٠ـ٩١.

١٥ـ صَنعَاء

حدَّث الجغرافيون فقالوا: «إن اليمن منقسم إلى قسمين: سواحل وجبال، وإن الجبال غالبها للأشراف ... وهي جبال شامخة، ذات عيون دافقة، ومياه جارية على قرى متصلة، الواحدة إلى جانب الأخرى، وليس لواحدة تعلق بالأخرى، بل لكل واحدة اهل يرجع امرهم الى كبيرهم. لا يضمهم ملك ملك، ولا يجمعهم حكم سلطان. ولا تخلو قرية منها من أشجار وعروش ذوات فواكه اكثرها العنب واللوز. ولها زروع اكثرها الشعير. ولأهلها ماشية أعوزتها الزرائب، وضاقت بها الحظائر. واهلها أهل سلامة وخير وتمسك بالشريعة ووقوف معها يعضون على دينهم بالنواجذ، ويقرون كل من يمر بهم، ويضيفونه مدة مقامه حتى يفارقهم»[١].

وصنعاء مدينة حاكت القصص حولها تاجاً، وأحاطتها الأساطير بهالة. تسنمت الجبال الوعرة الجميلة، وتوسطت في قلبها سهلاً نضراً بديعاً. ما أكثر ما مر ذكرها لمناسبة ملكة سبا وتنقلها وزيارتها، وما أروع ما تحدثت عنها قصة الملك سيف بن ذي يزن. اطمأن ملوك اليمن الى حصانة صنعاء ومنعتها، فجعلوا منها عاصمة وحصناً، وقالت الاسطورة، والأسطورة تعبر وان كانت لا تحلل، وتفسر وان كانت لا تمنطق، قالت: «كان اسم صنعاء في القديم أزال، فلما وافتها الحبشة قالوا نعم نعم فسمي الجبل نعم اي انظر. فلما رأوا مدينتها وجدوها مبنية بالحجارة حصينة، فقالوا: هذه صنعة ومعناه حصينة، فسميت صنعاء بذلك»[٢].

قضى أمين الريحاني اثني عشر يوماً في المشقات والمتاعب في طريقه من عدن إلى صنعاء فلما وصلها نسي كل ذلك وقال: «اجل ان صنعاء في محاسنها لا تخيب للزائر أملاً. وكلما دنوت منها، وهو عكس الحقيقة في أكثر المدن، ازداد رونقها وازداد اعجابك بها. هي في مقامها الطبيعي فريدة عجيبة. فيها الهواء أعذب من الماء، والماء أصفى من السماء والسماء أجمل من حلم الشعراء. وفيها البرد، وقد علت تسعة آلاف قدم عن البحر، يستحيل لقربها من خط الاستواء دفئاً. وهي قائمة في قاع سنحان، تزينها من جهة الروضة وفيها البساتين والكروم، ومن جهة أخرى الحوطة وفيها السواقي والطواحين. ثم تحيط بها الجبال دون ان تقصر ارجاءها. أقربها اليها عصر وهو يظل المروج في الأصيل، ولقم الذي تجري منه المياه الى المدينة وتحمل الشمس من فوقه وميض الزجاج ـ تلغراف المرايا ـ الذي يوصل اوامر الإمام من قنة

إلى أخرى. وهذا عشار وفيه الرخام والمرمر. وذاك آنس في الجنوب وشعوان دونه شرقاً وفيهما معادن الطلق. وهناك رضراض وفيه معدن الفضة. وهنالك شبام شمالاً بغرب وفيه من الحجارة الكريمة الجزع والعقيق»[٣].

وصنعاء بلدة صنعت التاريخ. فقد كان لها في أيام سبأ وحمير شأن، وكان لبقليس البيعة التي بناها الأحباش، وقصور صنعاء دور، أي دور. ولعلّ من أيام العز التي شهدتها صنعاء وغيرها من بلاد اليمن ايام الفاطميين والأيوبيين. فالفاطميون كان لهم نحو اليمن اهتمام لأنها كانت معقلاً من معاقلهم. وما اكثر ما وصل الينا من كلام الذين زاروا اليمن وصنعاء. فمن ذلك قول عمارة بن أبي الحسن «ليس بجميع اليمن اكبر ولا اكثر مرافق واهلا من صنعاء، وهو بلد في خط الاستواء، وهي من الاعتدال من الهواء بحيث لا يتحول الانسان من مكان طول عمره صيفاً وشتاء، وتتقارب بها ساعات الشتاء والصيف وبها بناء عظيم قد خرب، وهو تل عظيم عال وقد عرف بغمدان» وقال معمر: «وطئت ارضين كثيرة شاماً وخراسان وعراقاً فما رأيت مدينة أطيب من صنعاء»[٤].

اما الهمداني فيقول: «صنعاء طيبة الهواء كثيرة الماء يقال إن اهلها يشتون مرتين ويصيفون مرتين وكذلك اهل فران ومأرب وعدن والشحر. واذا صارت الشمس الى أول الحمل صار الحر عندهم مفرطاً، فإذا صارت إلى أول السرطان وزالت عن سمت رؤوسهم ... شتوا، ثم تعود الشمس اليهم اذا صارت إلى أول الميزان فيصيفون ثانية ويشتد الحر عليهم. فاذا زالت الى الجنوب وصارت إلى الجدي شتوا ثانية، غير ان شتاهم قريب من صيفهم ... وكان لمدينة صنعاء تسعة ابواب، وكان لا يدخلها غريب الا بإذن، كانوا يجدون في كتبهم انها تخرب من رجل يدخل من باب لها يسمى باب حقل، فكانت عليه اجراس متى حركت سمع صوت الاجراس من الاماكن البعيدة. وكانت مرتبة صاحب الملك على ميل من بابها، وكان من دونه الى الباب حاجبان بين كل واحد الى صاحبه رمية سهم، وكانت له سلسلة من ذهب من عند الحاجب الى باب المدينة ممدودة وفيها اجراس. متى قدم على الملك شريف أو رسول أو بريد من بعض العمال حركت السلسلة فيعلم الملك بذلك فيرى رأيه»[٥].

ولأبي محمد اليزيدي مديح لصنعاء يفضلها فيه على غيرها يقول فيه:

«قلت ونفسي جم تأوهها ... تصبو الى اهلها واندهها:
سقياً لصنعاء لا أرى بلداً ... اوطنه المواطنون يشبهها
خفضاً ولیناً، ولا كبهجتها ... ارغد أرض عيشاً وارفهها
يعرف صنعاء من اقام بها ... اعذى بلاد عذا وانزهها
ما أنس لا أنسى ما فجعت به ... يوماً بنا ابلها تجهجهها
فصاح بالبين ساجع لغب، ... وجاهرت بالشمات امهها

ضعضع ركني فراق ناعمة ... في ناعمات تصان اوجهها
كأنها فضة ممموهة ... احسن تمويهها ممموهها
نفس بين الاحباب والهة، ... وشحط الافهام يولهها
نفى عزائي وهاج لي حزني ... والنفس طوع الهوى ينهنهها

ويروى ان يزيد بن عمرو بن الصعق قدم صنعاء ورأى أهلها وما فيها من العجائب، فلما انصرف قيل له: كيف رأيت صنعاء؟ قال:

ومن ير صنعاء الجنود وأهلها، ... وجنود حمير قاطنين وحميرا
يعلم بأن العيش قسم بينهم، ... حلبوا الصفاء فانهلوا ما كدرا
ويرى مقامات عليها بهجة ... يأرجن هنداً ومسكاً اذ فرا»[٦]

ولصاحب «الاعلاق النفيسة» وصف لصنعاء حري بالنقل. قال: «هي مدينة اليمن، ليس باليمن ولا بتهامة ولا بالحجاز مدينة اعظم منها ولا أكثر اهلاً وخيراً ولا أشرف اصلاً ولا اطيب طعاماً منها. وهي مدينة جبلية برية معتدلة الهواء يعدل طيب هوائها في جميع السنة هواء ربيعياً في السنة اذا اعتدلت وطابت. ويفرش الواحد في مكان فلا يحول من ذلك المكان لحر ولا برد سنين كثيرة. وتدرك عندهم الحنطة دفعتين والشعير والأرز ثلاث دفعات واربعاً، ومن ثمارهم وعنبهم ما يدرك في السنة دفعتين ايضاً. وهي مدينة كثيرة الأهل طيبة المنازل بعضها فوق بعض إلا انها مزوقة اكثرها بالجص والآجر والحجارة المهندمة، فمنها ما اساسها من الجص والآجر وسائرها حجارة مهندمة حسان، وبعض أرض بنائها الجص والآجر وبعضها بالجص. واكثر سطوحها مفروشة بالحصا لكثرة امطارها، ولأمطارها اوقات معلومة عندهم علامات لذلك لا يخطئون، ويمطرون في شهور الصيف شهراً واحداً ومن الخريف تمام اربعة اشهر ثم تنقطع الأمطار عندهم فلا يمطرون اصلاً الى مثل ذلك الوقت من العام الآخر. واكثر ابتداء مطرهم في الوقت الذي يمطرون فيه بعيد العصر وربما تكون السماء نقية ولا يرى للمطر علامة والناس تحث بعضهم بعضاً على الفراغ من اعمالهم حذراً من المطر فينشؤ السحاب مع فراغهم فيمطرون اكثره من وقت العصر الى وقت المغرب، فيجرف السيل جميع ما يكون فيها من القذى ويغسل تلك الكورة بأسرها ويجري ذلك الماء الى مزارعهم في مجار قد اتخذوها لهذا الأمر لا يتعطل معه شيء من هذه المياه»[٧].

ومناخ صنعاء مدحه الكتاب والزوار. فهذا الهمداني، من اهل القرن الرابع (العاشر)، يقول: «فاما طباع صنعاء فصحيح على ان الغالب عليها البرد ولصحتها يلبس الانسان بها في الشتاء عند جمود الماء لباس الخز والكتان والرقائق فلا يدخلها البرد لأنه برد يابس ... ويلبس الانسان الصوف والمبطنات ودواويج الثعالب في صيفها فلا تؤذيه ... ولا يتحول الانسان الشتاء والصيف من مكانه، فاذا اشتد بها

الصيف وحر فدخل الرجل يقيل على فراشه لم يكن له بد من ان يتدثّر لأن بيوتها في الصيف باردة لأجل قصّة الخير المسيّع بها بواطن البيوت، فيدخل في المخدع على فراشه ويطبق عليه الباب ويسبل السترين والسجف، فلا يتغير ضياء البيت لأجل الرخام الذي يكون في الجدران والسقف. بل اذا كان في السقف رخامة صافية نظر عوم الطائر بظله عليها اذا حاذاها، وتؤدي الرخامة لمعان الشمس الى القصة فنتقبلها بجوهرها وبريقها»[٨].

وقد قيل إنه إذا طبخ اللحم بالخل وأنزل القدر شهراً وشهرين وجيء بعد ذلك كان اللحم لم يفسد. وقد نقل الهمداني أن «ابراهيم بن الصّلت طبخ قدراً له وكان عزباً. فلما كملت وكلت نارها عزم على الغداء فهو كذلك حتى أتاه رسول أبي يعفر ابراهيم بن محمد بن يعفر، فاتبعه من ساعته الى شبام. فلما وصله أمره بالمضي الى مكة وكان أحد الطرادين وأمر له بناقة وزاد، ودفع إليه كتباً يوصلها بوالي مكة. فمضى الى مكة وأقام حتى خرج جوابه وعاد الى شبام، فأوصل جوابه ثم صرف الى منزله. قال: دخلت وانا جائع، فنظرت الى القدر على الأثافي، والى ذلك الخبز قد يبس في منديله. قال: فكسرت من الخبز شيئاً في قصعة وأحررت ذلك القدر ونكبته على ذلك الخبز حتى تشرّبه فكان كقدر أسخنته يوم ثالث، وذلك بعد شهر وكسر»[٩].

وقد نقل رواة الأدب والشعر وصفاً شعرياً طريفاً لمسافة أربعة وعشرين يوماً من جزيرة العرب وضعه أحمد بن عيسى الرداعي. ذلك ان هذا الرجل خرج من بلدة رداع باليمن الى مكة على محجة صنعاء في أرض نجد العليا، فوصف البلاد الى مكة، وقد سميت قصيدته أرجوزة الحج. وكان المقطع الأول فيها:

أول مـــا أبدأ من مـــقـــالي ... بالحـــمـــد للمنعم ذي الجـــلال
والـمـن والآلاء والأفـــضـــال ... والملك والجـد الرفـيع العـالي
عـــد خليلي كم مـــضت ليـــال ... من شـهـر ذي القـعـدة مع شـوال
ثم أنم بالكور على شـــمـــلال ... عـــيـــدية او قـطـم ذيّـال
قـــد دق منه مـــوضع الحـــبـــال ... ثمت ناد القـــوم بارتحـــال»[١٠].

فلما وصل الرداعي الى صنعاء قال يصفها:

فـهي يقـول العلم غـيـر الشك ... مـــخـــتـــدم العلم ودار الملك
وعـصـمـة المـأزول حـتى الدّك ... أمـا ومـجـرى مـاخـرات الفلك
أليـة مـا شـبـتـهـا بالافك ... لقـد علت صنعـاء دار الشـرك
في الدهر عن عـز مـعـين مـشكي ... وأصـبـحت مـعـدن أهل النسك
سـقـيـا لصنعـاء بجـود حـشك ... وأردفت عـزا رفـيع السـمّك»[١١].

ويبدو أن أهل صنعاء كانوا يتمتعون بالخير وينعمون به شأن الكثيرين من سكان

اليمن. فقد قال في ذلك ابن رسته: «وفي كل منزل من منازلهم بئر يستقى منها للشرب. ويفضل ماء الآبار على مياه العيون الجارية عندهم، ووصف فقيه منهم انه وزن ماء من آبارهم قليلاً مع مثله من ماء دجلة فوجد ماء البئر أخف من ماء دجلة. وبقرب كل مسجد من مساجدهم إلا القليل منها سقاية فيها ماء للسبيل ومغتسل ومتوضى، كل مصهرج ... وطعامهم البر النقي والعَلَس وهو شبيه بالحنطة ... فيقشر من قشرته ويطحن ويخبز فيوجد طعمه أطيب من طعم خبز الحنطة. وعندهم فواكه سرية مثل أنواع التفاح والبرقوق وهو المشمش والفرسك أنواع وهو الخوخ ومن أنواع الاجاص ما ليس بخراسان، والكمثرى أنواع كثيرة. وعندهم على ما زعموا قريب من سبعين لون عنب وعندهم النخيل في قراها دون قصبتها، والموز عندهم كثير في كل موضع يدرك الموز عندهم في كل أربعين يوماً يقطع ثمرته ولا ينقطع القطاف عنهم أبداً، وعندهم باقلي رطب وقصب سكر وجوز ولوز وفستق ورمان وتين وسفرجل وبطيخ حسن غير طيب يؤكل مع السكر، والقثاء وأنواع الخضر، والأترج عندهم كثير كُبَّار حلو الطعم. وألوان الرياحين والورد والياسمين والنرجس والسوسن ... ويفضلون لحم البقر على لحم الضأن السمين يشترى جميع ذلك بسعر واحد. ومن عندهم يجلب الادم والنعال المشعرة والانطاع والبرود المرتفعة والمصمت والأردية، يبلغ الثوب من البرد عندهم خمس مائة دينار، وألوان الفصوص والأواني بقرانية وسعوانية والجزع، وأنواع الخرز، يبلغ الفص من البقراني مائة دينار وأكثر. ولهم سوق على حدة لا يباع فيها إلا المزامير قد شدوها حزماً ونضدوها في حوانيتهم، ولهم خانات كثيرة ومحال فيها خلق كثير يعملون أواني الجزع وأنواع الخرز»[١٢].

وقد خلّف لنا ابن بطوطة، شيخ الرحالة المسلمين انطباعه عن زيارته لصنعاء في القرن الثامن (الرابع عشر) قال: «وانصرفت مسافراً الى مدينة صنعاء، وهي قاعدة بلاد اليمن الاولى. مدينة كبيرة حسنة العمارة بناؤها بالآجر والجص، كثيرة الأشجار والفواكه والزرع، معتدلة الهواء طيبة الماء. ومن الغريب أن المطر ببلاد الهند واليمن والحبشة إنما ينزل في أيام القيظ، وأكثر ما يكون نزوله بعد الظهر من كل يوم في ذلك الأوان، فالمسافرون يستعجلون عند الزوال لئلا يصيبهم المطر، وأهل المدينة ينصرفون الى منازلهم لأن أمطارها وابلة متدفقة. ومدينة صنعاء مفروشة كلها، فإذا نزل المطر غسل جميع أزقتها وأنقاها. وجامع صنعاء من أحسن الجوامع»[١٣].

الهوامش

(١) ابن فضل الله العمري: مسالك الابصار، مخطوطة طبقبو سراي، ورقة ٢/٤٧٤.

(٢) ياقوت، ج ٣، ص ٤٢٦.
(٣) الريحاني، أمين: ملوك العرب، بيروت، صادر، ١٩٥١، ج ١، ص ١٢١.
(٤) ياقوت، ج ٣، ص ٤٢٦.
(٥) نفس المكان، ج ٣، ص ٤٢٦.
(٦) نفس المكان، ج ٣، ص ٤٢٦ـ٤٢٧.
(٧) ابن رسته، ابو علي أحمد: الاعلاق النفيسة، ليدن، بريل، ١٨٩١، ص ١٠٩ـ١١٠.
(٨) الهمداني: صفة جزيرة العرب، القاهرة، مطبعة السعادة، ١٩٥٣، ص ١٩٥ـ١٩٦.
(٩) نفس المكان، ص ١٩٧.
(١٠) نفس المكان، ص ٢٣٦.
(١١) نفس المكان، ص ٢٤١.
(١٢) ابن رسته، ١١١ـ١١٢.
(١٣) ابن بطوطة، ابو عبد الله: تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار، باريس، المطبعة الوطنية، ١٨٧٧، ج ٢، ص ١٧٦ـ١٧٧.

١٦ ـ عُكَاظ

تردد اسم عكاظ كثيراً وعلق به الناس، وزاره فيمن زاره خير الدين الزركلي، فقال يحدده، هو «على مرحلتين من مكة للذاهب إلى الطائف في طريق السيل، يميل قاصد عكاظ نحو اليمين، فيسير نحو نصف الساعة فإذا هو امام نهر في باحة واسعة الجوانب يسمونها القانس (بالكاف المعقودة) وهي موضع سوق عكاظ ... وهذه الباحة هي مجتمع الطرق إلى اليمن والعراق ومكة، وهي مرتفعة تشرف على جبال اليمن ... والواقف فيها يرى على مقربة منه موضعين احدهما يسمى الدمة ... والآخر البهيتة ... وعكاظ هو الفاصل بين الدمة والوادي الموصل إلى الطريق التي يمر بها سالكو درب السيل»[١].

كانت عكاظ سوقاً للعرب في الجاهلية، واستمرت حتى سنة ١٢٩ [٧٤٧]، ثم هجرت ايام ظهور الحرورية. وفي هذه الفترة التي قصد العرب عكاظ يتسوقون ويتنافرون كانت السوق معرضاً عاماً. وما أصدق قول سعيد الأفغاني فيها، كانت معرضاً عاماً «بكل ما لهذه الكلمة من معنى. فهي مجمع ادبي لغوي رسمي، له محكمون تضرب عليهم القباب، فيعرض شعراء كل قبيلة عليهم شعرهم وأدبهم، فما استجادوه فهو الجيّد، وما بهرجوه فهو الزائف. وحول هذه القباب الرواة والشعراء من عامة الأقطار العربية، فما ينطق الحكم بحكمه حتى يتناقل أولئك الرواة القصيدة الفائزة فتسير في أغوار الجزيرة وأنجادها، وتلهج بها الألسن في البوادي والحواضر. يحمل إلى هذه السوق التهامي والحجازي والنجدي والعراقي واليمامي واليمني والعماني، كل ألفاظ حيه ولغة قطره، فما تزال عكاظ بهذه اللهجات نخلاً واصطفاء حتى يتبقى الأنسب الأرشق ويطرح المجفو الثقيل.

«وهو السوق التجارية الكبرى لعامة أهل الجزيرة، يحمل اليها من كل بلد تجارته وصناعته كما يحمل اليها أدبه، فاليها يجلب الخمر من هجر والعراق وغزة وبصرى، والسمن من البوادي، ويرد اليها من اليمن البرود الموشاة والأدم، وفيها الغالية وأنواع الطيب وأدوات السلاح»[٢].

نقل الجغرافيون عن عكاظ انها «نخل في واد بين مكة والطائف على مرحلتين من مكة ومرحلة من الطائف، وموقعها جنوب مكة الى الشرق». هذا زبدة ما يستخلص

من تعاريفهم المتضاربة في عكاظ، تقوم السوق في مكان منه يعرف بالاثيداء فيه مياه ونخل، وهو مستو لا علم فيه ولا جبل إلا ما كان من الأنصاب التي كانت لأهل الجاهلية، وبها من دماء البدن كالأرحاء العظام. كانوا يطوفون حول صخور فيها، وربما كان ذلك شعيرة من شعائرهم فقد ذكروا أنهم كانوا يحجون إليها»[٣].

وكان القوم يجتمعون في عكاظ في شوال ولكن السوق كانت تعقد في ذي القعدة فتستمر هناك عشرين يوماً ثم ينتقل الناس الى مجنة أياماً ثم الى ذي المجاز قرب عرفة ويظلون هناك الى يوم التروية فيبدأ الحج.

يقول المرزوقي عن عكاظ «كان في عكاظ أشياء ليست في أسواق العرب: كان الملك من ملوك اليمن يبعث بالسيف الجيّد، والحلة الحسنة، والمركوب الفاره، فيقف بها وينادى عليه: «ليأخذه أعز العرب» يريد بذلك معرفة الشريف والسيد فيأمره بالوفادة عليه ويحسن صلته وجائزته»[٤].

وقد نقل الاستاذ سعيد الافغاني في كتابه أسواق العرب عن ابن الجوزي في مثير العزم الساكن عن عكاظ رواية لطيفة قال: «وكان كسرى يبعث في ذلك الزمان بالسيف القاطع والفرس الرائع والحلة الفاخرة فتعرض في تلك السوق وينادي مناديه: «ان هذا بعثه الملك الى سيد العرب» فلا يأخذه إلا من أذعنت له العرب جميعاً بالسؤدد، فكان آخر من أخذه بعكاظ حرب بن أمية، وكان كسرى يريد بذلك معرفة ساداتهم، ليعتمد عليهم في امور العرب، فيكونوا عوناً له على اعزاز ملكه وحمايته من العرب..»[٥].

ويمكن القول إجمالاً إن ما وصلنا من أخبار عكاظ، وهو متفرق في بطون الاسفار، يعطينا صوراً ممتعة جداً للحياة العربية في فترة ما قبل الاسلام خاصة، وإن كان بعض هذه الصور ظل معبراً عن الحياة الى ما بعد قيام البعثة النبوية.

فمن تلك الصور ما روي عن الخنساء وهند بنت عتبة. فقد ذهبت الحروب بوالد الخنساء وأخويها صخر ومعاوية، فرثتهما وكانت تسوم هودجها لتلفت إليها الأنظار في عكاظ. فلما فقدت هند أباها وعمها وأخاها، عظمت مصيبتها فسومت هي الأخرى هودجها براية وشهدت الموسم بعكاظ وجعلت تندب قتلاها. وتذهب الرواية في تفصيل الخبر فتقول:

ندبت هند أخاها بقولها:

من حس لي الأخوين كالـ ـغصنين أو من رآهما

قرمان لا يتظالمان ن ولا يرام حماهما

ويلي على أبوي والـ ـقبر الذي واراهما

لا مثل كهلي في الكهو ل ولا فتى كفتاهما ... الخ

وقالت: «اقرنوا جملي بجمل الخنساء» ففعلوا، فلما أن دنت منها قالت لها

الخنساء: «من أنت يا أخية»؟ قالت: «أنا هند بنت عتبة، أعظم العرب مصيبة، وقد بلغني أنك تعاظمين العرب بمصيبتك، فبم تعاظمينهم»؟

فقالت الخنساء: «بعمرو بن الشريد وصخر ومعاوية ابني عمرو، وبم تعاظمينهم انت»؟

قالت: «بأبي، عتبة بن ربيعة، وعمي شيبة بن ربيعة وأخي الوليد بن عتبة».

قالت الخنساء: «أو سواء هم عندك»؟! ثم أنشدت تقول:

أبكي أبي عمراً بعين غزيرة ... قليل إذا نام الخلي هجودها
وصنويّ لا أنسى معاوية الذي ... له من سراة الحرتين وفودها
وصخراً، ومن ذا مثل صخر إذا غدا ... بساهمه الآطال قبّا يقودها
فذلك يا هند الرزية فاعلمي ... ونيران حرب حين شب وقودها

فقالت هند تجيبها:

أبكي عميد الأبطحين كليهما ... وحاميهما من كل باغ يريدها
أبي عتبة الخيرات ويحك فاعلمي ... وشيبة والحامي الذمار وليدها
أولئك آل المجد من آل غالب ... وفي العز منها حين ينمى عديدها»

ينقل الاستاذ الافغاني صورة أخرى لما كان يجري في عكاظ فيقول: «كانت الفرسان اذا كانت أيام عكاظ في الشهر الحرام وأمن بعضهم بعضاً تقنّعوا كيلا يعرفوا، وكذلك كان حال الشرفاء، فانه لا يوافي عكاظ شريف الا على وجهه برقع، مخافة أن يؤسر يوماً فيكبر فداؤه، وكان طريف بن تميم العنبري من مشهوري شجعان العرب وفرسانهم، لا يتقنع كما كانوا يتقنعون.

«فوافى عكاظ يوماً وقد قتل رجلاً من بني شيبان. وتطوع منهم رجل للأخذ بثأره من طريف فقال لقومه: «أروني طريفاً». فأروه اياه، فجعل كلما مر به تأمله ونظر اليه فأمعن النظر. ففطن طريف فقال: «ما لك تنظر الي»؟ فقال: «أتوسمك لأعرفك، فلله عليّ ان لقيتك يوماً أن أقتلك».

فقال طريف في ذلك:

أو كلما وردت عكاظ قبيلة ... بعثوا اليّ عريفهم يتوسم
فتوسموني انني أنا ذلكم ... شاكي سلاحي وفي الحوادث معلم
تحتي الأغر، وفوق جلدي نثرة ... زغف ترد السيف وهو مثلم
حولي أسيد والهجيم ومازن ... واذا حللت فحول بيتي خضّم
ولكل بكري لدي عداوة ... وأبو ربيعة شانيء ومحلّم

فمضى لذلك ما شاء الله ثم ظفر الرجل بطريف في يوم من أيام العرب فقتله

ثأراً لقتيله»[٧].

ولا شك في أن من ألطف الاصوات التي رددتها عكاظ قبل الاسلام صوت قس ابن ساعدة الايادي، يوم اعتلى جملاً فخطب في الناس قائلاً:

«أيها الناس، اسمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، ليل داج ونهار ساج، وسماء ذات أبراج، ونجوم تزهر، وبحار تزخر، وجبال مرساة، وأرض مدحاة، وأنهار مجراة، ان في السماء لخبراً وان في الأرض لعبراً، ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون؟! أرضوا فأقاموا أم تركوا فناموا».

يقسم قس بالله قسماً لا اثم فيه: ان لله ديناً هو أرضى لكم وأفضل من دينكم الذي أنتم عليه، انكم لتأتون من الأمر منكراً:

في الذاهبين الاولين ... من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا ... للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها ... تمضي الأكابر والأصاغر
أيقنت أني لا محا ... لة حيث صار القوم صائر

هذه الصورة ظلت حية في نفس النبي اربعين سنة، وكان قد دعا الى الاسلام وقبله أهل بلاده، وقدمت على صاحب الرسالة وفود الاقطار. وكان منهم وفد من اياد قوم قس، وفدوا على رسول الله فسمع منهم وقال لهم: «ما فعل قس بن ساعدة؟»

قالوا: «مات يا رسول الله».

قال: «كأني أنظر اليه بسوق عكاظ على جمل له أورق وهو يتكلم بكلام عليه حلاوة، ما أجدني أحفظه».

فقال رجل من القوم: «أنا أحفظه يا رسول الله». فتلاه عليه فلما انتهى قال النبي:

«يرحم الله قساً، اني لأرجو أن يبعث يوم القيامة أمة وحده»[٨].

والصورة التي لا تبلى جدتها هي قصة الاعشى والمحلق وبناته. فقد قيل: «كان الاعشى يوافي سوق عكاظ في كل سنة. وكان المحلّق الكلابي مئناثاً مملقاً، فقالت له امرأته «يا أبا كلاب، ما يمنعك من التعرض لهذا الشاعر؟ فما رأيت أحداً اقتطعه الى نفسه الا وأكسبه خيراً».

قال: «ويحك، ما عندي الا ناقتي وعليها الحمل».

قالت: «الله يخلفها عليك».

قال: «فهل له بد من الشراب والمسوح»؟

قالت: «ان عندي ذخيرة لي ولعلي أن أجمعها».

مر الشاعر فتلقاه المحلق قبل أن يسبق اليه أحد، وابنه يقوده، فأخذ الخطام

فقال الأعشى: «من هذا الذي غلبنا على خطامنا» قال: «شريف كريم».

ثم سلمه اليه فأناخه فنحر له ناقته وكشط له عن سنامها وكبدها ثم سقاه، وأحاطت بناته به يغمزنه ويمسحنه، فقال: «ما هذه الجواري حولي»؟ قال المحلّق: «بنات أخيك وهن ثمان شريدتهن قليلة».

ثم خرج الأعشى من عنده ولم يقل فيه شيئاً.

فلما وافى المحلّق عكاظ، اذا هو بسرحة قد اجتمع الناس عليها واذا الأعشى ينشدهم قصيدته التي مطلعها:

أرقت وما هذا السهاد المؤرّق ... وما بي من سقم وما بي تعشّق
ولكن أراني لا أزال بحادث ... أغادي بما لم يمس عندي ويطرق

ومنها:

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة ... الى ضوء نار باليفاع تحرّق
تشب لمقرورين يصطليانها ... وبات على النار الندى و«المحلق»
رضيعي لبان ثدي أم تقاسما ... بأسحم داج: عوض لا نتفرق
ترى الجود يجري ظاهراً فوق وجهه ... كما زان متن الهندواني رونق
يداه يدا صدق: فكف مبيدة ... وكف اذا ما ضنّ بالمال تنفق

ومنها:

أبا مسمع سار الذي قد فعلتم ... فأنجد أقوام به ثم أعرقوا..

فما أتم الأعشى قصيدته الا والناس ينسلون الى المحلّق يهنئونه. ثم أتى المحلّق الأعشى فسلم عليه فقال الأعشى: «مرحباً بسيد قومه» ثم نادى: «يا معشر العرب هل منكم مذكار يزوج ابنه الى الشريف الكريم؟».

فتسابق الأشراف اليه جرياً، يخطبون بناته لمكان شعر الأعشى، فما قام من مقعده وفيهن مخطوبة الا وقد زوجها. ولم تمس واحدة منهن الا في عصمة رجل خير من أبيها وأفضل»[٩].

الهوامش

(١) الزركلي، خير الدين: ما رأيت وما سمعت، القاهرة، المطبعة العربية ١٩٢٣، ص ٧٩ـ٨٠.
(٢) الافغاني، سعيد: اسواق العرب، دمشق، دار الفكر، طبعة ثانية، ١٩٦٠، ص ٢٧٧ـ٢٧٨.
(٣) أسواق العرب: ص ٢٨٦ـ٢٨٨، وياقوت: معجم البلدان، ج ٤، ص ١٤٢.
(٤) المرزوقي، ابو علي أحمد: الازمنة والأمكنة، حيدر اباد، الدكن، ١٣٣٢ هـ، ج ٢، ص ١٦٥.

(٥) اسواق العرب، ص ٢٨١.
(٦) نفس المكان، ص ٢٩٨ـ٢٩٩.
(٧) نفس المكان، ص ٣٠٥ـ٣٠٧.
(٨) نفس المكان، ص ٣١٤ـ٣١٥.
(٩) نفس المكان، ص ٣١٦ـ٣١٨.

١٧ـ دِمَشق

انتزع الله من الصحراء رقعة، فدحا سطحها وكثّر أنهارها ونوّع أشجارها وفصل أزهارها وأخصب تربتها وميّز ربوتها فكان من ذلك دمشق وغوطتها. واهتدى الانسان إليها أول ما اهتدى الى قرار وماء معين، فتسلق التل حيث أقام معبداً يذكر فيه ربه بكرة وأصيلاً. وبنى مساكنه وأسواقه وأدار بها سوراً فضمن ماله وأرزاقه. وتبدل الانسان وتغيرت الاديان وتقلبت صروف الزمان، وظلت دمشق دمشق ترفع رأسها شكراً لله، وتجيل ناظريها فيما حباها الله، وتستمتع بنعمته وترجو ابتعاد نقمته.

وهذا ابن جبير يصل الى دمشق في أواخر القرن السادس (الثاني عشر)، فلا يكاد يدخلها حتى يهتف قائلاً: «دمشق جنة المشرق ومطلع حسنه المؤنق المشرق، وهي خاتمة بلاد الاسلام التي استقريناها وعروس المدن التي اجتليناها. قد حلت من موضوع الحسن بالمكان المكين، وتزينت في منعتها أجمل تزيين، وتشرفت بأن آوى الله تعالى المسيح وأمه صلى الله عليهما منها ربوة ذات قرار ومعين. ظل ظليل، وماء سلسبيل، تنساب مذانبه انسياب الأراقم بكل سبيل، ورياض يحيي النفوس نسيمها العليل. لناظريها بمجتلى صقيل وتناديهم: هلموا الى مُعرّس للحسن ومقيل. قد سئمت أرضها كثرة الماء حتى اشتاقت الى الظمأ فتكاد تناديك بها الصم الصلاب: أركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب. قد أحدقت البساتين بها إحداق الهالة بالقمر، واكتنفتها اكتناف الكمامة للزهر، وامتدت بشرقيها غوطتها الخضراء امتداد البصر. فكل موضع لحظته بجهاتها الأربع نضرته اليانعة قيد النظر، ولله صدق القائلين عنها: «ان كانت الجنة في الأرض فدمشق لا شك فيها، وان كانت في السماء فهي بحيث تسامتها وتحاذيها»[1].

ودمشق ذات التاريخ الطويل العريض، تستطيع ان تقدم لمجتلي طلعتها صفحات من المجد والفخار. فقد كانت دوماً للصناعات موئلاً وللعلماء منزلاً وللحكام محلاً. فبلد كان للغساسنة منجعاً وللأمويين عاصمة وللأيوبيين مركزاً وللمماليك مرجعاً، وبلد عرف الاخطل وصحبه واليبرودي وأترابه وابن تيمية ومعاصريه، حريٌّ بأن يتيه على غيره بهؤلاء وغيرهم.

وهذا حسان بن ثابت الانصاري شاعر الرسول الكريم، يشير الى أولاد جفنة إشارة فيها من المديح ما يستحقه الغساسنة فيقول فيهم:

لله در عصابة نادمتهم ... يوماً بجلّق في الزمان الأول
أولاد جفنة حول قبر أبيهم ... قبر ابن مارية الكريم المفضل
يغشون حتى ما تهر كلابهم ... لا يسألون عن السواد المقبل
يسقون من ورد البريص عليهم ... بردى يصفق بالرحيق السلسل
بيض الوجوه كريمة احسابهم ... شم الأنوف من الطراز الأول

ودار الزمن فإذا دمشق عاصمة هذه الدولة الطويلة العريضة، العربية الاسلامية، الممتدة من السند الى البرانيه، وإذا بالخلافة تعمرها، وإذا بجامعها الأموي يزينها. وقد ابتعدت الخلافة فيما بعد عن دمشق، فما انكمشت ولا توارت عن الأنظار، فقد كان لها دوماً من عزيمتها باعث ومن همة أهلها دافع، فسارت قدماً. فالمقدسي الذي عرفها في القرن الرابع (العاشر) يقول عنها: «دمشق هي مصر الشام ودار الملك أيام بني أمية، وثم قصورهم وآثارهم. بنيانهم خشب وطين وعليها حصن أحدث وأنا بها من طين. أكثر أسواقها مغطاة. ولهم سوق على طول البلد مكشوف حسن. وهو بلد قد خرقته الأنهار، وأحدقت به الأشجار، وكثرت به الثمار مع رخص أسعار، وثلج وأضداد. لا ترى أحسن من حمّاماتها، ولا أعجب من فوّاراتها، ولا أحزم من أهلها»[٢].

وقد لفت نمو دمشق واتساعها الأنظار، وأثار الخواطر والأفكار، فعملت القصة في تعليله وتزويقه وتجميله. فهذا أبو الخير العراقي يحكي قصة طريفة يقول: «كان في زمان معاوية بن أبي سفيان رجل صالح بدمشق وكان يقصده الخضر عليه السلام في أوقات للزيارة. فبلغ ذلك معاوية فجاء إليه وقال: بلغني أن الخضر يأتيك فأحب أن تجمع بيني وبينه، فقال له: نعم، فلما جاء الخضر عليه السلام على العادة قال له الرجل: ان معاوية سأل الاجتماع، فقال الخضر عليه السلام: لا سبيل الى ذلك، قال معاوية: قل له قد اجتمع على أفضل الخلق وحدّثه وجلس معه وهو سيد الأولين والآخرين ﷺ، ولكن سله عن ابتداء دمشق كيف كان، قال الرجل: فسألته، قال: صرت إليها فرأيت موضعها بحراً تستجمع فيه المياه ثم غبت عنها خمسمائة عام ثم صرت إليها فرأيتها قد ابتدىء فيها بالبناء ونفر يسير بها»[٣].

وقد عزا البعض بناء دمشق الى اليونان، وربطوا بين معرفة اليونان لحركات الكواكب وبناء دمشق فقالوا «واليونان هم الذين وضعوا الارصاد وتكلموا على حركات الكواكب واتصالاتها ومقارنتها بين هذين الجبلين، وصرفوا أنهاراً تجري الى الأماكن المرتفعة والمنخفضة وسلكوا الماء في أبنية الدور بها وبنوا هذا المعبد، وكانوا يصلّون إلى القطب الشمالي فكانت محاريبه تجاه الشمال»[٤].

في سنة ٥١٠ [١١١٦] زار الشريف الإدريسي دمشق ثم وصفها في نزهة المشتاق في اختراق الآفاق بقوله «... ومدينة دمشق جامعة لصنوف من المحاسن، وضروب من الصناعات، وأنواع من الثياب الحرير كالخزّ والديباج النفيس الثمين، العجيب الصنعة،

العديم المثال، الذي يحمل منها إلى كلّ بلد، ويتجهز بها منها الى كلّ الآفاق والأمصار المصاقبة لها والمتباعدة عنها. ومصانعها في كلّ ذلك عجيبة، يضاهي ديباجها بديع ديباج الروم، ويقارب ثياب تُسْتَر، وينافس أعمال أصبهان، ويسمو على أعمال طرز نيسابور من جليل ثياب الحرير المصمتة، وبدائع ثياب تنيّس. وقد احتوت طرزها على أفانين من الثياب النفيسة فلا يعادلها جنس ولا يقاومها مثال»[٥].

وقد جاء في كتاب لعبد المنعم الجيلاني، المعاصر لصلاح الدين الأيوبي، اسمه «منادح الممادح وروضة المآثر والمفاخر في خصائص الملك الناصر» ويسمى (المدبجات) وصف للشام جاء فيه: «وان مدينة جلق لمن أبدع ما خلق. جلّل ظاهرها الزاهران: الخصب والإيناس، وتخلل باطنها الطاهران: الذكر وَبانَاس: يطرد بالتنظيف ادرانها، ويبرد في المصيف بحرانها، ويسري عروقاً في أعضائها نابضة، ويمري بحوراً في أرجائها فائضة. كأنّ القنوات في أزقّتها أفواه تمجّ فضل ريقتها.. وإذا حللت جامعها المشيد، غبطت المخافت بذكر الله والمشيد. تبهر الاذن تلاوته، ويسحر الأذان طلاوته .. رقمته أيدي الهمم الأمويّة، وأرست قواعد بنيته الإرميّة .. وترى أشجار نضاره تحيّر أبصار نظاره، في فصوص تمنّتها الخواتم، وزهرت بها الليالي العواتم، وصوّرتها صنّاع الروم، صور البساتين والكروم. فلن ترى العين مثله نباتاً، أحسن زهرة وأمكن ثباتاً. لا يذوي نوّاره، ولا تنزوي أنواره. كلّ زمان له ربيع»[٦].

وقد وصف محاسن الشام بدر الدين حسن بن حبيب الحلبي في كتاب له سماه «تشنيف المسامع في وصف الجامع» قال: «وأما دمشق فإنها في وجنة الدنيا كالشامة، وزينة البلاد كريش الطاوس أو طوق الحمامة. وفي دائرة الأقطار كالنقطة المعلمة، وفي جيش الأمصار كالملك الذي ينطق بالحكمة. وفي قلادة الاقليم كالواسطة، وفي سماء الحلل كالشمس التي بدت أشعتها في الوجوه باسطة. وهي الربوة المباركة والغوطة التي جلت عن المماثلة والمشاركة. والمعدودة من جملة مدائن الجنة، والمأهولة بالأهلة من أرباب الكتاب والسنة، والمعروفة بارم ذات العماد، والموصوفة بلم يخلق مثلها في البلاد»[٧].

والجامع الأموي في دمشق مفخرة من مفاخر الفن المعماري في هذه الديار. ونحن ان استنطقنا التاريخ عن هذا حدثنا بخبر بناء هذا الجامع العظيم الذي تم في عهد الوليد بن عبد الملك. روى التاريخ قائلاً:

«واستعمل الوليد في هذا المسجد خلقاً كثيراً من الصناع والمهندسين والمرخمين. وكان المستحث على عمارته أخوه سليمان بن عبد الملك. ويقال ان الوليد بعث إلى ملك الروم يطلب منه صنّاعاً في الرخام والأحجار وغير ذلك ليعمروا هذا المسجد على ما يريد، وأرسل يتوعده ان لم يفعل ليغزون بلاده بالجيوش، وليخربن كل كنيسة في بلاده حتى القيامة التي بالقدس الشريف، ويهدم كنيسة الرُّها وجميع آثار

الروم. فبعث ملك الروم صنّاعاً كثيرة جداً ...

«وبنى الوليد المنارة يقال لها العروس، وجعل عدّة من المصابيح توقد عليها في كلّ ليلة، ورتّب لها ثلاث نوب، كل نوبة أربعون مؤذناً وهي باقية الى يومنا هذا. واما (الغربية) و(الشرقية) فهما على ما كانتا عليه من غير عمل ادوار ودرابزين، وهما من بناء اليونان كالصوامع لضرب النواقيس والرّصد»[٨].

وما اكثر ما كتب الناس عن دمشق، وما اكثر ما بين أيدينا عنها. فهذا ابن جبير، وهو رحالة وسيد من سادة القلم، يزور دمشق في أواخر القرن السادس (الثاني عشر)، فيصفها، ويتحدث عن جامعها حديثاً عذباً لذيذاً يقول:

«وأعظم ما في هذا الجامع المبارك قبة الرصاص المتصلة بالمحراب، سامية في الهواء عظيمة الاستدارة، قد استقل بها هيكل عظيم هو غارب لها يتصل من المحراب الى الصحن وتحته ثلاث قباب، قبة تتصل بالجدار الذي الى الصحن وقبة تتصل بالمحراب وقبة تحت قبة الرصاص بينهما.

«والقبة الرصاصية قد أغصت الهواء، فإذا استقبلتها أبصرت منظراً رائعاً ومرأى هائلاً يشبهه الناس بنسر طائر، كأن القبة رأسه والغارب جؤجؤه ونصف جدار البلاط عن يمين ونصف عن شمال جناحاه. وسعة هذا الغارب من جهة الصحن ثلاثون خطوة، فهم يعرفون هذا الموضع من الجامع بالنسر، لهذا التشبيه الواقع عليه. ومن أي جهة استقبلت البلد ترى القبة في الهواء منيفة على كل علو كأنها معلقة من الجو.

«والجامع المكرم مائل الى الجهة الشمالية من البلد وعدد شمسياته الزجاجية المذهبة الملونة أربع وسبعون، منها في القبة التي تحت قبة الرصاص عشر، وفي القبة المتصلة بالمحراب وما يليها من الجدار أربع عشرة شمسية، وفي طول الجدار عن يمين المحراب ويساره أربع وأربعون، وفي القبة المتصلة بجدار الصحن ست، وفي ظهر الجدار إلى الصحن سبع واربعون شمسية»[٩].

ووصف تعلق الشاميين بالجامع بقوله «ومنظر هذا الصحن من أجمل المناظر وأحسنها، وفيه مجتمع أهل البلد، وهو متفرجهم ومتنزههم كل عشية، تراهم فيه ذاهبين وراجعين، من شرق الى غرب، من باب جيرون الى باب البريد. فمنهم من يتحدث مع صاحبه ومنهم من يقرأ، لا يزالون على هذه الحال من ذهاب ورجوع الى انقضاء صلاة العشاء الآخرة. ثم ينصرفون ولبعضهم بالغداة مثل ذلك، وأكثر الاحتفال انما هو بالعشي، فيخيل لمبصر ذلك أنها ليلة سبع وعشرين من رمضان المعظم لما يرى من احتفال الناس واجتماعهم، لا يزالون على ذلك كل يوم، وأهل البطالة من الناس يسمونهم (الحراثين) ...

«وعن يمين الخارج من باب جيرون في جدار البلاط الذي أمامه غرفة ولها هيئة طاق كبير مستدير فيه طيقان صفر قد فتحت أبواباً صغاراً على عدد ساعات النهار،

ودبرت تدبيراً هندسياً. فعند انقضاء ساعة من النهار تسقط صنجتان من صفر من فمي بازيين مصورين من صفر قائمين على طاستين من صفر تحت كل واحد منهما: احدهما تحت أول باب من تلك الأبواب، والثاني تحت آخرها. والطاستان مثقوبتان فعند وقوع البندقتين فيهما تعودان داخل الجدار الى الغرفة وتبصر البازيين يمدان أعناقهما بالبندقتين الى الطاستين ويقذفانهما بسرعة بتدبير عجيب تتخيله الاوهام سحراً، وعند وقوع البندقتين في الطاستين يسمع لهما دوي وينغلق الباب، الذي هو لتلك الساعة، للحين بلوح من الصفر، لا يزال كذلك عند كل انقضاء ساعة من النهار، حتى تغلق الابواب كلها وتنقضي الساعات، ثم تعود الى حالها الأول. ولها بالليل تدبير آخر، وذلك أن في القوس المنعطف على الطيقان المذكورة اثنتي عشرة دائرة من النحاس، مخرمة وتعترض في كل دائرة زجاجة من داخل الجدار في الغرفة، مدبر ذلك كله منها خلف الطيقان المذكورة، وخلف الزجاجة مصباح يدور به الماء على ترتيب مقدار الساعة فإذا انقضت عم الزجاجة ضوء المصباح وفاض على الدائرة أمامها شعاعها فلاحت للابصار دائرة محمرة ثم انتقل ذلك الى الاخرى حتى تنقضي ساعات الليل وتحمر الدوائر كلها. وقد وكل بها في الغرفة متفقد لحالها درب بشأنها وانتقالها، يعيد فتح الأبواب وصرف الصنج الى موضعها وهي التي يسميها الناس المنجانة»[١٠].

وللصفدي شعر يصف فيه ساعات الجامع الأموي هو:

في الجامع الأموي الحسن مجتمع ... وبابه فيه للأحداق لذات
دقائق الحسن يحويها له درج ... فحبذا منه بالساعات ساعات
وحبذا معبدٌ كم أطربت أذناً ... فيه من الذكر نغمات وأصوات
جلا العروس على الرائي فطلعتها ... تزفها من بدور التم طارات[١١]

في القرن الحادي عشر (السابع عشر) زار دمشق المقّري صاحب «نفح الطيب» فكان فيما وصف به دمشق واهلها قوله: «فلما حللت بدارهم، رأيت ما أذهلني من سبقهم للفضل وبدارهم. وقابلوني اسماهم الله، بالاحتفال والاحتفاء:

غمرتني المكارم الغرّ منهم ... وتوالت عليّ منها فنون
شرط إحسانهم تحقّق عندي ... ليت شعري، الجزاء كيف يكون؟

ثم قال:

وما زال لي احسانهم وجميلهم ... وبرّهم حتى حسبتهم أهلي

«... فليت شعري بأيّ أسلوب أودي بعض حقهم المطلوب؟ أم بأيّ لسان أثني على مزاياهم الحسان؟

«هم الذين نوّهوا بقدري الخامل، وظنّوا مع نقصي أن بحر معرفتي كامل.

«وتذكرت بلادي النائية، بذلك المرأى الشاميّ الذي يبهر رائيه. فما شئت من

أنهار ذات انسجام .. وأزهار متوّجة للأدواح، مروّحة للنفوس بعطر الأرواح ... وجنان أفنانها في الحسن ذوات أفنان:

«ان تكن جنّة الخلود بأرض فدمشق ولا يكون سواها
أو تكن في السماء فهي عليها قد أمدّت هواءها وهواها»

ويقول في مكان آخر:

«رحلت الى المدينة التي ظهر فضلها وبان، دمشق الشام ذات الحسن والبهاء، والحياء والاحتشام، والأدواح المتنوّعة، والأرواح المتضوّعة، حيث المشاهد المكرّمة، والمعاهد المحترمة، والغوطة الغناء ... والمكارم التي يباري فيها المرء شائنه وصديقه، والأظلال الوريفة، والأفنان الوريقة، والزهر الذي تخاله مبسماً والندى ريقه، والقضبان الملد التي تشوّق رائيها بجنة الخلد:

أما دمشق فجنّة لعبت بألباب الخلائق
هي بهجة الدنيا التي منها بديع الحسن فائق
لله منها الصالحيّة فاخرت بذوي الحقائق
والغوطة الغنّاء حيّت بالورود وبالشقائق
والنهر صاف والنسيم اللّدن للأشواق سائق
ولآلىء الأزهار حلّت جيد غصن فهو رائق»[١٢]

وما أحسب اننا بحاجة الى ان ننقل ما قيل في فواكه دمشق. ولكن القصة التالية التي نقلها إلينا البدري في محاسن الشام طريفة، قال:

«حكي عن ابن الصائغ الحنفي انه لما قدم من القاهرة الى دمشق المحروسة، نزل في (الجسر الأبيض) عند الأمير مجير الدين بن تميم ونهر ثورا يمر بداره المأنوسة. فأجلسه على جانب النهر لأجل برد الهواء. فرأى شمس الدين بن الصائغ ما يمرّ من الفواكه على وجه الماء وصار يتناول ويأكل ما استطاب ويضع قدامه منه ما أعجبه، ثم التفت لابن تميم وقال له: أنت يغنيك هذا النهر عن شراء الفاكهة بفيض فضله العميم وأنشده في الحال ارتجالاً:

يقول وقد رأى ثوراً خليلي يفيض بسائر الثمرات فيضاً
أيكفيكم فلا تشرون شيئاً فقلت له: نعم، ونبيع أيضاً

«فقال ابن الصائغ: وهذه الفاكهة اليس يرميها في النهر أرباب الغيطان؟ قال له ابن تميم: انما هذه من اشتباك الاشجار وانحنائها عليه، فيلقيها النسيم عند ما تشتمل الاغصان، واما البساتنة فانهم يضعون فواكه مجموعة على ابواب البساتين كالزكاة لمن يمرّ بها ويحتاج الى شيء فيأخذه من الفقراء والمساكين»[١٣].

وقد عدد البدري في نزهة الانام صناعات دمشق على ما عرفت في القرن التاسع الهجري فقال:

«ومن محاسن الشام ما يصنع فيها من القماش والنسيج على تعداد نقوشه وضروبه ورسومه. ومنها عمل القماش الاطلس بكل اجناسه وانواعه. ومنها عمل القماش الهرمزي على اختلاف اشكاله وتباين اوصاله. ومنها عمل القماش الابيض القطني المصور لأحياء القصور، واموات القبور. وبها أيضاً عمل القماش السابوري بجميع الوانه وحسن لمعانه؛ وفيها تعمل صناعة الذهب المسبوك والمضروب والمجرور والمرفوع، والممدود والمرصوع. وفيها تعمل صناعة القرطاس بحسن صقاله ونقيّ اوصاله. وفيها تعمل صناعة القرضية ودباغاتها المرضية. وفيها تعمل صناعة الزموط والاقباع وتحمل لسائر البلاد والضياع. وفيها صناعة الحرير بالفتل والدواليب والسرير. وفيها تعمل صناعة السلاح، بما فيها من الاعاجيب والاقتراح. وفيها تعمل صناعة الموشى والمدهون بما تحتار فيه النواظر والعيون. وفيها تعمل صناعة النحاس من الضرب والتفصيل والنقوش التي تشرح صدر الناس. وفيها صناعة الواح الصقال ودهن الواح صغار الكتاب، وجفان القصع وتفصيل القبقاب»[١٤].

تحيط بدمشق متنزهات من أجمل ما عرف وألطف، وقد قال بدر الدين بن لؤلؤ الذهبي يصف النيربين:

رعى الله وادي النيربين فانني ... قطعت به يوماً لذيذاً من العمر
درى انني قد جبته متنزهاً ... فمدّ لأقدامي ثياباً من الزهر
وأوحى الى الاغصان قربي فأرسلت ... هدايا من الارياح طيبة النشر
وأخدمني الماء القراح وحيثما ... سنحت رأيت الماء في خدمتي يجري

وكان لدمشق متنزه يعرف بالليلكي كان الناس يجتمعون فيه أيام «زهر السفرجل ويسيبون الماء تحت أشجاره ويوقدون في ظلمة الشهر قشور البيض ويطلقونها في الماء ويعلقون قشور النارنج موقدة في الأشجار ويضربون الخيام في بستان الحاجب، ويقطعون فيه أوقاتاً من اللذة والانشراح يعجز الوصف عنها».

وفيها يقول الشيخ علاء الدين بن المشرف المارديني: انظر الى يلك زهت ازهاره وزره فالزورة قد تعينت، اشرقت الارض بنور ربها وأخذت زخرفها وازينت»[١٥].

وإذا كان صيف دمشق وربيعها انيسين فإن شتاءها قارس. ولابن تميم بيتان من الشعر عن شتاء دمشق هما:

يا شهر كانون من حب الغصون امتّ ... الارض وجدا وأبكيت السما حزنا
والمزن غسّلها من فيض أدمعه ... والثلج حاك لها من نسجه كفناً[١٦]

ولعبد الغني النابلسي العالم العارف بالله قصيدة في دمشق العالمة جاء فيها قوله:

ان سامك الخطب المهول فأقلقا ... فانزل بأرض الشام واسكن جلّقا
تجد المرام بها وكل مناك بل ... وترى بها عزاً وتفصح منطقا
بلد سمت بين البلاد محاسناً ... ونمت بهاء واستزادت رونقا
زاد السرور بها لكل معرج ... لا سيما ان كان من أهل التقى
ان تعشقوا وطناً فذي أولى لكم ... دون البلاد بأن تحب وتعشقا
خير الاناس أناسها يرعون ... أنواع الوداد ويحفظون الموثقا
هي جنة للطائعين معدة ... يتمتعون ولا يرون بها شقا
طابت هواء للنفوس وماؤها ... عذب زلال سائغ لمن استقى
لله أيام تقضّت لي بها ... ما زلت نحو ظلالها متشوقا
هي منشأي لا حاجر وطويلع ... ومحل أنسي لا الغوير ولا النقا
وطني وأول ما وطئت بها الثرى ... لا زال عيشي عن حماها مطلقا
لذ يا فؤاد بما بها من معشر ... ان سامك الخطب المهول فأقلقا

الهوامش

(١) ابن جبير، ص ٢٣٤ـ٢٣٥.
(٢) المقدسي، ص ١٥٦ـ١٥٧.
(٣) البدري، محمد: نزهة الانام في محاسن الشام، القاهرة، المطبعة السلفية، ١٩٢٢، ص ١٨ـ١٩.
(٤) نفس المكان، ص ٢٣.
(٥) المنجد، صلاح الدين: المشرق في نظر المغاربة، بيروت ١٩٦٣، ص ٢٦ـ٢٧.
(٦) نفس المكان، ص ٤٠ـ٤١.
(٧) البدري، ص ٤٤ـ٤٥.
(٨) نفس المكان، ص ٣٥ـ٤١.
(٩) ابن جبير، ص ٢٣٧ـ٢٣٨.
(١٠) نفس المكان، ص ٢٣٩ـ٢٤١.
(١١) البدري، ص ٤٨.
(١٢) المنجد، ص ٤٩ـ٥١.
(١٣) البدري، ص ٣٢٢ـ٣٢٣.
(١٤) نفس المكان، ص ٣٦٢ـ٣٦٣.
(١٥) نفس المكان، ص ٢٧٤.
(١٦) نفس المكان، ص ٣٧٢.

١٨ـ القُدسُ

نشرها الله على تلال خمس، وقدس منها جبل الزيتون ومكان الحرم. وبذلك هيأها لأن يدخلها المسيح متواضعاً، ويُقبض عليه ويصلب في ربوعها ثم يصعد الى السماء. كما أعدها للإسراء، على ما جاء في كتابه العزيز: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله﴾.

تاريخها متوغل في القدم، فهي هناك على تلك التلال، تنتظر الفداء والإسراء، منذ مئات السنين. تروي القصة تلو القصة، والحادثة تلو الحادثة، وتقلب الصفحة بعد الصفحة، وعينها تترقب وتنتظر حتى تحقق لها ما تحقق. ولذلك ما أصدق ما قاله فيها ابنها البار المقدسي الجغرافي صاحب أحسن التقاسيم وهو: «ليس في مدائن الكور أكبر منها ... لا شديدة البرد، وليس بها حر وقل ما يقع بها ثلج. وسألني القاضي أبو القاسم ابن قاضي الحرمين عن الهواء بها فقلت: سجسج لا حر ولا برد شديد. قال: هذا صفة الجنة. بنيانهم حجر لا ترى أحسن منه ولا أتقن من بنائها ولا أعفّ من أهلها ولا أطيب من العيش بها ولا أنظف من أسواقها ولا أكبر من مسجدها ولا أكثر من مشاهدها. عنبها خطير، وليس لمعنّقتها نظير. وفيها كل حاذق وطبيب، وإليها قلب كل لبيب، ولا تخلو كلّ يوم من غريب»[1].

ليس غريباً ان يتعصب لها ابناؤها، فالولاء للمدينة حق لها وواجب على الأبناء. ولكن القدس تستهوي الآخرين فيقعون في شراك غرامها وقلما يحبون التخلي عنها، ولذلك فكم كان ألمهم شديداً لما أرغموا على ذلك.

ولعلّ أطرف ما وصل إلينا عن دفاع الابن عن مدينته هذه الحكاية التي رواها المقدسي قال:

«وكنت يوماً في مجلس القاضي المختار أبي يحيى بن بهرام بالبصرة فجرى ذكر مصر الى ان سُئلت: أي بلد أجلّ؟ قلت: بلدنا، قيل: فأيّها أطيب؟ قلت: بلدنا، قيل: فأيها أفضل؟ قلت: بلدنا، قيل: فأيها أحسن؟ قلت: بلدنا، قيل: فأيها أكبر؟ قلت: بلدنا. فتعجب أهل المجلس من ذلك وقيل: أنت رجل محصل وقد ادّعيت ما لا يقبل منك، وما مثلك إلاّ كصاحب الناقة مع الحجّاج. قلت: أما قولي أجل فلأنها بلدة جمعت الدنيا والآخرة فمن كان من أبناء الدنيا وأراد الآخرة وجد سوقها، ومن كان من أبناء الآخرة فدعته نفسه الى نعمة الدنيا وجدها. واما طيب الهواء فإنه لا سمّ لبردها ولا

أذى لحـرّها. واما الحـسن فـلا ترى أحـسن من بنيـانها ولا أنظف منهـا ولا أنزه من مسـجدها. واما كثرة الخيـرات فـقد جمع الله تعالى فيهـا فواكه الاغوار والسهل والجبال والأشياء المتضادّة كالاترج واللوز والرطب والجوز والتين والموز. واما الفضل فلأنها عـرصة القيامة ومنها المحشـر وإليها المنشـر. وإنما فضّلت مكّة والمدينة بالكعبة والنبي ﷺ ويوم القيامة تزفّان إليها فتحوي الفضل كله. وأما الكبر فالخلائق كلهم يحشرون إليها، فأي أرض أوسع منها؟ .. فاستحسنوا ذلك وأقرّوا به»[٢].

وظل المكان الذي صلب فيه المسيح مجهولاً حتى القرن الرابع للميلاد. «ثم شـخصت هيـلانة ام قسطنطين لزيارة بيت المـقدس. فسـألت عن موضع الصليب فأخبرها مقاريوس الأسقف ان اليهود أهالوا عليه التراب والزبل. ثم استخرجت ثلاثة من الخشب وسألت: أيتها خشبة المسيح؟ فقال لها الأسقف: علامتها ان الميت يحيا بمسيسها فصدّقت ذلك بتجربتها. واتخذ النصارى ذلك اليوم عيداً لوجود الصليب. وبنت على الموضع كنيسة القيامة وأمرت مقاريوس الأسقف ببناء الكنائس»[٣].

واحتفل المسيحيون بأعيادهم المختلفة في القدس منذ ذلك الوقت. وها نحن نعثر على وصف لفيض النور في اليوم السابق لعيد الفصح المقدس تركه لنا برنارد الحكيم الذي زار المقدس في القرن الثالث (التاسع). قال برنارد: «يجد الداخل الى القبر قناديل كثيرة معلقة فوقه. فاذا كان صباح السبت السابق ليوم الفصح بدئت الصلاة في الصباح، حتى اذا تمت، أنشد الكل بصوت رخيم: استجب يا رب، واستمروا في ذلك حتى ينزل الملاك وينير القناديل المذكورة وعندها يتقدم البطريرك ويعطي لكل مطران حصته من هذا النور المقدس، ثم يسمح للشعب أن ينير كل قنديله»[٤].

ولما فتح العرب القدس جاء عمر بنفسه يتسلمها. وقد كتب لأهلها ـ وكانت تسمى ايلياء ـ عهداً هذا نصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل ايلياء من الأمان:

«أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم. سقيمها وبريئها وسائر ملتها. أنه لا تسكن كنائسهم، ولا تهدم، ولا ينتقص منها ولا من خيرها، ولا من صلبهم، ولا من شيء من أمـوالهم. ولا يكرهون على دينهم، ولا يضـار أحـد منهم. ولا يسكن بايلياء معهم أحد من اليهود. وعلى أهل ايلياء أن يعطوا الجزية كما تعطي أهل المدائن. وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص. فمن خرج منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل ايلياء من الجزية. ومن أحب من أهل ايلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم فانهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم. فمن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع الى أهله فانه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصدوا حصادهم.

«وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين اذا أعطوا الذي عليهم من الجزية.

«كتب سنة ١٥ لهجرة [٦٣٦].

«شهد على ذلك خالد بن الوليد وعبد الرحمن بن عوف وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان»(٥).

وفي أيام عمر وضعت أسس المسجد الأقصى الذي وسع فيما بعد وأقيمت قبة الصخرة الى جانبه. وللمقدسي وصف بديع لقبة الصخرة إذ يقول: «فإذا بزغت عليها الشمس أشرقت القبة وتلألأت المنطقة ورأيت شيئاً عجيباً. وعلى الجملة لم أرَ في الاسلام ولا سمعت ان في الشرك مثل هذه القبة»(٦).

في أواسط القرن الخامس (الحادي عشر) زار ديار الشام ناصري خسرو الرحالة الفارسي. وكانت القدس من الأماكن التي اهتم بها. وترك ناصري خسرو لنا وصفاً جميلاً للمدينة والصخرة. فهو يقول عن وصوله الى المدينة المقدسة: «في الخامس من رمضان سنة ٤٣٨ [١٦ مارس ١٠٤٧] بلغنا بيت المقدس. وكان قد مضى على خروجنا من بلدنا سنة شمسية، وطوال رحلتنا لم نقر في مكان قط ولا وجدنا راحة كاملة. وأهل الشام وأطرافها يسمون بيت المقدس القدس. ويذهب الى القدس في موسم الحج من لا يستطيع الذهاب الى مكة من أهل هذه الولايات، فيتوجه الى الموقف يضحي ضحية العيد كما هي العادة. ويحضر هناك لتأدية السنة، في بعض السنين، أكثر من عشرين ألف شخص، في أوائل ذي الحجة، ومعهم أبناؤهم. كذلك يأتي لزيارة بيت المقدس، من ديار الروم، كثير من النصارى ... وذلك لزيارة الكنيسة ... هناك»(٧).

اما المدينة فقد قال عنها ناصري خسرو: «هي مدينة مشيدة على قمة الجبل، ليس بها ماء غير الأمطار ورساتيقها ذات عيون، وأما المدينة فليس بها عين فإنها على رأس صخر. وهي مدينة كبيرة كان بها، في ذلك الوقت، عشرون ألف رجل، وبها أسواق جميلة وأبنية عالية، وكل أرضها مبلطة بالحجارة، وقد سووا الجهات الجبلية والمرتفعات، وجعلوها مسطحة. بحيث تغسل الارض كلها وتنظف حين تنزل الامطار. وفي المدينة صناع كثيرون، لكل جماعة منهم سوق خاصة، والجامع شرقي المدينة وسوره هو سورها الشرقي. وبعد الجامع سهل كبير مستو يسمى «الساهرة» يقال إنه سيكون ساحة القيامة والحشر، ولهذا، يحضر إليه خلق كثيرون من أطراف العالم ويقيمون به حتى يموتوا فإذا جاء وعد الله كانوا بأرض الميعاد. اللهم عفوك ورحمتك بعبيدك ذلك اليوم يا رب العالمين»(٨).

والصخرة، التي تقوم القبة فوقها، يقول عنها الرحالة الفارسي: «والصخرة حجر أزرق لونه، لم يطأها أحد برجله أبداً، وفي ناحيتها المواجهة للقبلة انخفاض، كأن

انساناً سار عليها فبدت آثار أصابع قدميه فيها كما تبدو على الطين الطري، وقد بقيت عليها آثار سبع أقدام. وسمعت ان ابراهيم عليه السلام كان هناك، وكان اسماعيل طفلاً فمشى عليها وهذه هي آثار أقدامه. ويقيم في بيت الصخرة جماعة من المجاورين والعابدين، وقد زينت أرضه بالسجاد الجميل من الحرير وغيره. وفي وسطه قنديل من الفضة، معلق بسلسلة فضية فوق الصخرة. وهناك قناديل كثيرة من فضة، كتب عليها وزنها، أمر بصنعها سلطان مصر. وقد قدرت ما هناك من الفضة بألف من.

«ورأيت هناك أيضاً شمعة كبيرة جداً طولها سبع أذرع وقطرها ثلاثة أشبار، ولونها كالكافور الزباجي وشمعها مخلوط بالعنبر. ويقال إن سلطان مصر يرسل الى هناك كل سنة كثيراً من الشمع، منه هذه الشمعة الكبيرة، ويكتب عليها اسمه بالذهب»[٩].

في اواخر القرن الخامس (الحادي عشر) احتل الافرنج القدس التي ظلت في ايديهم الى ان استرجعها صلاح الدين سنة ٥٨٣ [١١٨٧]، أي بعد قرابة قرن. لكن الدولة الايوبية التي انشأها صلاح الدين في ديار الشام ومصر لم تحتفظ بقوتها بسبب اختلاف أولاد صلاح الدين على الحكم. وعاد الامر الى مثل ذلك عقب وفاة الملك العادل. لذلك لما آل الامر الى الملك الكامل محمد رأى ان يقبل عرضاً من الامبراطور فريدريك على عقد هدنة بين الرجلين. وكانت غاية الملك الكامل من ذلك تجنيب مصر حملة صليبية. وتم الصلح سنة ٦٢٢ [١٢٢٥]، وكان الامبراطور قد وصل الى فلسطين. وكانت الشروط ان يتسلم فردريك القدس وبيت لحم والناصرة ويافا، على ان يبقى المسجد الاقصى وقبة الصخرة وقرى القدس بأيدي الملك الكامل.

«وأعقب الامبراطور فريدريك هذه الهدنة بزيارة المسجد الأقصى، باذن من السلطان الكامل، صحبة شمس الدين قاضي نابلس. وطاف فريدريك بمزارات المسجد الأقصى، مستفسراً عنها في لسان عربي واضح. ولم يكن ذلك غريباً على امبراطور أجاد الكتابة والكلام في ست لغات أخرى غير اللغة العربية، كما لم يكن غريباً على الحاضرين من المسلمين أن يسمعوه وهو يتكلم في غير لكنة ظاهرة، فإن كثيراً من الصليبيين الأوروبيين المقيمين بالشام كانوا يتكلمون العربية، منذ استقر مقامهم بالشرق. وبات الامبراطور فريدريك ليلتين بدار القاضي شمس الدين ببيت المقدس، ثم رحل إلى عكا، بعد أن توّج نفسه بكنيسة القيامة ملكاً على مملكة بيت المقدس»[١٠].

وقد خلف لنا سبط بن الجوزي صاحب «مرآة الزمان» اخبار هذه الزيارة التي ننقل طرفاً منها للقراء. قال سبط بن الجوزي:

«وفيها [اي سنة ٦٢١/١٢٢٤] دخل الانبرور الى القدس ... وجرى (كذا) له عجائب، وحكى صورة الحال قوّام الصخرة، قالوا: ونظر (الانبرور) الى الكتابة التي في

القبة، وقرأ نصها، وهو (قد طهر هذا البيت المقدس صلاح الدين من المشركين)، فقال: ومن هم المشركون؟ وقال للقوّام: هذه الشباك التي على أبواب الصخرة من أجل أيش؟ قالوا له: لئلا تدخلها العصافير. قالوا: وكان الانبرور أشقر، في عينيه ضعف، لو كان عبداً ما ساوى مائتي دينار. قالوا والظاهر من كلامه أنه كان دهرياً، وانما كان يتلاعب بالنصرانية. قالوا: وكان السلطان الكامل قد تقدم إلى القاضي شمس الدين قاضي نابلس ان يأمر المؤذنين ـ ما دام الأنبرور في القدس ـ لا تصعدوا المنائر، ولا تؤذنوا في الحرم. فأنسي القاضي أن يعلم المؤذنين، وصعد عبد الكريم المؤذن في تلك الليلة في وقت السحر، والأنبرور نازل في دار القاضي، فجعل يقرأ الآيات التي تختص بالنصارى ... فلما طلع الفجر استدعى شمس الدين قاضي نابلس القاضي عبد الكريم، وقال له: ايش عملت؟ السلطان رسم كذا وكذا، قال: فما عرفتني، والتوبة. فلما كانت الليلة الثانية ما صعد عبد الكريم المأذنة، فلما طلع الفجر استدعى الأنبرور القاضي، وكان قد دخل القدس في خدمته، وهو الذي سلم اليه القدس، فقال له: يا قاضي! أين ذاك الرجل الذي طلع البارحة المنارة؟ .. فعرّفه أن السلطان أوصاه. فقال الأنبرور: أخطأتم يا قاضي، تغيّرون أنتم شعاركم وشرعكم ودينكم لأجلي، فلو كنتم عندي في بلادي هل كنت أبطل ضرب الناقوس لأجلكم؟ الله! لا تفعلوا؛ ثم فرّق الأنبرور في القوّام والمؤذنين والمجاورين جملة، أعطى كل واحد منهم عشرة دنانير، ولم يقيم [يقم] بالقدس سوى ليلتين، وعاد الى يافا»[١١].

انتهى الأمر بالصليبيين أن أُخرجوا من ديار الشام. واستعادت بعض الأماكن فيها ما كان لها من نشاط تجاري او غير ذلك. والقدس ليست مركزاً تجارياً، لكن استقرار الأحوال، ولو نسبياً، ادى الى انتعاش المدينة المقدسة. فهذا ابن بطوطة يقول عن قبة الصخرة:

«وهي من أعجب المباني وأتقنها وأغربها شكلاً، قد توافر حظها من المحاسن، وأخذت من كل بديعة بطرف. وهي قائمة على نشز في وسط المسجد، يصعد اليها في درج رخام، ولها أربعة أبواب، والدائر بها مفروش بالرخام أيضاً، محكم الصنعة، وكذلك داخلها. وفي ظاهرها وباطنها من أنواع الزواقة، ورائق الصنعة ما يعجز الواصف، وأكثر ذلك مغشى بالذهب. فهي تتلألأ نوراً، وتلمع لمعان البرق، يحار بصر متأملها في محاسنها، ويقصر لسان رائيها عن تمثيلها. وفي وسط القبة الصخرة الكريمة، التي جاء ذكرها في الآثار، فإن النبي ﷺ عرج منها إلى السماء. وهي صخرة صماء، ارتفاعها نحو قامة، وتحتها مغارة في مقدار بيت صغير، ارتفاعها نحو قامة أيضاً، ينزل اليها على درج. وهنالك شكل محراب. وعلى الصخرة شباكان اثنان محكما العمل، يغلقان عليها؛ أحدهما، وهو الذي يلي الصخرة، من حديد بديع الصنعة، والثاني من خشب، وفي القبة دَرَقَة كبيرة من حديد معلقة هنالك، والناس يزعمون أنها درقة

حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه»[١٢].

وقد كثر الزوار الأجانب الذين أموا مدينة القدس في القرنين السابع (الثالث عشر) والثامن (الرابع عشر). فمن أولئك الرحالين فابري الذي ترك لنا الكثير من مدينة القدس. فقد قال:

«بيوت المقدس مبنية بالحجارة، هذا باستثناء مساكن الفقراء التي هي من الطين. وقد رأيت فيها بيوتاً جميلة كبيرة، لكن جزءاً كبيراً من المدينة متهدم مهجور، بحيث ان جثث الحيوانات التي تنفق تبقى داخل المدينة بدل ان تطرح خارج أسوارها .. وفي المدينة نحو خمسمائة يهودي ونحو ألف نصراني من كل مذهب وقطر، وأقلهم من أتباع الكنيسة اللاتينية.

«رغم ان القدس قد تهدمت، فإنه لا يزال فيها أربع أسواق جميلة طويلة، مما لم أرَ له من قبل شبهاً. كلها مسقوفة بالقباب، وتحوي جميع أنواع المتاجر. وهذه الأسواق الأربع هي، سوق التجار وسوق العطارين وسوق الخضار وسوق الأطعمة المطبوخة والخبز»[١٣].

«مستشفى القديس يوحنا ... والبناء القائم هو جزء من الأصل، ويقيم فيه عدد من الرهبان ... وتوزع الحجاج في المكان ... فذهبوا مع (الترجمان المساعد) ليقيموا في بيته. اما في زيارتي الأولى للقدس فلم نقم في مستشفى القديس يوحنا، بل انني لم أره، إذ أقمنا في بيت كبير يقع في حي آخر. وما كاد الحجاج يستقرّون في أماكنهم حتى جاءهم الباعة من المسلمين والنصارى واليهود يحملون الخبز والماء والطعام والفواكه فابتعنا وأكلنا ... والآن جاءنا اثنان من الاخوان، موفدين من قبل رئيس جبل صهيون، واقتادا جميع الرهبان منا الى دير صهيون لنقيم هناك. لأن هذه هي العادة المتبعة. وكنت بطبيعة الحال في من ذهب»[١٤].

وأسواق القدس تحدث عنها فابري فقال: «زرت صباح اليوم ٢٨ تموز (يوليو) أسواق المدينة وشارع الطباخين. حيث رأيت أشياء كثيرة للبيع وجماعات كبيرة تشتري من المطابخ العديدة، ذلك لأن القوم لا يطبخون في بيوتهم، كما نفعل نحن في بلادنا. بل انهم يبتاعون طعامهم جاهزاً من هذه المطابخ. والطهاة ماهرون نظيفون. ولا ترى امرأة قرب الموقد. لأن المسلمين يكرهون الطعام الذي تطهاه المرأة كرههم للسم. ومن ثمة ليس في الشرق كله امرأة تستطيع ان تصنع كعكة.

«وحيث يكون الحجاج يتجمع حولهم التجار. فلما كنا في كنيسة القيامة جاء تجار من النصارى ... الشرقيين ... ودخلوا معنا. فلما أقفلت الابواب عمد بعضنا الى المساومة. وقضوا في ذلك شطراً من الليل إن لم يكن الليل كله ... ولم تقتصر مشترياتهم ومساومتهم على المسابح والحجارة الكريمة لكنها تعدّتها الى الدمشقي والحرير ... أعرف بعض النبلاء الذين كانوا يمتنعون عن المساومة في اسواق بلادهم،

لأن ذلك دون مكانتهم الاجتماعية، لم يتحرجوا عن الشراء في مثل هذا المكان المقدس ... ولم تكن غاية الجميع أن يبتاعوا أشياء لأنفسهم، ولكنهم كانوا يفكرون بنقلها الى بلادهم للاتجار بها والربح. وقد اشترك بعض رجال الدين في أعمال البيع والشراء هذه»(١٥).

ولعلّ من خير ما يمكن ان يردد لمناسبة التحدث عن القدس المقطوعة التالية من قصيدة عصماء لشوقي. قال:

ولد الرفق يوم مولد عيسى ... والمروءات والهدى والحياء
وازدهى الكون بالوليد وضاءت ... بسناه من الثرى الأرجاء
وسرت آية المسيح كما يسري من ... الفجر في الوجود الضياء
تملأ الأرض والعوالم نوراً ... فالثرى مائج بها وضّاء
لا وعيد، لا صولة، لا انتقام ... لا حسام، لا غزوة، لا دماء
ملك جاور التراب فلما ... ملّ نابت عن التراب السماء
وأطاعته في الإله شيوخ ... خشّع خضع له ضعفاء.

الهوامش

(١) المقدسي، ص ١٦٥ـ١٦٦.
(٢) نفس المكان، ص ١٦٦ـ١٦٧.
(٣) شيخو، لويس: مجاني الادب، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٨٨٢، ج ٢، رقم ٣٠٨.
(٤) زيادة، نقولا: رواد الشرق العربي في القرون الوسطى، القاهرة، المقتطف، ١٩٤٣، ص ٥٤.
(٥) العارف، عارف: تاريخ القدس، القدس، ١٩٥١، ص ٤٦ـ٤٧.
(٦) المقدسي، ص ١٧٠.
(٧) خسرو، ناصري: سفرنامه، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٥، ص ١٩ـ٢٠.
(٨) نفس المكان، ص ٢٠.
(٩) نفس المكان، ص ٢٩ـ٣٠.
(١٠) زياده، مصطفى: حملة لويس التاسع على مصر، القاهرة، ١٩٦١، ص ٦٣.
(١١) نفس المكان، ص ٦٣ـ٧٥.
(١٢) ابن بطوطة، ج ١، ص ١٢٢ـ١٢٣.
(١٣) رواد الشرق العربي، ص ١٩٨.
(١٤) نفس المكان، ص ١٩٨ـ١٩٩.
(١٥) نفس المكان، ص ١٩٩ـ٢٠٠.

١٩ـ بَيروت

أقبل على بيروت من البحر والشمس بعد تطل فوق صنين تر منظراً عجباً بحيث يبدو لك كأن أهلها وبيوتها وأشجارها اتجهت نحو الشمس تسبح الخالق. او أشرف عليها من الطائرة، مشرقاً نحوها او مغرباً، يبد لك منظر رائع، حيث ينحني الجبل محيياً البحر ويرفع البحر جبهته ليقبله البر، وحيث يمتزج اللون الأزرق باللون الأخضر، وقد يفصل بينهما خط رقيق من لون رمال الشاطىء.

هذه بيروت تبهرك من البحر او من الجو، فإذا دخلتها وتحدثت الى أرضها وسمائها روت عجباً من التاريخ البالغ من العمر نحو خمسة وثلاثين قرناً إن لم يزد على ذلك. فقد ورد اسمها في رسائل تل العمارنة التي ترجع الى القرن الخامس عشر ق.م. ولعلّ أزهى عصر في تاريخها القديم هو العصر الروماني. فقد أدرك الرومان ما تستحقه المدينة من الرعاية فأكرموها. وقد حدثنا الراوي عن بيروت في ذلك الوقت قال:

«لما صار الأمر لأغسطس قيصر خصّ بيروت بألطاف وهبات لم يُنعم بها على غيرها. فولّى عليها القائد أَغريبا بعد ان أزوجه بابنته جوليا. وكان صهره مولعاً بالأبنية الفخمة، فلما تقلّد ولاية بيروت شملها بسوابغ النعم وجعلها من المدن الأولية الراقية، واستدعى إليها فرقتين من الجيوش الرومانية اقامتا فيها. فأضحى لها ذلك ميزة على بقية المدن الساحلية. ثم منحها أغسطس امتيازات المستعمرات الرومانية، وخوّل أهلها حقوق الوطنية وكان ذلك سنة ١٥ ق.م. وسماها باسم ابنته جوليا. وضرب باسمها نقوداً بيروتية.

«ولما رأى هيرودس الكبير ... محبّة أغسطس سعى هو أيضاً الى تحسينها. فشيّد في بيروت النوادي الواسعة والأروقة الرحبة والهياكل والأسواق الفاخرة والحمّامات والمخازن التجارية. فتقاطر الى بيروت كثير من الرومانيين والأجانب فاستوطنوها وزادت بهم حسناً وعمراناً. وفي مجلس بيروت جمع هيرودس محفلاً من الفقهاء والأعيان لمحاكمة ولديه»[1].

واستمر هذا الاهتمام بالمدينة في العصر التالي، أيام اغريبا الأول، بحيث قال المؤرخ يوسيفوس عنها: «ان هذا الملك بالغ في إكرام أهل بيروت فشيّد لهم مسرحاً كان يفوق مسارح مدن كثيرة بجماله وفخامته. وكذلك بنى لهم ميداناً فخماً وملعباً

للحيوانات ومعاهد أخرى لم يدّخر في بهائها شيئاً من ماله ليبلغها من المحاسن أجلها. وبعد إنجازها دعا الأهلين الى تدشينها فأقام لذلك مواسم وأعياداً بهجة أنفق في ترويجها المبالغ الوافرة. فمثلوا في المسرح المشاهد المختلفة وتعدّدت فيه الملاهي وعزفت أصناف الآلات المطربة. وتفكيهاً للحضور حكم على ١٤٠٠ من أصحاب الجنايات بأن ينقسموا قسمين يقاتل بعضهم بعضاً ففعلوا حتى قتلوا على بكرة أبيهم. وتم ذلك في الميدان الذي أعده لتلك المبارزات القبيحة والمظنون ان موضع هذا المشهد كان على شاطىء البحر»[٢].

اشتهرت بيروت أيام الرومان بمدرستها الفقهية التي أنشئت في أواخر القرن الثاني الميلادي. وقد قيل فيها سنة ٢٣٩ للميلاد: «إن بيروت جامعة لتعليم جميع الشرائع الرومانية». وبعد ذلك بقرن واحد قال كاتب لاتيني عن بيروت: «إنها المدينة الوافية الكمال موقعاً وحضارة. وفيها مدارس لدرس الحقوق حسب الدستور الروماني وإليها يتوارد الطلاب أفواجاً من كل صقع ومنها يخرج المحامون القانونيون لمحاكم العالم كله». وكان فيها مجال لدراسة العلوم الأدبية بفروعها والفلسفة.

هؤلاء الطلاب، مثل طلاب جامعات بيروت اليوم، «كانوا أحراراً يتفقون في الغالب مع الأهلين فيسكنون في بيوتهم ويبيتون عندهم ليلاً ثم يترددون الى المدارس في ساعات التعليم. ولا يخفى أن تزاحم الشبان المطلقي الحرية في حركاتهم وسكناتهم كثيراً ما يقودهم الى ردغات المآثم حتى ولو كانوا من أهل الصلاح. فما ظنك بهم ان كانوا مائلين الى الاهواء الباطلة يسعون الى اغواء رفقهم في حمأة الفساد ولا سيما في عهد الوثنية؟ فإن الكتبة المعاصرين يدعون بيروت «مصيدة النفوس البارة» لكثرة ما فيها من دواعي الفجور. فإن هواءها الطيب وحدائقها وحماماتها ومقاصفها وملاعبها كانت مدعاة الى اللهو وارتكاب المحرمات. وقد شبهها غريغوريوس العجائبي بساحرة تفتن عقول الأحداث وتهوي بهم الى قعر الفساد»[٣].

ويبدو من ملاحظات الكتّاب الذين زاروا المدينة في القرن الخامس وأوائل السادس «ان المدينة كانت تنعم بعيش رغد ورفاهية ومجالي الابهة. وانها كانت مركزاً لتجار الحرير والاشغال الحريرية، ولم يزاحمها في ذلك الا صور. وان غلاتها كانت كثيرة وأشجارها متنوعة، وان مياهها المنقولة اليها من نبع العرعار في قناة لطيفة كانت متعة الشاربين».

وذر قرن الشر على بيروت في القرن السادس للميلاد، فالزلازل والحرائق تهدمها وتهد حيلها. قال ميخائيل الكبير يصف زلزال سنة ٥٥١ للميلاد: «لما حدث الزلزال في بيروت ومدن فينيقية اندحرت المياه بإذن الله إلى مسافة ميلين فانكشفت أعماق البحر وظهرت فيه سفن مشحونة بالبضائع ومال كثير فحمل الطمع الأهلين ولم يردّهم الخوف فتقاطروا ليحرزوا تلك الكنوز فحملوها راجعين بسرعة إلى دورهم وإذا بالمياه

عادت بغتة فأغرقتهم جميعاً. أما الذين كانوا على الساحل فهربوا لينجوا بنفسهم من الغرق الا ان جدران الأبنية المتساقطة بفعل الزلزال قتلتهم فماتوا تحت الردم. وانتشر الحريق في المدينة بعد خرابها مدة شهرين فحوّل مبانيها الى رماد وحجارتها إلى كلس»[٤].

ونزل بها حريق بعد ذلك بقليل فصرخ أحد المعاصرين لذلك يرثي بيروت وكأنه يتكلم بلسانها:

«ويلاه! أنا أشأم المدن حظاً وأسوأها حالاً. رأت عيني جثث ابنائي متراكمة في ساحاتي دفعتين في ظرف تسع سنين. رماني فولكان (اله النار) بسهامه المتّقدة بعد ان صدمني نبتون (اله البحر) بتياره الهائل. وأسفي على بهائي السابق .. طمسه الدهر فأحالني إلى رماد. فيا عابري الطريق ابكوا لسوء طالعي واندبوا بيروت المضمحلّة»[٥].

وظلت بيروت على ذلك بعض الوقت اذ وصفها السائح انطونين الشهيد في اواخر القرن السادس فقال عنها: «وصلنا إلى المدينة الفائقة الجمال بيروت التي كانت فيها من قبل المدرسة الحقوقية الذائعة الصيت. وقد استولى عليها الخراب الآن».

اذا كان هذا تاريخ بيروت، فلبيروت أيضاً حظ في الاسطورة. وما كان من الممكن الا ان تحط الاسطورة رحالها في أرض لها كل هذا الجمال. وقد أورد صالح بن يحيى هذه الحكاية قال:

«وقد زعم النصارى أن في القدم خرج في بيروت تنّين عظيم فقرر أهل بيروت له في كل عام بنتاً يخرجونها اليه اكتفاء لشرّه، فوقعت القرعة في سنة من السنين على صاحب بيروت. فأخرج بنته ليلاً الى مكان موعد التنين فتوسّلت بالدعاء الى الله فتصوّر لها مار جرجس القديس. فلمّا جاء التنين خرج عليه مار جرجس فقتله فعمّر صاحب بيروت في المكان كنيسة بالقرب من النهر. والنصارى تصوّر هذه الكائنة في سائر كنائس بلادهم قلّ ما يخلو منها كنيسة. ويزعم النصارى ان مار جرجس من لدّ قتله ملك عبدة الاصنام بحوران وله عيد مشهور عندهم في سائر البلاد. وأهل بيروت المسلمين والنصارى يخرجون في ذلك العيد الى نهر بيروت ويسمّى عيد النهر»[٦].

وفتح العرب بيروت. وفي اواخر القرن الأول للهجرة خرج منها الاوزاعي «وهو أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو امام أهل الشام وعالمهم. قيل إنه اجاب في سبعين الف مسألة وصار يعمل بمذهبه في الشام ... وعمل أهل الاندلس به أيضاً ... وكان الاوزاعي عظيم الشأن بالشام، وكان أمره فيهم اعز من امر السلطان. اسند عن جماعة من التابعين واسند عنه من العلماء جم غفير ... وكان مولده ببعلبك ... سنة ٩٣ [٧١٢] ومنشأه بالبقاع. ونقلته أمه الى بيروت فرابط فيها الى ان مات سنة ١٥٧ [٧٧٤] ... وقبره لا يزال الى اليوم على الشاطىء جنوبي مدينة بيروت»[٧].

وهكذا بسبب من الاسطورة والتاريخ ظفرت بيروت بحارسين: القديس جورج يحرسها من الشمال، والاوزاعي يحرسها من الجنوب.

وأخذت بيروت تبدو للزمن شيئاً فشيئاً، وتبرز ثانية. فمعاوية يتخذ منها دار صناعة وبها عمر المراكب وجهز فيها الجيش الى قبرص. وها نحن نجد ان جغرافيي القرن الرابع للهجرة يتحدثون عنها، فابن حوقل يقول «بيروت على ساحل بحر الروم وبها يرابط أهل الشام وسائر جندها واليها ينفرون عند استنفارهم. وليسوا كأهل دمشق ... وفيهم من اذا دعي الى الخير أجاب، واذا أيقظه الداعي اناب. وبيروت هذه كان مقام الاوزاعي. وهي ذات نخيل وقصب سكر وغلات متوفرة. وتجارات البحر عليها دائرة، وسابلتها غير منقطعة. خصيبة حصينة متينة السور، رخيصة الاسعار جيدة الأهل مع منعة فيهم من عدوهم وصلاح في عامة أمورهم»[٨].

وجاء الصليبيون وأصاب بيروت ما اصاب غيرها من تبادل الايدي وتناوب الحكم. ويبدو أن الافرنج حرصوا على تحصينها وتزيينها، فقد كانت «استحكاماتها استوجبت اشغالاً طويلة فكان يحرسها شمالاً من جهة البحر صخور عالية ومن الجانب الغربي كانت تحميها خنادق مبلطة تحت حراسة سورين حريزين تدعمهما عدّة ابراج في المتانة لا تقوى عليهما كل قوّات العدوّ. وكان يزينها من الداخل ابنية حسنة الهندسة بديعة النقوش. وقد وصف السائح ولبرندي اولدنبرغ بعض قصورها فقال عن احدى غرفاته: «إنها كانت مرصوفة بالفسيفساء وهي تمثل مياهاً جارية يمرّ عليها النسيم فتتجعّد بهبوبه. وفي اسفلها رمل ناعم فيتعجّب الماشي فوقها كيف لا تغوص رجله في أعماقه. وكانت جدران الغرفة مزدانة بقطع من الرخام المنقوش على صورة تأخذ بمجامع الابصار يظلّلها قبّة تمثل بصبغها الازرق شكل السماء. وفي وسط الغرفة حوض من الرخام الصقيل الملون ينفذ اليها نسيم عليل من نوافذها فيرطب حرارتها»[٩].

في هذه الفترة كانت بيروت، على ما وصفها الرحالة الأجانب «مدينة غنية وحصينة وكبيرة ومزدحمة بالسكان. ومينأؤها جميل أتقنته يد الصانع الماهر، يحيط بالمدينة كالهلال يقوم في كل من طرفيه برج تسحب بينهما سلسلة تحمي السفن الموجودة في الميناء في الليل»[١٠].

على أن المماليك أخرجوا الإفرنج من الديار كلها وعادت بيروت مركزاً للتجارة. وقد اوضح صالح بن يحيى اهمية المدينة في اوائل العصر المملوكي قال: «ثم بعد ذلك صارت بعض مراكب الفرنج تتردّد اليها بالمتاجر قليلاً قليلاً. وكانت مراكب البنادقة تحضر إلى قبرص فيرسل صاحب قبرص بضائعهم في شونتين كانتا له إلى بيروت نقلة بعد أخرى. وكان للقبارصة كنس ببيروت وجماعة من التجار يسكنون فيها ولهم خانات وحمامات. ثم بطل ذلك وتكاثر حضور مراكب طوائف الفرنج. كانت

ضرائب الواردات والصادرات تؤخذ ببيروت وهي تبلغ جملة مستكثرة. وكان على باب الميناء دواوين وعامل وناظر ومشارف ...

«وكانت تعطى وظائف العمال فتحصل جامكية للمتولي وجوامك للقاضي والخطيب ولأربعين قَرَا غلام بخيول وعشرين مشاة وطبلخانات وكوسات وانقرة وزمر ومناظرية للبحر ورهجيّة وحمام بطاقة مدرج إلى دمشق وبريد. وقرّروا ايضاً اعلاماً نارية تصل الى دمشق في ليلة. فكانوا يشعلونها من ظاهر بيروت فتجاوبها نار في رأس بيروت العتيقة. ومنه إلى جبل بوارش ومنه إلى جبل يبوس ومنه إلى جبل الصالحية ومنه الى قلعة دمشق فكانت النار للحوادث في الليل وحمام البطاق للحوادث في النهار والبريد للأخبار.

«ولما جدد الأمير بيدمر نائب الشام سور بيروت على جانب البحر جعل أوّله من عند الحارة التي لنا على البحر واصلاً الى تحت البرج الصغير العتيق عمارة تنكز ... المعروف ببرج البعلبكية وجعل بين هذا السور وبين البرج المذكور باباً وركّب عليه سلسلة تمنع المراكب الصغار من الدخول والخروج فسمّي باب السلسلة»[١١].

في أواخر القرن السابع (الثالث عشر) استقر بنو بحتر أمراء منطقة الغرب اللبنانية على بيروت وكان لهم تسعون فارساً وانقسموا ثلاثة ابدال، في كل شهر بدل يقيم في بيروت ثلاثون فارساً. وفي ذلك يقول شاعر معاصر لهم:

يا ابن أمير الغرب شرقاً ومغربا ... ومن كل عرف غير عرفهم نكر
باحسانك المشهور بيروت بلدة ... على الساحل المعمور صار لها ذكر
تبسّم عجباً ثغرها وترنّحت ... معاطفها تيهاً وجلّلها البشر
وكان عليها الكفر والشرك دائماً ... فمذ حلها مولاي عاد لها الفخر
وعاودها أنس بقرب ركابكم ... ولولاكم ما افترّ يوماً لها ثغر
فعطف غصون الدوح أنّى حللتم ... تميس وثغر الروض بالنّور يفتر
بكم قرّ عيناً للغريب وانّما ... حسين بن خضر ظلّه فوقه ستر
هو الناصر المعروف بالجود والتقى ... له الفضل والاحسان والعطف والبر[١٢]

وقد وصل لنا وصف لبيروت من قلم رحالة اوروبي من أهل القرن التاسع (الخامس عشر) اسمه برتران دولا بروكييه يمكن تلخيصه بما يلي:

«ميناء بيروت جيد صالح للتجارة. لقيت في بيروت تاجراً بندقياً اسمه جاك برفيزين الذي نصحني بالسفر إلى دمشق حيث ألقى من التجار والقناصل الأوروبيين الكثيرين الذين يرشدونني إلى خير الطرق للعود برّاً إلى أوروبة.

«وشهدت احتفال المسلمين بأحد أعيادهم في بيروت. بدأ الاحتفال مساء فكانت الجماعات تسير في الشوارع فرحة طربة، والمدافع تطلق من القلعة احتفاء بالعيد،

وأطلقت السواريخ التي بلغت ارتفاعاً كبيراً ... وقد استطعت أن أتعرّف إلى سرّ هذه السواريخ، وحملت معي إلى فرنسا طريقة صنعها ونماذج منها. ذلك لأن هذه متى صنعت على مقياس كبير أمكن استعمالها لحرق السفن في البحر. وهذا ما بلغني اثناء اقامتي في الشرق.

«وقد نزلت أثناء اقامتي في بيروت في دار تاجر بندقي هو بول بربريكو ... وهذا دبّر لي مكاراً يحملني إلى الناصرة ويعيدني إلى دمشق ويعود إلى بول بوثيقة مني تعرفه جملة أخباري وسلامتي. وقد أشار علي المكار أن أرتدي ثياباً شرقية ففعلت»[١٣].

قلنا إن بني بحتر أُمراء الغرب استقروا في بيروت، ولعلّ أبرزهم ذكراً بالنسبة لبيروت خاصة هو ناصر الدين الحسين من اهل القرن الثامن (الرابع عشر). ويبدو ان ايامه كانت أيام خير على المدينة وما اليها. والذي خلفه لنا مؤرخ بيروت صالح بن يحيى دليل على ذلك. قال صالح عن ناصر الدين الحسين وايامه:

«كان سيداً من السادات المعدودين، نال الرتبة العالية في قومه وشيّد البيت وولي رئاسته وسياسته. وكانت أيامه غرر الأيام وزمانه رائد الابتسام، عاش في أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون وتنكز نائبه بالشام. وكان الزمان ساكناً بأهله راقداً عن الحوادث. وكانت سيرته احسن سيرة من إسداء المعروف واغاثة الملهوف، شكره الناس ولحظوه بعين الوقار. وكانت كتابته مليحة مع بلاغة وفصاحة. وكان يحب سماع الشعر وحفظه. قيل إنه كان يحفظ أغلب ديوان شعر المتنبي. وكان يسأل اصحابه عن نسخ ديوانه القديمة فيحضرونها له. وقد وجد بين كتبه اربع نسخ من ديوان هذا الشاعر وهي من اقدم النسخ واعتقها. ونظم الشعر الرقيق ورغب في جمع الكتب وحصّل منها شيئاً كثيراً أغلبها دواوين شعر وتواريخ. وكان قد اشتهر اسمه فقصده الناس ومدحه الشعراء»[١٤].

وفي ناصر الدين الحسين وأهله وضع محمد بن علي الغزي مقامة طويلة جاء فيها عن ناصر الدين «هل في الشام من يشيم غير بروق سحائبه، او يروقه غير جمال كتبه وجميل كتائبه. فالجد والجدوى وقف على سيفه وقلمه، والعفاف والتقوى من طباعه وشيمه، غالباً بآرائه الغنيّة عن الرايات، بالغاً بآلائه غايات النهاية ونهاية الغايات، مع كتابة كالروض باكره من كفّه وسمي الغمام، وبلاغة تفعل بالعقول ما لا يفعله المدام»[١٥].

والذي وصل إلينا ان بني بحتر عامة، وناصر الدين بصفة خاصة، بنوا في بيروت كثيراً. فمن ذلك قصره الذي أراده أن يكون مجاوراً للبحر، فلما سكن ناصر الدين داره الجديدة قال جمال الدين حجي من قصيدة:

آنستم الدار الجديدة مغرباً ووحشتم الدار القديمة مشرقا

ما أبصرت عيناي بحراً جامعاً في جامع من فوق بحر أزرقا[١٦]

وبني في بيروت حمّام باسم تنكز المملوكي فنظم ناصر الدين الحسين شعراً أشاد فيه بالملك الناصر المملوكي:

وحمّام يروق العين حسناً تحيط به المسرّة والنعيم
يريك الماء يسرح فوق درّ تزول به لمنظره الهموم
كأن حبابه والجام فيه سماء طالعات بها نجوم
وقد رفعت لمن شاء المعالي وأضحى على الملوك لها زعيم
به أمن الشآم وساكنوه وطيبة والمشاعر والحطيم
به الاسلام أصبح في انتصار وجمع الشرك مغلول هزيم
فإن الناصر المنصور سيف وفي قلب العدوّ به كلوم
وان الناصر المنصور رمح به يتوطّد الدين القويم
وان الناصر المنصور درع به يتنقّض الأمر الجسيم
فأهل الشام والاسلام جمعاً دعاهم ان دولته تدوم
وان يعطى خلوداً في سعود مدى الأيام ما هبّ النسيم[١٧]

كان ناصر الدين الحسين مقصداً للوارد والصادر ذا مكارم ورياسة وسياسة. شاد البيت وساده ورغب في حسن الكتابة والبلاغة فجمع الكتب فائتم به البيت فحسنوا كتابتهم وبلاغتهم وتزايدت محاسنهم ونظرهم في العلوم واتقان الصنائع. ولذلك لا نستغرب أن يقيم في بلاطه العلماء مثل البعلبكي الطبيب المشهور، وان يمدحه الشعراء. فمن ذلك قصيدة للغزي جاء فيها:

حيا الحيا غرب بيروت ومن فيه وجود كف ابن سعد الدين تكفيه
غرب غدا مشرقاً للجود ما برحت شمس المكارم تضحي في ضواحيه
فللجحافل ما تحوي حشاشته وللمحافل ما تحوي أياديه
وللتقى منه ما ضمّت بواطنه وللحيا منه ما ضمّت مآقيه
وللفضائل والأفضال منطقة وللمحاسن والاحسان ناديه
هل للحسين بن خضر في الورى احد جواداً يباهيه او بأساً يضاهيه
ان قلت ليثاً فما لليث همّته إذا سطا يوم حرب في أعاديه
او قلت غيثاً فما للغيث موقعه في النقع ما بين قاصيه ودانيه
او قلت بحراً فأين البحر من رجل لو أعطي البحر أعطاه بما فيه
من زيّن الدين والدنيا بطلعته فالله يبقي أباه ثم يبقيه
قد خصّه الله من أعمامه كرماً بمعشر من صروف الدهر تفديه[١٨]

والظاهر ان بني بحتر لم يحذقوا الحكم والشعر والادب فحسب، بل كانوا ماهرين في الصنائع. فعز الدين جواد كان يتوفر على صنع المينا على الحلي والسيوف واللجم الفضية. والأمير ناصر الدين محمد، على رواية صالح بن يحيى: «كان ذا عقل ومعرفة وحسن رأي وتدبير عيش محسناً في تصريف أموره جيّد السياسة لنفسه حاسباً للعاقبة جازماً لرأيه متفكراً في أحواله متذكراً لأخبار الاقدمين قبله عنده خبرة بأخبار السلف ومعرفة لأنسابهم وتقلباتهم بالدول وما كان من حوادث الأيام السالفة. ومع هذا كان حسن الطريقة مشكور البصيرة محباً لأهل الخير يعرف مقادير الناس. وكان له نظر وبصيرة في الهندسة والصنائع حاذقاً بعدّة صنائع. فصياغته حسنة ولم يروا في زمانه أحسن ضرباً منه بالمطرقة وأحذق في النجارة والخراطة وعمل الكرالك. وكان إذا وضع يده في شيء اتقنه. وكتابته حسنة وبالجملة كان عنده دربة وخبرة في ما يعنى به»[١٩].

وقد تغيرت بيروت في تاريخها كثيراً. فما أكثر ما أنهكتها الزلازل والحروب. ولكنها كانت دوماً تنهض وترتفع. وكيف يستغرب هذا من مدينة ترتكز الى جبال لبنان الشماء التي تمدها بالقوة، وتتجه نحو البحر الذي يوسع آفاقها!

الهوامش

(١) زياده، نقولا: العالم القديم، يافا، ١٩٤٦ ج ٢، ص ٣٠٣ـ٣٠٤.
(٢) نفس المكان، ص ٣٠٤.
(٣) نفس المكان، ص ٣٠٦ـ٣٠٧.
(٤) شيخو، لويس: بيروت: تاريخها وآثارها، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٢٥، ص ٤١.
(٥) لامنس، هنري «الزلازل في بيروت»، المشرق، ج ٢ (١٨٩٩)، ص ٩٧.
(٦) ابن يحيى، صالح: تاريخ بيروت، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٠٢، ص ١٦.
(٧) نفس المكان، ص ٢٣ـ٢٤.
(٨) ابن حوقل، ص ١٧٦، والاصطخري، ص ٦٥.
(٩) تاريخ بيروت، ص ٥٨ـ٥٩.
(١٠) رواد الشرق العربي، ص ١٣٩.
(١١) تاريخ بيروت، ص ٥٩ـ٦١.
(١٢) نفس المكان، ص ٦٤.
(١٣) رواد الشرق العربي، ص ١٩٥.
(١٤) تاريخ بيروت، ص ١٢٠ـ١٢١.
(١٥) نفس المكان، ص ١٢٢.
(١٦) نفس المكان، ص ١٥٠.
(١٧) نفس المكان، ص ١٥٦ـ١٥٧.
(١٨) نفس المكان، ص ١٥٩.
(١٩) نفس المكان، ٢٣٩

٢٠ـ صَيدَا وَصُور

توأمان اعدهما الدهر للحدثان، فوضعهما على شاطىء البحر المتوسط، وأحاطهما بالارض الخصبة والماء الغزير، ومتعهما بالمنعة تحميهما قلعة هنا وقلعة هناك، ويدر عليهما الخير بحر ما بخل على نشيط ولا تنكر لصاحب عزم.

مر بصيدا ابن الساعاتي الشاعر فرأى مروجاً كثيرة نباتها النرجس، وسمع أن اسيراً هرب فرُد حالاً، فقال في ذلك:

لله صيداء من بلاد	لم تبق عندي بلى دفينا
نرجسها حلية الفيافي	قد طبق السهل والحزونا
وكيف ينجو بها هزيم	وارضها تنبت العيونا

وصور، على ما وصفها ياقوت، «مشرفة على بحر الشام داخلة في البحر مثل الكف على الساعد يحيط بها البحر من جميع جوانبها الا الرابع الذي منه شروع بابها»[١].

من هاتين المدينتين ابحر أول مركب يحمل أول حرف الى الجزر النائية، ومن صور خرجت اليسار التي أنشأت أكبر مجلى من مجالي الحضارة الفينيقية خارج لبنان. والى هاتين المدينتين كانت تأتي سفن الجنوب والشمال حاملة المتجر للبيع، والنقود للشراء.

وها نحن نقرأ في حزقيال عن صور قوله «يا صور أانت قلت أنا كاملة الجمال .. تخومك في قلب البحور. بنّاؤوك تمّموا جمالك، عملوا كل ألواحك من سرو سنير. أخذوا أرزاً من لبنان ليصنعوه لك سواري. صنعوا من بلوط باشان مجاذيفك. صنعوا مقاعدك من عاج مطعّم. كتّان مطرّز من مصر هو شراعك ليكون لك راية. أهل صيدون وارواد كانوا ملاحيك. حكماؤك يا صور الذين كانوا فيك هم ربابينك. شيوخ جبيل وحكماؤها كانوا فيك ... جميع سفن البحر وملاحوها كانوا فيك ليتاجروا بتجارتك ... تاجروا في أسواقك بالبهرمان والأرجوان والمطرز والبوص والمرجان والياقوت ... بحنطة منيت وحلاوي وعسل وزيت وبلسان. دمشق تاجرتك بكثرة صنائعك ... أنواع الطيب وبكل حجر كريم والذهب أقاموا أسواقك»[٢].

وتقلبت الايام، وجاء الاقوام فحاربوا أهل صور وصيدا، ودافع هؤلاء عن

المدينتين، وما أكثر ما تمكن المغير من الانتصار والغلبة والفتح، ولكنه لم يتمكن قط من قهر الصوريين أو الصيدانيين، وان كان تغلب على صور وصيدا. ومع أن اموراً كثيراً تعاقبت على المدينتين فأخرتهما، فقد كانتا تقومان المرة بعد المرة.

قال المقدسي، وهو من أهل القرن الرابع (العاشر)، في كتابه احسن التقاسيم: «وصور مدينة حصينة على البحر، بل فيه. يدخل اليها من باب واحد على جسر واحد. قد احاط البحر بها ونصفها الداخل حيطان ثلاثة بلا أرض تدخل فيه المراكب كل ليلة ثم تجر السلسلة التي ذكرها محمد بن الحسن في كتاب الاكراه. ولهم ماء يدخل في قناة معلّقة. وهي مدينة جليلة نفيسة بها صنائع ولهم خصائص. وبين عكا وصور شبه خليج ولذلك يقال عكا حذاء صور، الا انك تدور»[٣].

وفي القرن الخامس (الحادي عشر) مر ناصري خسرو الرحّالة الفارسي المشهور بصيدا وصور. فقال عن الأولى: «ثم توجهنا الى مدينة صيدا، وهي على شاطىء البحر أيضاً، يزرع بها قصب السكر بوفرة. وبها قلعة حجرية محكمة، ولها ثلاث بوابات. وفيها مسجد جمعة جميل يبعث في النفس هيبة تامة، وقد فرش كله بالحصير المنقوش، وفي صيدا سوق جميل نظيف، وقد ظننت، حين رأيته، أنه زين خاصة لمقدم السلطان أو لأن بشرى سعيدة أذيعت، فلما سألت قيل لي هكذا عادة هذه المدينة دائماً، وفيها حدائق وأشجار منسقة حتى لنقول إن سلطاناً هاوياً غرسها وفي كل من هذه الحدائق كشك، وأغلب شجرها مثمر»[٤].

ثم انتقل إلى صور فوصفها بقوله: «وبعد مسيرة خمسة فراسخ على شاطىء البحر بلغنا مدينة صور، وهي ساحلية أيضاً. وقد بنيت على صخرة امتدت في الماء، بحيث ان الجزء الواقع على اليابس من قلعتها لا يزيد على مائة ذراع، والباقي ماء البحر. والقلعة مبنية بالحجر المنحوت الذي سدت فجواته بالقار حتى لا يدخل الماء من خلله. وقد قدرت المدينة بألف ذراع مربع. وأربطتها من خمس أو ست طبقات، وكلها متلاصقة، وفي كثير منها نافورات، وأسواقها جميلة كثيرة الخيرات. وتعرف مدينة صور، بين مدن ساحل الشام، بالثراء، ومعظم سكانها شيعة. والقاضي هناك رجل سني اسمه ابن أبي عقيل، وهو رجل طيب ثري. وقد بني على باب المدينة مشهد به كثير من السجاجيد والحصير والقناديل والثريات المذهبة والمفضضة. وصور مشيدة على مرتفع، وتأتيها المياه من الجبل. وقد شيد على بابها، عقود حجرية، يمر الماء من فوقها إلى المدينة، وفي الجبل واد مقابل لها، اذا سار السائر فيه ثمانية عشر فرسخاً ناحية المشرق بلغ دمشق»[٥].

وقد تحدث بعض الكتاب الفرنج الذين أقاموا في المنطقة ايام الصليبيين عن صور وصيدا وجهاتهما فكان جماع ما قالوه «القطن ينمو في أنجم يبلغ طولها إلى ركبة الرجل ... وينمو قصب السكر ... وداخله مليء بمادة مسامية رطبة. يجمع القصب

ويقطع صغيراً ويعصر ويغلى العصير الذي يخرج منه، ومتى صار لزجاً يوضع في سلال مصنوعة من العساليج، فيجف ويصبح صلباً. وهكذا يصنع السكر. ويتقطر منه قبل أن يجفّ سائل يسمى عسل السكر، وهو لذيذ ويستعمل في صنع الكعك.

«ويزرع قصب السكر بطريق العُقَل. وموعد غرسه في فصل الربيع»[٦].

على ان صور كان من حسن حظها ان مرّ بها ابن جبير في القرن السادس (الثاني عشر) وكانت بعد بأيدي الصليبيين فوصفها بعبارته الأنيقة فقال: «مدينة يضرب بها المثل في الحصانة، لا تُلقي لطالبها بيد طاعة ولا استكانة. قد أعدها الافرنج مفزعاً لحادثة زمانهم وجعلوها مثابة لأمانهم. هي أنظف من عكّة سِككا وشوارع ... وأجرى الى برّ غرباء المسلمين شمائل ومنازع، فخلائقهم اسجح، ومنازلهم اوسع وأفسح ... واما حصانتها ومنعتها فاعجب ما يحدّث به. وذلك انها راجعة إلى بابين احدهما في البرّ والآخر في البحر وهو يحيط بها الا من جهة واحدة فالذي في البر يُفضى اليه بعد ولوج ثلاثة أبواب أو أربعة كلّها في ستائر مشيدة محيطة بالباب. واما الذي في البحر فهو مدخل بين برجين مشيدين إلى ميناء ليس في البلاد البحرية أعجب وضعاً منها، يحيط بها سور المدينة من ثلاثة جوانب ويحدق بها من الجانب الآخر جدار معقود بالجصّ. فالسفن تدخل تحت السور وترسى فيها وتعترض بين البرجين المذكورين سلسلة تمنع عند اعتراضها الداخل والخارج فلا مجال للمراكب الا عند ازالتها. وعلى ذلك الباب حراس وأمناء لا يدخل الداخل ولا يخرج الخارج الا على اعينهم. فشأن هذه الميناء شأن عجيب في حسن الوضع. ولعكّة مثلها في الوضع والصفة لكنها لا تحمل السفن الكبار حمل تلك، وانما ترسى خارجها. والمراكب الصغار تدخل اليها فالصوريّة اكمل وأجمل وأحفل»[٧].

ولما كان ابن جبير دقيق الملاحظة كبير الاهتمام بمظاهر الحياة الاجتماعية، فقد ترك لنا وصفاً لعرس تم في صور أيام اقامته فيها قال: «ومن مشاهد زخارف الدنيا المحدّث بها زفاف عروس شاهدناه بصور في احد الأيام عند مينائها. وقد احتفل لذلك جميع النصارى رجالاً ونساء، واصطفّوا سماطين عند باب العروس المهداة والبوقات تضرب والمزامير وجميع الآلات اللهويّة، حتى خرجت تتهادى بين رجلين يمسكانها من يمين وشمال كأنهما من ذوي أرحامها، وفي أبهى زيّ وأفخر لباس، تسحب أذيال الحرير المذهّب سحباً على الهيئة المعهودة من لباسهم. وعلى رأسها عصابة ذهب قد حفّت بشبكة ذهب منسوجة، وعلى لبّتها مثل ذلك منتظم، وهي رافلة في حليّها وحللها تمشي فتراً في فتر مشي الحمامة، او سير الغمامة ... وامامها جلة رجالها من النصارى في أفخر ملابسهم البهيّة تسحب أذيالها خلفهم، ووراءها اكفاؤها ونظراؤها من النصرانيات يتهادين في أنفس الملابس ويرفلن في أرفل الحلى. والآلات اللهويّة قد تقدّمتهم. والمسلمون وسائر النصارى من النّظار قد عادوا في

طريقهم سماطين يتطلّعون فيهم ولا ينكرون عليهم ذلك، فساروا بها حتى أدخلوها دار بعلها. واقاموا يومهم ذلك في وليمة فأدّانا الاتفاق الى رؤية هذا المنظر الزخرفي»[٨].

في اواخر القرن السابع (الثالث عشر) خرج الصليبيون من ديار المشرق، وكانت المدن المختلفة قد أصابها شر كبير من الحروب المتواصلة، فلما جاء ابن بطوطة صور في القرن الرابع عشر قال عنها إنها «خراب وبخارجها قرية معمورة»[٩]. اما عن صيدا فقد قال ابن بطوطة: «ثم سافرت الى مدينة صيدا، وهي على ساحل البحر، حسنة كثيرة الفواكه، يحمل منها التين والزبيب والزيت إلى بلاد مصر. نزلت عند قاضيها كمال الدين الأشموني المصري، وهو حسن الأخلاق كريم النفس»[١٠].

ومع ان صور لم تقم من كبوتها بعد الذي أصابها، فإن صيدا أتيح لها ان تتمتع بأيام غر لما اتخذ منها الأمير فخر الدين الثاني مركزاً لتجارة لبنان. وأخبار هذه الفترة كثيرة نقتصر منها على مثل واحد يعود الى سنة ١٠٣٣ [١٦٢٣] رواه الأمير حيدر الشهابي قال: «قدمها [صيدا] ثمانية مراكب مغاربة من جهة تونس وكان راس في المينا مراكب فرنساوية وفلامنكية فطلبوا عشرة آلاف غرش فامتنعوا عن إعطائهم وقربوا مراكبهم لتحت قلعة البلدية فأتت المغاربة على نية الحرب وضربوهم بالمدافع. فالشواطىء حمت نفسها واستمر إطلاق المدافع بينهم ذلك النهار بطوله وعند الغروب ذهبت المغاربة ورست المراكب بعيدة عن الميناء. وهذا جرى بين المغاربة والفرنساويين. اما مراكب الفلامنك فلم يتعرضوا لها. فلما سمع الأمير فخر الدين ذلك الخبر رحل من صور الى صيداء ليلاً فوصلها عند طلوع الشمس وأرسل الى المغاربة قوارب تسألهم عن مرادهم فلما علموا بوصول الأمير والعسكر أقلعوا وأبعدوا في البحر وأقام الأمير في صيدا ثلاثة أيام»[١١].

وممن زار صيدا وأعجب بها الشيخ عبد الغني النابلسي الذي نظم الأبيات التالية في تلك المدينة قال:

صاد قلبي هوى الأحبة صيدا ... عندما جئت قاصداً أرض صيدا
بلدة طاب رونق البحر فيها ... فأزالت عنا من الهم قيدا
أعجبتني لطافة الماء منها ... والهواء الذي انبرى ترديدا
ساحل مطلق الجوانب غض ... يقذف الدر من حصاه نضيدا
فيه صحب لنا هناك كرام ... كل شهم منهم يلوح فريدا
يحفظون الوداد بالصدق حتى ... من أتاهم لا يعرف التنكيدا
صانهم ربهم وخص حماهم ... بالمعالي فلا يزال مشيدا
أمد الدهر ما النسائم هبت ... وسمعنا طير الربى غريدا

الهوامش

(١) ياقوت، ج ٣، ص ٤٣٣.
(٢) حزقيال، اصحاح ٢٧، عدد ٣ـ٢٢.
(٣) المقدسي، ص ١٦٣ـ١٦٤.
(٤) خسرو، ناصري: سفرنامه، ص ١٤ـ١٥.
(٥) نفس المكان، ص ١٥.
(٦) رواد الشرق العربي، ص ١٦٥.
(٧) ابن جبير: رحلة ابن جبير، ليدن، بريل، ١٩٠٧، ص ٣٠٤ـ٣٠٥.
(٨) نفس المكان، ص ٣٠٥ـ٣٠٦.
(٩) ابن بطوطة، ج ١، ص ١٣٠.
(١٠) نفس المكان، ج ١، ص ١٣١ـ١٣٢.
(١١) الزين أحمد عارف: تاريخ صيدا، صيدا، مطبعة العرفان، ١٩١٣، ص ٦٥.

٢١ـ حَلَب

إذا هبطت شمال سورية، رأيت نفسك في سهل متسع خصب تتوسطه حلب، وتقتعد فيه مفارق طرق تتجه نحو شمال العراق وآسية الصغرى وديار الشام. لذلك كانت حلب دوماً، منذ أن أنشئت قبل نحو أربعة آلاف سنة، مدينة ثرية رخية لا تخيب أمل قاصد ولا تبخل على طالب. وقد تدخلت الأسطورة في تفسير اسمها، فقد روي أن ابراهيم كان «إذا اشتمل من الأرض المقدسة ينتهي الى هذا التل فيضع به اثقاله ويبث رعاياه إلى نهر الفرات والى الجبل الأسود. وكان مقامه بهذا التل يحبس فيه بعض الرعاة بما معهم من الأغنام والمعز والبقر. وكان الضعفاء إذا سمعوا بقدومه أتوه من كل وجه من بلاد الشمال فيجتمعون مع من اتبعه في الأرض المقدسة لينالوا من بره، فكان يأمر الرعاة بحلب ما معهم طرفي النهار ويأمر ولده وعبده باتخاذ الطعام. فإذا فرغ له منه أمر بحمله الى الطرق المختلفة بازاء التل ليتصدق به على الضعفاء والمساكين فينادى الضعفاء: ابراهيم حلب. ابراهيم حلب. فيبادرون إليه. وغلبت هذه اللفظة لطول الزمان على التل كما غلبت غيرها من الأسماء على ما هو مسمى به فصار علماً بالغلبة»[1].

وقد اختصت حلب بأمور كثيرة لا توجد في غيرها أو على الأقل لا يجاريها غيرها فيها تماماً. وقد اجمل الكتاب والمؤلفون ذلك فقالوا: «فمن ذلك حسن ترتيبها، واعتدال بقعتها، وعذوبة مائها، وطيب هوائها، وحسن خلق أهلها وخلقهم، وسلامة صدورهم من المكر والخديعة، وصفاء ألوانهم، وجودة أفكارهم، ودقة نظرهم في العلوم.

«قال لي شيخي: يا ولدي، إن أهل الديار المصرية أحسن بديهة من أهل حلب وأهل حلب أحسن رؤية منهم. واما صفاء قرايحهم واعتدال طبائعهم، ومحبتهم للغرباء، واعتقادهم مع انتقادهم، وذكاء زروعهم وجودة ثمارهم، ورصانة غلاتهم فأمر مشاهد بالعيان لا يدفعه إلا مكابر او أكمه لا يعرف القمر...

«ومما اختصت به ماء الورد النصيبي الذي يستخرج بالباب من اعمالها فإنه لا يوجد في الدنيا مثله بحيث لا يقاربه شيء مما يجلب إلى الديار المصرية من الشام ولا يدانيه، مع ان المجلوب من دمشق عند المصريين في غاية العظمة بحيث يصفه اطباؤهم للمرضى فيقولون ماء ورد شامي. وينبت في أرضها زهرة يسمونها القرنفل، طيبة الرائحة يستقطر ماؤها وهو زكي الرائحة ايضاً...

«ومما اختصت به الصابون الذي يجلب منها إلى ممالك الروم والعراق وديار بكر، وهو افخر الصابون، ويباع بحلب في اليوم الواحد منه ما لا يباع في غيرها في الاشهر. ومن خصائصها نفاق ما يجلب اليها من البضائع كالحرير والصوف واليزري والقماش العجمي وانواع الفرا من السمور والوشق والفنُك والسنجاب والثعلب وسائر الوبر. والبضائع الهندية واجناس الرقيق من الجركس والترك والروم وسائر الاجناس. فإنه قد يتفق أنه يباع فيها في يوم واحد ما لا يباع في غيرها في شهر. كل ذلك باطيب ثمن وارغبه. مثلاً اذا احضر اليها مائة حمل حرير فانه يباع في يوم واحد ويقبض ثمنه ولو حضر إلى القاهرة التي هي أم البلاد عشرة أحمال لا تباع في شهر وعلى هذا فقِس»[٢].

عرفت حلب عصرين مزدهرين في تاريخها العربي الطويل. اما اولهما فكان عصر الحمدانيين في القرن الرابع (العاشر)، والثاني أيام الأتابكة والأيوبيين. زارها المقدسي في القرن الرابع (العاشر) فقال في وصفها: «وأما حلب فبلد نفيس خفيف حصين وفي أهلها ظرف ولهم يسار وعقول. مبنيّ بالحجارة عامر، في وسط البلد قلعة حصينة واسعة، فيها ماء وخزائن السلطان والجامع في البلد، شربهم من نهر قويق يدخل الى البلد الى دار سيف الدولة في شباك حديد. والقصبة ليست بكبيرة، الا ان بها مستقر السلطان، لها سبعة أبواب»[٣].

والحمدانيون كانوا أهل كرم وشجاعة، كما ان منهم الشعراء. وشعر أبي فراس الحمداني من رفيع الشعر. وقد أَسره الروم خمس سنوات فنظم شعراً كثيراً. من ذلك قصيدته التي منها:

اراك عصي الدمع شيمتك الصبر ... اما للهوى نهي عليك ولا أمر
اسرت وما صحبي بعزل لدى الوغى ... ولا فرسي مهر ولا ربه غمر
ولكن اذا حمّ القضاء على امرئ ... فليس له برّ يقيه ولا بحر
يمنون ان خلوا ثيابي وانما ... علي ثياب من دمائهم حمر
وقائم سيفي فيهم اندق نصله ... واعقاب رمحي فيهم حطم الصدر
ونحن اناس لا توسط بيننا ... لنا الصدر دون العالمين او القبر
تهون علينا في المعالي نفوسنا ... ومن خطب الحسناء لم يغله مهر
اعز بني الدنيا واعلا ذوي العلا ... واكرم من فوق التراب ولا فخر

وبلدة كحلب بحاجة إلى قلعة تحميها وسور يدرأ عنها الأعداء. ويبدو أَن حكام حلب، في كل دور من أدوار تاريخها، كانوا حريصين على أن يعمروا القلعة والأسوار. فقد قال عنها المهلّبي من أهل القرن الخامس (الحادي عشر): «أما حلب فهي قصبة قنسرين العظيمة ومستقر السلطان. وهي مدينة عامرة آهلة عليها سور من حجر وفي

وسطها قلعة على تل. وتلك القلعة لا ترام. وعليها سور حصين. ويجلب من الكور والضياع ما يجمع من سائر الغلات النفيسة»[٤]. على ان القلعة بلغت درجة أكبر من المنعة في ايام الأتابكة والأيوبيين. فقد كان فيها، بالاضافة الى الأسوار والحصون، مصنع الخندق ودور كبيرة، منها، دار رضوان التي قال الرشيد عبد الرحمن بن النابلسي في وصفها:

دار حكت دارين في طيب ولا ... عطر بساحتها ولا عطار
رفعت سماء عمادها فكأنها ... قطب على فلك السعود يدار
وزهت رياض نقوشها فبنفسج ... غض وورد يانع وبهار
نور من الاصباغ مبتهج ولا ... نور وازهار ولا ازهار
ما اينعت فيها الصخور وأورقت ... الا وفيها من نداك بحار[٥]

وقال ابن العديم في تاريخه: «وكان بهذه القلعة جرس كالتنور العظيم معلق على برج من ابراجها الغربية، وكان الجرّاس يحركه ثلاث دفعات في الليل. دفعة في اوله لانقطاع الرجل عن السعي. وأخرى في وسطه للبديل. وأخرى في آخره للاعلام بالفجر»[٦].

وقد روى المؤرخون ان حلب في تلك الفترة كان فيها عشرون جامعاً تقام فيها صلاة الجمعة، اكبرها الذي جدد بناءه نور الدين زنكي «وقطع الاعمدة الصفر من بُعادين ونقل اليه عمد مسجد قنسرين ... فنقض [نور الدين] السوق واضافه الى الجامع»[٧]. وكان في الجامع صهريج كبير روى ابن العديم قصته قال: «كان بعض السلف من أهل حلب واعيانها متولياً على اوقاف الجامع بحلب فاتاه انسان لا يعرفه فطرق عليه الباب ليلاً ودفع اليه الف دينار وقال له: اصرفها في وجه برّ ومعروف. فاخذها وافتكر في وجه بر يصرف ذلك المال فيه. فوقع له أن يصرفه في عمارة مصنع يخزن فيه الماء من القناة فان منابيع حلب ماؤها مالح. وكان العدو يطرق مدينة حلب كثيراً فاذا قطع عنها ماء قناة حيلان تضرر أهلها ضرراً عظيماً. فرأى ان يعمل مصنعاً في صحن الجامع المذكور مدفوناً تحت أَرضه وان يوسعه بحيث يسع ماء كثيراً. فشرع في ذلك وحفر حفيرة عظيمة واسعة واشترى الحجارة والكلس وعقد المعلمون المصنع. وفرغ الذهب المحمول اليه ولم يتم المصنع. فضاق صدره وتقسم فكره في طريق يتوصل به الى اتمام هذا الخير. فطرق عليه الباب الطارق الأول ليلاً فخرج فوجد ذلك الانسان بعينه فدفع اليه الف دينار أخرى وقال له: اتم عملك بهذه. فاخذها وتم بها عمل ذلك المصنع، فجاء في غاية السعة والركانة واتقان العمل. وهو يأخذ معظم ما تحت صحن الجامع»[٨].

ولأبي بكر الصنوبري قصيدة مدح فيها حلب وذكر جامعها الكبير قال:

حلب بدر دجى انجمها الزهر قراها
حبذا جامعها الـ جامع للنفس تقاها
موطن يرسي ذوو البر لمرساه جباها
شهوات الطرف فيه فوق مـا كان اشتهاها
قبلة كرمها الله بنور وحبباها
ورآها ذهباً في لازورد من رآها
ولفوّارته ما لا تراه بسواها
قصعة ما عدت الكعب ولا الكعب عداها
ابداً تستقبل السحب بسحب من حشاها
فهي تسقي الغيث ان لم يسقها او إن سقاها
كنفتها قبة تضحك عنها كتفاها
قبة ابدع بانيها بِناها اذ بناها»[٩].

والى جانب الجامع نجد في حلب البيمارستان النوري الذي بناه نور الدين. وقد روى ابن الشحنة قصة بنائه قال: «يقال إن الملك العادل نور الدين تقدم الى الاطباء ان يختاروا من حلب اصح بقعة صحيحة الهواء لبناء البيمارستان بها فذبحوا خروفاً وقطعوه أربعة ارباع وعلقوها بارباع المدينة ليلاً. فلمّا اصبحوا وجدوا احسنها رائحة الربع الذي كان في هذا القطر فبنوا البيمارستان فيه. ووقف عليه قرى كثيرة».

وكان بين زوار حلب ابن جبير الرحالة المغربي الكبير (القرن السادس/الثاني عشر)، فأعجب بها وقال عنها: «واما البلد فموضوعه ضخم جداً حفيل التركيب بديع الحسن واسع الاسواق كبيرها متصلة الانتظام مستطيلة، تخرج من سماط صنعة الى سماط صنعة أخرى الى ان تفرغ من جميع الصناعات المدنية. وكلها مسقف بالخشب فسكانها في ظلال وارفة. فكل سوق منها تقيد الابصار حسناً وتستوقف المستوفز تعجباً. واما قيساريتها فحديقة بستان نظافة وجمالاً، مطيفة بالجامع المكرم لا يتشوق الجالس فيها مرأى سواها، ولو كان من المرائي الرياضية. وأكثر حوانيتها خزائن من الخشب البديع الصنعة، قد اتصل السماط خزانة واحدة وتخللتها شُرَف خشبية بديعة النقش وتفتحت كلها حوانيت فجاء منظرها اجمل منظر، وكل سماط منها يتصل بباب من ابواب الجامع المكرم ... ولكن قراها عامرة منتظمة لأنها على محرث عظيم مد البصر عرضاً وطولاً ... وخانات هذا الطريق كأنها القلاع امتناعاً وحصانة وأبوابها حديد. وهي من الوثاقة في غاية»[١٠].

وقال ابن فضل الله العمري: وحلب «تاهت بهم شرفاً على كيوان ثم جاءت الدولة الاتابكية فزادت فخاراً واتخذت لها من بروج السماء منطقة وسواراً ولم تزل على هذه

يشار اليها بالتعظيم. وتأبى أهلها في الفضل عليها لدمشق التسليم. حتى وطئها هولاكو بحوافر خيله وأقام عليها، مفرقاً في اقطار الشام بعوث سراياه وجنوده فهدمت اسوارها واخربت حواضرها فاصبحت يرثي لها الشامت ويبكي لها اللاهي. وهي على ما توالى عليها من المحن واطاف بها من نوب الايام مصر جامع ومبصر رائع وبلد راتع مبنية بالحجر الاصفر الذي لا يوجد في البلاد مثله. وهي أوسع الشام بلاداً واوطاها اكنافاً ولها المرج الفسيح والبر الممتد حاضره وباديته، وبها منازل عربان واتراك، وبها جند كثيف وامم من طوائف العرب والتركمان وبلادها متصلة بسيس والروم وديار بكر وبرية العراق وفي اعمالها وادي الباب»[١١].

وابن شداد يقول عن حلب: «على كل حال فانها اعظم البلاد جمالاً، وافخرها زينة وجلالا. مشهورة الفخار، عالية البنا والمنار. ظلها ضاف، وماؤها صاف، وسعدها واف، ووردها لعليل النفوس شاف. وأنوارها مشرقة، وأزهارها مونقة، واشجارها مثمرة مورقة. نشرها اضوع من نشر العبير، وبهجتها ابهج منظراً من الروض في الزمن النضير. خصيبة الاوراق. جامعة من اشتات الفضائل ما يعجز عنه الافاق. لم تزل منهلاً لكل وارد. وملجأ لكل قاصد. يستظل بظلها العفاة. ويقصد خيرها من كل الجهات. لم تر العيون اجمل من بهائها. ولا اطيب من هوائها. ولا احسن من بنائها. ولا اظرف من ابنائها. فلله درّ القائل حيث يقول حين حلّ بفنائها وشاهد ما يقصر عنه الوصف من محاسن ابنائها:

«حلب تفوق بمائها وهوائها ... وبنائها والزهو من ابنائها
نور الغزالة دون نور رحابها ... والشهب تقصر عن مدى شهبائها
طلعت نجوم النصر من ابراجها ... فبروجها تحكي بروج سمائها
والسور باطنه ففيه رحمة ... وعذاب ظاهره على اعدائها
بلد يظل به الغريب كأنه ... في اهله فاسمع جميل ثنائها»[١٢].

نهر حلب نهر صغير اسمه قويق، يجري في الشتاء والربيع، ويجف في الصيف والخريف. وقد استوحاه الشعراء كثيراً. فمن ذلك قول الصنوبري يصف هذا النهر:

قويق اذا شم ريح الشتاء ... اظهر تيهاً وكبراً عجيبا
وناسب دجلة والنيل والفرات ... بهاء وحسناً وطيبا
وان اقبل الصيف ابصرته ... ذليلاً حقيراً حزيناً كئيبا
اذا ما الضفادع نادينه ... قويق قويق ابى ان يجيبا[١٣]

ومما وصف به النهر قول ابن الخضر الحلبي:

ما بردى عندي ولا دجلة ... ولا مجاري النيل من مصر
احسن مرأى من قويق اذا ... اقبل في المد وفي الجزر

يا لهفاً منه على نغبةٍ تبل مني غلة الصدر[١٤]

ومتنزهات حلب كثيرة، عدد منها ابن الشحنة ما يزيد على عشرة ثم ختم ذلك بقوله: «ولو ذكرنا ما قيل في كل واحد من هذه المتنزهات من النظم والنثر لطال الكلام جداً. وقد اقتصرنا من ذكر محاسن حلب على بعض الغرض. ولم نرد ما لها علينا من الشكر المفترض. وناهيك ببلاد نباتها الشيح والقيصوم. وفتيت ظبائها اطيب من كثير من المشموم. ولم استوعب من ذلك غاية المنقول. فلا تلمني يا أخي فاني اقول:

«ولا غرو ان كثرت ذكر محاسن لأول أرض مسَّ جلدي ترابها
وربع به كان الشباب مصاحبي فزهرة اعمار الرجال شبابها»[١٥].

الهوامش

(١) ابن الشحنة، محب الدين: الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٠٩، ص ٢٦ـ٢٧.
(٢) نفس المكان، ص ٢٥٠ـ٢٥٤.
(٣) المقدسي، ص ١٥٥.
(٤) ابن الشحنة، ص ١٤٨ ـ١٤٩.
(٥) نفس المكان، ص ٥٢.
(٦) نفس المكان، ص ٧٧.
(٧) نفس المكان، ص ٦٣ـ٦٤.
(٨) نفس المكان، ص ٦٤ـ٦٥.
(٩) نفس المكان، ص ٦٩ـ٧٠.
(١٠) ابن جبير، ص ٢٥٢ـ٢٥٤.
(١١) ابن الشحنة، ص ١٥٦.
(١٢) نفس المكان، ص ١٤٩ـ١٥٠.
(١٣) نفس المكان، ص ١٣٩.
(١٤) نفس المكان، ص ١٣٩.
(١٥) نفس المكان، ص ٢٥٧.

٢٢ـ حَمَاة وَمَعَرّة النعمَان

في سنة ١٩٢٥ زرت معرة النعمان لأول مرة. وقد كتبت بعد ذلك بسنوات أصف انطباعي قلت:

«وأنا في هذه الأفكار إذا بالسيارة تقف أمام بيوت عدة، لا هي بالقليلة فتكون قرية ولا هي بالكثيرة فتكون مدينة، ولكنها أمر بين الأمرين. وحسبت ان السيارة أوقفت لتعالج. ولكنني لم ألبث ان أدركت خطأي لما ذكر الركب انها المعرة ـ معرة النعمان. فعدت الى دنيا الناس، وعجب لهذه الحياة التي تنقلك من عالم الفكر مع المتنبي، فتجد نفسك في عالم الناس ولكن في بلدة المعري.

«وكدنا لا نعرف أنفسنا. فقد كان الغبار قد تراكم على وجوهنا فصبغها بلون التربة الحمراء. ولم يكن من المتيسر إزالتها البتة، فاكتفينا بإزالة القليل منها على النحو الذي تيسر لنا، وسرنا نحاول التعرف إلى الجو الذي عاش فيه أبو العلاء. فكان أول ما طالعنا منه قبر نور الدين الشهيد، وفي مكان يعرف باسم مدرسة أبي العلاء. والمدرسة هذه كتاب في مكان قديم متهدم ونور الدين الذي أحيا من دنيا الاسلام يوم ان تصدعت ما أحيا، ينظر الناس الى قبره فلا يعرفون أقبر شخص عادي هو أم قبر هذا الذي هيأ لصلاح الدين ان يضرب الصليبيين.

«وكان بي شوق الى قبر المعري. فقد أعجبني من قبل ذلك الذي تساوى عنده صوت النعيّ وصوت البشير، فذهبنا لزيارة «مولانا أبو العلاء». مولانا؟ نعم لقد أصبح المعري في بلده ولياً من أولياء الله، يعلو مثواه خشب بقماش أخضر، وتعلو مكان الرأس منه عمة، ويتقرب الناس الى الله بقراءة الفاتحة في مقامه، ويربط قطع من القماش البالي على باب المكان الصغير وطاقاته. وكأن رهين المحبسين في حياته أبى إلا أن يكون له بعد وفاته محبس ثالث، فاقتصر قبره على هذه الغرفة الصغيرة المظلمة. وقد تلطف أحد الناس فكتب على ورقة علقت على جدار الغرفة بيتين من الشعر هما:

«قد كان صاحب هذا القبر جوهرة نقية صاغها المولى من النطف
عزت فلم تعرف الأيام قيمتها فارجعها رحمة منه إلى الصدف»[1].

ومعرة النعمان والقرى المحيطة بها على ما وصفها ابن حوقل «اعذاء ليس

بجميع نواحيها ماء جار ولا عين ... وشربهم من ماء السماء. وهي مدينة كثيرة الخير والسعة في التين والفستق وما شاكل ذلك من الكروم»[٢].

أما حماة فمدينة نزهة خيّرة يرويها نهر العاصي الذي يخترقها فتداعبه نواعيرها فيغيظها فتعن وتئن ولا من يرق لها.

حماة ومعرة النعمان، مثل غيرهما من مدن تلك النواحي في شمال سورية، قديمتا العهد، وقد عرفتا عزاً ورفعة في غير حقبة من تاريخهما. ولذلك لا نستغرب ان تتطاول الاسطورة عليهما. فقد روى ناصري خسرو الذي زار المعرة سنة ٤٢٨ [١٠٣٧] قال: «وبعد مسيرة ستة فراسخ اخرى بلغنا معرة النعمان، وهي مدينة عامرة ولها سور مبني. وقد رأيت على بابها عموداً من الحجر عليه كتابة غير عربية فسألت: ما هذا؟ فقيل انه طلسم العقرب، حتى لا يكون في هذه المدينة عقرب أبداً، ولا يأتي اليها، وإذا احضر من الخارج واطلق بها فإنه يهرب ولا يدخلها. وقد قست هذا العمود فكان ارتفاعه عشر أذرع»[٣].

والرقعة التي تقع فيها البلدتان رقعة خصبة غنية وقد تضخم الواحدة من البلدتين فتكون مدينة، ثم يأتيها وقت تصغر فيه فتكون قرية، ولكن يظل الخير العميم هو صفة المنطقة اجمالاً. ولكل منهما على التاريخ العربي فضل. ففي المعرة عاش نابغة العرب ابو العلاء المعري، ودفن نور الدين الشهيد، وحماة منحت التاريخ العربي ياقوت الجغرافي وابا الفداء الملك المؤرخ الجغرافي، فمجال المفاخرة امامها متسع.

وصف المعري بلده في رسائله فقال عنها: «اسمها طيره، وعند الله ترجى الخيرة، المورد بها محتبس، وظاهر ترابها في الصيف يبس، ليس لها ماء جار، ولا تغرس بها غرائب الأشجار، وإذا ابرز لأهلها ذبح، يؤمل به لديهم الربح، تحسبه صبغ بخطر، فكأنما يرفق به هلال الفطر، وقد يجيئها وقت يكون فيه جدي المعز في العزّة كجدي الفرقد، ومثل حمل الكواكب حمل النقد، ويبكر فقيرها على الهداية، قبل ابن الفرخين ابن دايه، حتى يقف ببائع الرسل فكأنما وقف برضوان، يستوهيه ماء الحيوان، فان سبقه ضياء الفجر فإنه يرجع خائباً، ولا يجد سهمه صائباً، فما الظن بمحلة لا تسمح بدر المخزاب، لو نزلها ابن خنزابة لما قدر على الخنزاب، نابت طاب مجاجه، وهاتف نشر دوّاجه، اما النابت فاذا نبذ عند غيرنا العبر، حسب ها هنا سبائك التبر، واما الصائح فإذا طلب العليل، عدم كعدم الخليل»[٤].

ومع ان صاحب الدار يجب ان يعرف ما بها فان المعري قد يكون تجنى على بلدته. وإلا فكيف نوفق بين هذا الذي قاله وبين وصف ناصري خسرو، وهو معاصر لأبي العلاء، الذي قال عنها لما زارها: «ورأيت أسواق معرة النعمان وافرة العمران. وقد بني مسجد الجمعة على مرتفع وسط المدينة بحيث يصعدون اليه من اي جانب

يريدون وذلك على ثلاث عشرة درجة. وزراعة السكان كلها قمح وهو كثير، وفيها شجر وفير من التين والزيتون والفستق واللوز والعنب»[٥].

وما دمنا مع ناصري خسرو، فلنرافقه في زيارته لحماة المدينة التي أعجب بها أيضاً. وناصري خسرو دقيق الملاحظة رقيق الشعور. وقد ذكر ان حماة مدينة جميلة عامرة على شاطىء نهر العاصي. ولناصري خسرو حديث عن المعري يعطينا صورة غير الصورة المألوفة التي تركها لنا مؤرخو الأدب عن الرجل. فقد قال الرحّالة الفارسي عنه: «وكان بهذه المدينة رجل أعمى اسمه أبو العلاء المعري. وهو حاكمها. وكان واسع الثراء عنده كثير من العبيد، وكأن أهل البلد كله خدم له. أما هو فقد تزهد، فلبس الكليم، واعتكف في البيت، وكان قوته نصف منّ من خبز الشعير، لا يأكل غيره. وقد سمعت أن باب سرايه مفتوح دائماً وان نوابه وملازميه يدبرون أمر المدينة ولا يرجعون إليه إلا في الأمور الهامة، وهو لا يمنع نعمته أحداً، يصوم الدهر ويقوم الليل ولا يشغل نفسه مطلقاً بأمر دنيوي. وقد سما المعري في الشعر والأدب الى حد أن أفاضل الشام والمغرب والعراق يقرون بأنه لم يكن من يدانيه في هذا العصر ولا يكون. وقد وضع كتاباً سماه «الفصول والغايات»، ذكر به كلمات مرموزة وأمثالاً في لفظ فصيح عجيب، بحيث لا يقف الناس إلا على قليل منه، ولا يفهمه إلا من يقرأه عليه. ويجلس حوله، دائماً، أكثر من مائتي رجل، يحضرون من الأطراف، يقرأون عليه الأدب والشعر. وسمعت أن له أكثر من مائة ألف بيت شعر. سأله رجل: لم تعط الناس ما أفاء الله تبارك وتعالى عليك من وافر النعم ولا تقوت نفسك؟ فأجاب: إني لا أملك أكثر مما يقيم أودي. وكان هذا الرجل حياً وأنا هناك»[٦].

وأخبار المعري وشعره وأدبه وفلسفته شغلت الناس وملأت المجلدات، ولذلك لن نعرض لذلك هنا. إلا أننا لا نستطيع أن نتجاهل قصتين لطيفتين عن هذا الرجل المفكر.

فقد روي انه «جاءت امرأة اسمها جامع يوم الجمعة الى مسجد المعرة فشكت الى الناس ان أناساً تعرّضوا لها وأرادوها بمكروه، فانتصر الناس لها، وهدموا البيت، وأتلفوا ما فيه، فقال أبو العلاء في ذلك من قصيدة طويلة:

أتت جامع يوم العروبة جامعاً ... تقص على الشهاد بالمصر أمرها
فلو لم يقوموا ناصرين لصوتها ... لخلت سماء الله تمطر جمرها
فهدّوا بناء كان يؤوي فناؤه ... فواجر ألقت للفواحش خمرها[٧]

أما القصة الثانية فبطلاها صالح بن مرداس صاحب حلب وأبو العلاء المعري. وذلك ان «صالح بن مرداس صاحب حلب سخط على أهل المعرة ونقم عليهم. فجاء المعرة وخيم بظاهرها سنة ٤١٧ [١٠٢٥]، واعتقل من أعيانها سبعين رجلاً. ففزع أهل المعرة الى أبي العلاء وسألوه تلافي الأمر. فخرج هذا الشيخ القصير الذي ترى الى

صالح، فلما مثل بين يديه سلم عليه وقال: «الأمير أطال الله بقاءه كالنهار المائع، قاظ وسطه وطاب ابراده، او كالسيف القاطع لان متنه وخشن حداه (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين)». فقال صالح: «لا تثريب عليكم اليوم. قد وهبت لك المعرة وأهلها». وقوض خيامه ورحل. فقال أبو العلاء:

نجى المعرة من براثن صالح ... رب يفرج كل أمر معضل
ما كان لي فيها جناح بعوضة ... الله ألحفهم جناح تفضل[٨]

وقد أشار ابو العلاء الى هذه الحادثة في شعر له قال:

فلما مضى العمر الا الأقل ... وحم لروحي فراق الجسد
بعثت شفيعاً الى صالح ... وذاك من القوم رأى فسد
فيسمع مني سجع الحمام ... واسمه منه زئير الأسد
فلا يعجبني هذا النفاق ... فكم نفقت محنة ما كسد[٩]

وللمعري شعر جميل تشوق فيه الى بلده وهو في بغداد قال:

تمنيت ان الخمر حلت لنشوة ... تجهلني كيف اطمأنت بي الحال
فأذهل اني بالعراق على شفا ... رزي الاماني لا أنيس ولا مال
وماء بلادي كان انجع مشربا ... ولو ان ماء الكرخ صهباء جريال
فيا وطني ان فاتني بك سابق ... من الدهر فلينعم لساكنك البال»[١٠].

ويمر الزمن فيطوي المعري وابن مرداس، ويقيم ناساً اخرين. وتدور الدنيا فاذا بالبلاد تتعرض لهجمات من الغرب والشرق، واذا حماة والمعرة وشيزر وحمص في خط الدفاع والهجوم. ومعنى هذا تقلص مساحة المدينة، واقتصارها على الرقعة الدائر السور بها، كي يسهل الدفاع عنها وحراستها. وهكذا كانت حالها لما زارها ابن جبير الرحالة المغربي فقال عنها:

«حماة حماها الله مدينة شهيرة في البلدان، قديمة الصحبة للزمان، غير فسيحة الفناء، ولا رائقة البناء اقطارها مضمومه، وديارها مركومه، لا يهشّ البصر اليها، عند الاطلال عليها، كأنها تكنّ بهجتها وتخفيها، فتجد حسنها كامناً فيها، حتى إذا جست خلالها، ونقّرت ظلالها، ابصرت بشرقيها نهراً كبيراً تتسع في تدفقه اساليبه، وتتناظر بشطيه دواليبه، قد انتظمت طرّتيه، بساتين تتهدّل اغصانها عليه، وتلوح خضرتها عذاراً بصفحتيه، ينسرب في ظلالها، وينساب على سمت اعتدالها، وباحد شطّيه المتصل بربضها مطاهر منتظمة بيوتاً عدّة يخترق الماء من احد دواليبه جميع نواحيها، فلا يجد المغتسل اثر أذى فيها، وعلى شطّه الثاني المتصل بالمدينة السفلى جامع صغير قد فتح جداره الشرقي عليه طيقاناً تجتلي منها منظراً ترتاح النفس اليه،

وتتقيد الابصار لديه، وبإزاء ممرّ النهر بجوفي المدينة قلعة حلبيّة الوضع، وان كانت دونها في الحصانة والمنع، سرّب لها من هذا النهر ماء ينبع فيها لا تخاف الصدى، ولا تتهيب مرام العدى، وموضوع هذه المدينة في وهدة من الأرض عريضة مستطيلة كأنها خندق عميق يرتفع لها جانبان أحدهما كالجبل المطلّ والمدينة العليا متصلة بسفح ذلك الجانب الجبلي والقلعة في الجانب الآخر في ربوة منقطعة كبيرة مستديرة قد تولى نحتها الزمان، وحصل لها بحصانتها من كل عدو الأمان، والمدينة السفلى تحت القلعة متصلة بالجانب الذي يصب النهر عليه وكلتا المدينتين صغيرتان وسور المدينة العليا يمتد على رأس جانبها العليّ الجبلي ويطيف بها وللمدينة السفلى سور يحدق بها من ثلاثة جوانب لأن جانبها المتصل بالنهر لا يحتاج الى سور وعلى النهر جسر كبير معقود بصمّ الحجارة يتصل من المدينة السفلى الى ربضها، وربضها كبير فيه الخانات والديار، وله حوانيت يستعجل فيها المسافر حاجته الى ان يفرغ لدخول المدينة. وأسواق المدينة العليا أحفل وأجمل من أسواق المدينة السفلى وهي الجامعة لجميع الصناعات والتجارات وموضوعها حسن التنظيم، بديع الترتيب والتقسيم، ولها جامع أكبر من الجامع الأسفل ولها ثلاث مدارس ومارستان على شط النهر بإزاء الجامع الصغير. وبخارج هذه البلدة بسيط فسيح عريض قد انتظم أكثره شجرات الاعناب وفيه المزارع والمحارث وفي منظره انشراح للنفس وانفساح، والبساتين متصلة على شطي النهر وهو يسمى العاصي»[١١].

وقد ابتعد الخطر عنها أيام كانت موطن ياقوت الحموي صاحب معجم البلدان، فاتسعت أرباضها قليلاً، فجاء وصفه مطابقاً لواقعها أيامه اي في أواسط القرن السابع (الثالث عشر). قال:

«وحماة مدينة كبيرة عظيمة، كثيرة الخيرات رخيصة الأسعار واسعة الرقعة حفلة الأسواق، يحيط بها سور محكم، وبظاهر السور حاضر كبير جداً، فيه أسواق كثيرة وجامع مفرد مشرف على نهرها المعروف بالعاصي، عليه عدة نواعير تستقي الماء من العاصي فتسقي بساتينها وتصب الى بركة جامعها، ويقال لهذا الحاضر السوق الأسفل لأنه منحط عن المدينة، ويسمون المسوّر السوق الأعلى، وفي طرف المدينة قلعة عظيمة عجيبة في حصنها واتقان عمارتها وحفر خندقها نحو مائة ذراع وأكثر للملك المنصور محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه ابن يوب، وهي مدينة قديمة جاهلية»[١٢].

وأبو الفدا اسماعيل الحموي ملك تولى إدارة هذه الولاية في أواسط القرن الثامن (الرابع عشر)، وهو الى ذلك مؤرخ ترك لنا تاريخه المسمى المختصر في أخبار البشر. ويعتبر أبو الفدا في مقدمة جغرافيي العرب إطلاقاً. وكتابه تقويم البلدان

منجم كبير للمعرفة الجغرافية في أيامه. وقد قال عن مدينته ما يلي:

«حماة مدينة أولية وبلدة قديمة وهي من أنزه البلاد الشامية. والعاصي يستدير على غالبها من شرقيها وشماليها. ولها قلعة حسنة البناء مرتفعة. وفي داخلها الارحية على الماء. وبها نواعير على العاصي تسقي اكثر بساتينها. ويدخل منها الماء الى كثير من دورها»[١٣]. «ونهر حماة يسمى نهر الارنط والنهر المقلوب لجريه من الجنوب الى الشمال. ويسمى العاصي لأن غالب الأنهر تسقي الأراضي بغير دواليب ولا نواعير بل بأنفسها تركب البلاد. ونهر حماة لا يسقي إلا بنواعير تنزع منه الماء»[١٤].

وإذا كانت حماة والمعرة قدمتا لنا هذا العدد من كبار الرجال في القدم، فقد أعطتا رجالاً كباراً في الزمن الحديث. فبدر الدين الحامد شاعر كبير. وقد قال يصف ناعورة حماة:

الـدهـر بـيـن يـديـك دان ... عـجـبـاً لشـأنك اي شـان
أفنى الجـبـال ومـالـه ... بـك ولـيـدتـه يـدان
أترى أخـذت على الزمـا ... ن وصـرفـه عـهـد الأمـان
عـاصـيك يغـسل مطرفـيـ ... ـك وأنـت فـي ظـل الـجـنـان
ويـزورك الغـر الحـسـا ... ن فـأكـرمي مـثـوى الحـسـان
تتـمـتـعـين بقـربهن ... وتضـحـكين من الزمـان
وأراك تـشـكـيـن الـغـرا ... م وأنـت خـافـقـة الجنان
عـيناك من قـبل المسـيح ... وأمـه نضـاحـتـان
تـتـرنـمـيـن ترنم الـ ... ـولهـان يقـتـله الحنان
وترددين صـدى العـصـو ... ر وسـرك المـاضي مـصـان
مـا أنـت يـا لـدة الخـلـو ... د؟ تكلمي؟ فـالوقت حـان

الهوامش

(١) لمحات من تاريخ العرب، ص ١٢١ـ١٢٢.
(٢) ابن حوقل، ص ١٧٨.
(٣) سفرنامه، ص ١١.
(٤) المشرق، ج ١ (١٩٢٣)، ص ٥٥٧.
(٥) سفرنامه، ص ١١.
(٦) نفس المكان، ص ١١ـ١٢.
(٧) لمحات من تاريخ العرب، ص ١٢٥.

(٨) نفس المكان، ص ١٢٦.
(٩) نفس المكان، ص ١٢٦.
(١٠) نفس المكان، ص ١٢٤.
(١١) ابن جبير، ٢٥٥ـ٢٥٧.
(١٢) ياقوت الحموي، ج ٢، ص ٣٠٠.
(١٣) أبو الفدا، كتاب تقويم البلدان، باريس، دار الطباعة السلطانية، ١٨٤٠، ص ٢٧٣.
(١٤) نفس المكان، ص ٤٩.

٢٣ـ المَوْصِل

تجر الموصل وراءها ذيلاً من التاريخ طويلاً. فقد رددت تلالها وجبالها صدى قرون لعلها لا تقل عن الاربعين. وترتكز الى مجد مؤثل اذ كانت دار ملك غير مرة. وتنعم بعطف دجلة. وها ابنها البار القس سليمان الصايغ ينقلك اليها وينقلها اليك بقوله: «ندعو قارئنا اللبيب ان يسير في صباح يوم من أيام الربيع الى شرقي مدينة الموصل ويجتاز جسرها الى ضفاف دجلة حيث يقف ليلقي نظرة على مياه النهر المنكسرة المتلألئة تلألؤ اللجين اللامع في أشعة الشمس الطالعة وقد انعكس بريقها على جدر القهاوي وبعض الابنية الشاهقة فكأنها ألعاب سحرية تقدم للناظرين مشهداً طبيعياً بديعاً يسلب القلوب ويهيج الانظار. وما أشبه دجلة بهلال عسجدي يطوق جيد المدينة فينساب من الشمال ببطء كالمتلصص حتى يحاذي المدينة من شرقيها متوسطاً بينها وبين نينوى القديمة فينصب محيياً مدينة الاحياء. ثم يعج بهديره باكياً تجاه خربات مدن الاموات الآشورية. ويعدو مهرولاً الى الجنوب كمن يتملص من مشهد مؤلم يعيد على ذاكرته سابق مجد اثيل وعز باذخ ودور مهم كان قد لعبه على سطح تلك الاراضي المربعة في الاعصر المتوغلة»[1].

وبلد له تاريخه الطويل وموقعه الممتاز وثروته الكبيرة، لا يستغرب ان يكون عاصمة ملك ودار امارة ومجمع علماء ومسرح شعراء. ويكفي الموصل ان عاش فيها أبو تمام حبيب بن أوس الطائي صاحب الحماسة وغيرها من الشعر، والقائل يوم فتح المعتصم العباسي عمورية:

السيف أصدق انباء من الكتب ... في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصّحائف في ... متونهنّ جلاء الشّك والرّيب
فتح الفتوح تعالى أن يحيط به ... نظم من الشعر أو نثر من الخطب
فتح تفتح أبواب السماء له ... وتبرز الأرض في أثوابها القشب
يا يوم وقعة عمّورية انصرفت ... منك المنى حفلاً معسولة الحلب

وقد ظهر في الموصل الحمدانيون في أواخر القرن الثالث (التاسع) واوائل الرابع (العاشر)، وكان للزنكيين مركز وموئل ومرجع في ايام عزهم وجهادهم في دفع الاذى عن شمال سورية ايام الصليبيين. وهذا ابن حوقل، الذي قضى سنوات في الموصل في

القرن الرابع للهجرة يقول عنها: «واما الموصل فمدينة على غربي دجلة صحيحة التربة والهواء وشرب أهلها من مائها، وفيها نهر يقطعها اتخذه بنو أميّة في وسطها، وبين مائها ووجه الأرض نحو ستّين ذراعاً وزائد ولم يك بها كثير شجر ولا بساتين الا التافه القليل اليسير فلمّا تملك بنو حمدان ورجالهم غرسوا فيها الأشجار وكثرت الكروم وغزرت الفواكه وغرست النخيل والخضر، وبها مسكن سلطان الجزيرة ودواوينها ومجتنى أموالها وارتفاعها؛ ولها أقاليم ورساتيق ومدن كثيرة مضافة اليها وارتفاع وجبايات زادت على ما كانت عليه في سالف الزمان ان للموصل اضعاف أعمال نصيبين في فسحة الأعمال وكثرة الضياع وعظم المحلّ وغزر السكان واهل الأسواق اذ كانت أسواقها واسعة وأحوالها في الشرف والفخم ظاهرة، وهي مدينة أبنيتها بالجصّ والحجارة كبيرة غنّاء وأهلها عرب ولهم بها خطط وأكثرهم ناقلة الكوفة والبصرة. وكانت من عظم الشأن بصورة أكابر البلدان وكان بها لكلّ جنس من الأسواق الاثنان والثلاثة والأربعة مما يكون في السوق المائة حانوت وزائد وبها من الفنادق والمحال والحمامات والرحاب والساحات والعمارات ما دعت اليها سكّان البلاد النائية فقطنوها وجذبتهم اليها برخصها وميرها وصلاح أشعارها فسكنوها»[٢].

ومن طريف ما ذكره ابن حوقل مطاحن الموصل التي سماها العروب قال: «وكان بالموصل وسط دجلة مطاحن تعرف بالعروب يقل نظيرها في كثير من الأرض لأنها قائمة في وسط ماء شديد الجرية موثقة بالسلاسل الحديد في كل عربة منها أربعة أحجار ويطحن كل حجرين في اليوم والليلة خمسين وقراً؛ وهذه العروب من الخشب والحديد وربما دخل فيها شيء من الساج، وكانت ببلد المدينة التي عن سبعة فراسخ منها عروب كثيرة دارت أعمالاً وجهازاً الى العراق»[٣].

والمقدسي، معاصر ابن حوقل، يقول عن الموصل: «بلد جليل حسن البناء طيب الهواء صحيح الماء كبير الاسم قديم الرسم حسن الاسواق والفنادق كثير الملوك والمشايخ لا يخلو من اسناد عال وفقيه مذكور. منها ميرة بغداد واليه قوافل الرحاب وله منازه وخصائص وثمار حسنة وحمّامات سرّية ودور بهيّة ولحوم جيّدة وامور جامعة، غير ان البساتين بعيدة وريح الجنوب مؤذية وماء النهر بعيد المستقى»[٤].

وقال الثعالبي عن الحمدانيين حماة الأدب ورزق ادباء العصر ملوكاً وامراء من آل حمدان وبني ورقاء، هم «بقية العرب والمشغوفون بالأدب، والمشهورون بالمجد والكرم، والجمع بين السيف والقلم. فكانوا ملوكاً وأمراء، اوجههم للصباحة وألسنتهم للفصاحة»[٥]. وما منهم الا اديب جواد يحب الشعر وينتقده ويثيب على الجيد منه فيجزل ويفضل.

وبين الحمدانيين والأتابكة كانت الموصل محط رحال أهل العلم والادب اذ كان أهلها يشجعون ذلك. وهذا ابن الاثير الذي عاش فيها وتكلم عنها، يحدثنا عن كبار

الرجال الذين عاشوا فيها وكانوا من رواة الحديث والمشتغلين بالفقه والقضاء. ويبدو ان التعلم والتعليم وقتها كانا يتمان في المدارس كما كانا يقعان خارجها. وقد قضى ابن جبير بعض الوقت في الموصل وهو في طريقه من العراق الى ديار الشام، فقال في وصفها: «وباطن الداخل منها بيوت بعضها على بعض، مستديرة بجداره المطيف بالبلد كله، كان قد تمكن فتحها فيه لغلظ بنيته وسعة وضعه. وللمقاتلة في هذه البيوت حرز وقاية وهي من المرافق الحربية. وفي أعلى البلد قلعة عظيمة قد رص بناؤها رصاً، ينتظمها سور عتيق البنية مشيد البروج وتتصل بها دور السلطان. وقد فصل بينهما وبين البلد شارع متسع، يمتد من أعلى البلد إلى أسفله. ودجلة شرقي البلد وهي متصلة بالسور وابراجه في مائها. وللبلدة ربض كبير فيه المساجد والحمامات والخانات والاسواق ...

«وفي سوقه قيسارية للتجار كأنها الخان العظيم تنغلق عليها أبواب حديد، وتطيف بها دكاكين وبيوت، بعضها على بعض قد جُلي ذلك كله في أعظم صورة من البناء المزخرف الذي لا مثيل له. فما أرى في البلاد قيسارية تعدلها...

«وفي المدينة مدارس للعلم نحو الست أو أزيد على دجلة فتلوح كأنها القصور المشرفة ولها مارستان»[٦].

وعهد الأتابكيين في الموصل عهد ازدهار، ثروة وحرباً وعلماً وكرماً وجوداً. وقد ظهر في هذه الفترة جماعة من أهل العلم والفضل كبار. فبنو الاثير، المؤرخ واخوته، وابن شداد والشهرزوريون والأربليون تمتعوا بحماية السلاطين، كما تمتع اسلافهم بكرم الحمدانيين وبرهم.

وقد وصف زنكي بانه «كان يوصي بالغرباء فحين يدخل غريب بلدته ان كان جندياً اشتمل عليه الاجناد واضافوه، وان كان صاحب ديوان قصد اهل الديوان، وان كان عالماً قصد القضاة بني الشهرزوري فيحسنون اليه ويؤنسون غربته. وكان لا يؤمر إلا الرجال ذوي الهمم العالية والآراء الصائبة والأنفس الأبية ويوسع لهم في الارزاق فيسهل عليهم فعل الجميل واصطناع المعروف. وكان زنكي بحسن سيرته موضوعاً لمديح الشعراء ومن أحسن ما قيل فيه قصيدة لأحمد بن منير:

في ذرا ملك هو الد	هر عطاء واستلابا
من له كف تبذ الـ	ـغيث سحا وانسكابا
فاتح في وجه كل	امة للنصر بابا
ترجف الدنيا اذا	حرك للسير الركابا
وتخر المشمخر	ات اختلالاً واضطرابا
وترى الاعداء من	هيبته تأوي الشعابا
يا عماد الدين لا	زلت على الدين سحابا

والموصليون، على ما فيهم من شجاعة، رقاق الحواشي، كما يبدو من شعرهم الذي حفظت لنا منه الدواوين الكثير. وها نحن نورد ابياتاً للحاجري، وكان معتقلاً، يشكو حاله. قال:

قيد اكابده وسجن ضيق ... يا رب شاب من الهموم المفرق
يا برق ان جئت الديار باربل ... وعلا عليك من التداني رونق
بلغ تحية نازح حسراته ... ابداً بأذيال الصبا تتعلق

ومما روي من الشعر قول ابن الرفا تشوقاً إلى الموصل:

سقى رها الموصل الفيحاء من بلد ... جود من المزن يحكي جود اهليها
ارض يحن اليها من يفارقها ... ويحمد العيش فيها من يدانيها

زار ابن بطوطة الموصل في القرن الثامن (الرابع عشر)، فقال فيها: «وهي مدينة عتيقة كثيرة الخصب، وقلعتها المعروفة بالحدباء عظيمة الشأن، شهيرة الامتناع، عليها سور محكم البناء مشيد البروج، وتتصل بها دور السلطان، وقد فصل بينها وبين البلد شارع متصل مستطيل من أعلى البلد الى أسفله. وعلى البلد سوران اثنان وثيقان أبراجهما كثيرة متقاربة، وفي باطن السور بيوت بعضها على بعض مستديرة بجداره. ولم أر في أسوار البلاد مثله الا السور الذي على مدينة دهلي حضرة ملك الهند. وللموصل ربض كبير، فيه المساجد والحمامات والفنادق والأسواق، وبه مسجد جامع على شط دجلة، تدور به شبابيك حديد، وتتصل به مصاطب تشرف على دجلة، في النهاية من الحسن والاتقان، وأمامه مارستان. وبداخل المدينة جامعان، أحدهما قديم، والآخر حديث. وقيسارية الموصل مليحة لها أبواب حديد، ويدور بها دكاكين وبيوت بعضها فوق بعض متقنة البناء»[٧].

الهوامش

(١) صائغ، سليمان: تاريخ الموصل، القاهرة المطبعة السلفية، ١٩٢٣، ج ١ ص ٣٢.
(٢) ابن حوقل، ص ٢١٤ـ٢١٥.
(٣) نفس المكان، ص ٢١٩.
(٤) المقدسي، ص ١٣٨.
(٥) تاريخ الموصل، ج ١، ص ١٢٤.
(٦) ابن جبير، ص ٢٣٤ـ٢٣٦.
(٧) ابن بطوطة ج ٢، ص ١٣٤ـ١٣٦.

٢٤ـ بِغْدَاد

في سنة ١٤ (٦٣٥) كان المثنى بن حارثة على حرب العراق، إذ احتل العرب الحيرة وأخذوا يغيرون على السواد. فقال اهل الحيرة للمثنى: ان بالقرب منهم قرية تقوم فيها سوق عظيمة مرة في كل شهر فيأتيها تجار فارس والأهواز وسائر البلاد يقال لها بغداد. «فأخذ المثنى على البر حتى أتى الانبار فتحصن أهلها، فاستدعى المثنى مرزبانها وامنه فجاء، فأخبره انه ينوي الاغارة على سوق بغداد وطلب إليه ان يبعث معه أدلاء وأن يعقد له الجسر، ليعبر الفرات عليه. فعقد المرزبان الجسر فعبر المثنى مع أصحابه وبعث معه الأدلاء. فسار حتى وافى السوق ضحوة، فهرب الناس وتركوا أموالهم فأخذ العرب من الذهب والفضة وسائر الأمتعة ما قدروا على حمله، ثم رجعوا الى الانبار»[١].

هذه هي المناسبة الوحيدة التي وردت فيها أخبار هذا المكان. وظلت بعد ذلك كمية مهملة حتى اعتزم المنصور في اتخاذ عاصمة جديدة له.

اختفى اسم بغداد وسوقها من التاريخ حتى سنة ١٤٥ (٧٦٢)، لما رغب أبو جعفر في اتخاذ عاصمة جديدة له. «ذلك ان أهل الكوفة كانوا يفسدون جنده، وكان الراوندية قد ثاروا به، فأرسل المنصور رواداً ليفتشوا له عن موضع يبني فيه مدينة على أن يكون الموقع واسطاً رافقاً بالعامة والجند. وخرج المنصور بعدهم بنفسه فجرب أماكن مختلفة ثم تخير موقع بغداد. فقد روى أهل السير انه أتى موضع بغداد وعبر موضع قصر السلام ثم صلّى العصر، وذلك في صيف وحر شديد. وبات أغيب مبيت وأقام يومه فلم ير إلا خيراً، فقال (هذا موضع صالح للبناء: فإن الميرة تجيئه من أرمينية وأذربيجان والموصل والشام والسند والصين والبصرة، والمادة تأتيه من الفرات ودجلة ولا يحمل الجند والرعية إلا مثله) فخط البناء وقدر المدينة ووضع أول لبنة بيده»[٢].

روى ابن عياش في بناء بغداد: «بعث المنصور روّاداً وهو بالهاشمية يرتادون له موضعاً يبني فيه مدينة ويكون الموضع واسطاً رافقاً بالعامة والجند، فنعت له موضع قريب من بارما، وذكر له غذاؤه وطيب هوائه، فخرج إليه بنفسه حتى نظر إليه وبات فيه، فرأى موضعاً طيباً فقال لجماعة، منهم سليمان بن مجالد وأبو أيوب المرزباني وعبد الملك بن حميد الكاتب: ما رأيكم في هذا الموضع؟ قالوا: طيب موافق، فقال: صدقتم ولكن لا مرفق فيه للرعية، وقد مررت في طريقي بموضع تجلب إليه الميرة

والامتعة في البر والبحر وانا راجع إليه وبائت فيه، فإن اجتمع لي ما أريد من طيب الليل فهو موافق لما أريده لي وللناس، قال: فأتى موضع بغداد وعبر موضع قصر السلام ثم صلى العصر، وذلك في صيف وحرّ شديد، وكان في ذلك الموضع بيعة فبات أطيب مبيت وأقام يومه فلم ير إلا خيراً فقال: هذا موضع صالح للبناء، فإن المادة تأتيه من الفرات ودجلة وجماعة الانهار، ولا يحمل الجند والرعية إلا مثله، فخط البناء وقدر المدينة ووضع أول لبنة بيده فقال: بسم الله والحمد لله والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين، ثم قال: ابنوا على بركة الله»[٣].

ويروون ان المنصور استشار في اختيار المكان، فقال أحد الدهاقين: «الذي أراه يا أمير المؤمنين ان تنزل في بغداد ... وأنت يا أمير المؤمنين على الصّراط ودجلة، تجيئك بالميرة من القرب وفي الفرات من الشام والجزيرة ومصر وتلك البلدان، وتحمل إليك طرائف الهند والسند والصين والبصرة وواسط في دجلة، وتجيئك ميرة أرمينية وأذربيجان وما يتصل بها في تامرا، وتجيئك ميرة الموصل وديار بكر وربيعة وأنت بين أنهار لا يصل إليك عدوك إلا على جسر او قنطرة، فإذا قطعت الجسر والقنطرة لم يصل إليك عدوك، وأنت قريب من البر والبحر والجبل، فأعجب المنصور هذا القول وشرع في البناء»[٤].

قالوا، ولما استقر رأي المنصور على ان يبني مدينته حيث هي «ووجه المنصور في حشر الصنّاع والفعلة من الشام والموصل والجبل والكوفة وواسط فأحضروا، وأمر باختيار قوم من أهل الفضل والعدالة والفقه والامانة والمعرفة بالهندسة، فجمعهم وتقدم اليهم ان يشرفوا على البناء»[٥]. ثم دعا المهندسين وأمرهم بخط الرماد «ثم وضع أساس المدينة مدوراً وجعل قصره في وسطها وجعل لها أربعة ابواب وأحكم سورها وفصيلها، فكان القاصد اليها من الشرق يدخل من باب خراسان والقاصد من الحجاز يدخل من باب الكوفة والقاصد من المغرب يدخل من باب الشام والقاصد من فارس والأهواز وواسط والبصرة واليمامة والبحرين يدخل من باب البصرة»[٦].

وروى ياقوت نقلاً عن الخطيب ان المنصور: «بنى مدينته مدوّرة وجعل داره وجامعها في وسطها، وبنى القبة الخضراء فوق ايوان، وكان علوّها ثمانين ذراعاً، وعلى رأس القبة صنم على صورة فارس في يده رمح، وكان السلطان اذا رأى ان ذلك الصنم قد استقبل بعض الجهات ومدّ الرمح نحوها علم ان بعض الخوارج يظهر من تلك الجهة، فلا يطول عليه الوقت حتى ترد عليه الأخبار بأن خارجياً قد هجم من تلك الناحية، قلت انا: هكذا ذكر الخطيب وهو من المستحيل والكذب الفاحش وانما يحكى مثل هذا عن سحرة مصر وطلسمات بلیناس التي أوهم الاغمار صحتها تطاول الازمان والتخيل ان المتقدمين ما كانوا بني آدم، فأما الملة الاسلامية فانها تجلّ عن مثل هذه الخرافات»[٧].

وقد ذكر ابو سهل بن نوبخت قال: «امرني المنصور لما اراد بناء بغداد بأخذ الطالع، ففعلت فاذا الطالع في الشمس وهي في القوس، فخبّرته بما تدل النجوم عليه من طول بقائها وكثرة عمارتها وفقر الناس الى ما فيها ثم قلت: واخبرك خلّة أخرى اسرك بها يا امير المؤمنين، قال: وما هي؟ قلت: نجد في ادلة النجوم انه لا يموت بها خليفة ابداً حتف انفه، قال: فتبسم، وقال الحمد لله على ذلك، هذا من فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، ولذلك يقول عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير بن الخطفي:

اعاينت في طول من الأرض أو عرض ... كبغداد من دار بها مسكن الخفض
صفا العيش في بغداد واخضرّ عوده، ... وعيش سواها غير خفض ولا غضّ
تطول بها الاعمار، ان غذاءها ... مريءٌ، وبعض الأرض أمْرأ من بعض
قضى ربها ان لا يموت خليفة ... بها، انه ما شاء في خلقه يقضي
تنام بها عين الغريب، ولا ترى ... غريباً بأرض الشام يطمع في الغمض
فإن جزيت بغداد منهم بقرضها، ... فما اسلفت الا الجميل من القرض
وان رميت بالهجر منهم وبالقلى، ... فما اصبحت اهلا لهجر ولا بغض»[٨].

وقد نقل الخطيب البغدادي مؤرخ بغداد وصفاً لبغداد يوم جاءها وفد الروم ايام المتوكل يدلك على ما كانت عليه من عظمة وفخامة وما كان عليه بلاطها من ثراء وبهاء.

وعرفت بغداد ايام الرشيد والمأمون عصرًا ازدهر فيه الفكر والعلم، وكوفىء فيها الشعراء وأهل العلم على جهودهم، بحيث يتمنى أهل القلم لو ان تلك الايام تعود!

وقد نقل ابن أبي أصيبعة عن يحيى بن عدي رواية فيها الكثير من الطرافة، وقد لا تكون بعيدة عن الحقيقة والسبب، وان بعدت عن الواقع في روايتها. والرواية هي:

قال المأمون: رأيت فيما يرى النائم: كأن رجلاً على كرسي جالساً في المجلس الذي أجلس فيه فتعاظمته وتهايبته وسألت عنه، فقيل لي: هو أرسطوطاليس. فقلت: أسأله عن شيء، فسألته. فقلت: ما الحسن؟ فقال: ما استحسنته العقول، فقلت: ثم ماذا؟ قال: ما استحسنته الشريعة، قلت: ثم ماذا؟ قال: ما استحسنه الجمهور. قلت: ثم ماذا؟ قال: ثم لا ثم. فكان هذا المنام من أوكد الأسباب في إخراج الكتب. فإن المأمون، كان بينه وبين ملك الروم مراسلات. وقد استظهر عليه المأمون. فكتب الى ملك الروم يسأله الإذن في انقاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة في بلد الروم. فأجاب الى ذلك بعد امتناع. فأخرج المأمون لذلك جماعة، منهم الحجّاج بن مطر، وابن البطْريق وسَلْم صاحب بيت الحكمة وغيرهم فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا. فلما حملوه إلَيه أمرهم بنقله فنقل، وقد قيل: ان يوحنا بن ماسَويه ممن نفذ الى بلد الروم.

وأحضر المأمون أيضاً حنين بن اسحاق وكان فتى السن وأمره بنقل ما يقدر عليه من كتب الحكماء اليونانيين الى العربي وإصلاح ما ينقله غيره فامتثل أمره.

«ومما يحكى عنه ان المأمون كان يعطيه من الذهب زنة ما ينقله من الكتب الى العربي مِثلاً بمثل. وقال أبو سليمان المنطقي: ان بني شاكر، وهم محمد، وأحمد، والحسن، كانوا يرزقون جماعة من النقلة. منهم حنين بن اسحاق، وحبيش بن الحسن، وثابت بن قُرّة وغيرهم، في الشهر نحو خمسمائة دينار للنقل والملازمة»[٩].

في أوائل القرن الرابع (العاشر) وفد على الخليفة المقتدر بالله رسول لصاحب الروم. وقد نقل لنا الخطيب البغدادي، مؤرخ بغداد، وصف الاستقبال الذي أقيم له، قال:

«ولقد ورد رسول لصاحب الروم في أيام المقتدر بالله، ففرشت الدار بالفروش الجميلة، وزينت بالآلات الجميلة، ورتب الحجاب وخلفاؤهم والحواشي على طبقاتهم. على أبوابها ودهاليزها وممراتها ومختـرقاتها وصحونها ومجالسها، ووقف الجند صفين بالثياب الحسنة، وتحتهم الدواب بمراكب الذهب والفضة، وبين أيديهم الجنائب على مثل هذه الصورة. وقد أظهروا العدد المكسيّة والأسلحة المختلفة، فكانوا من أعلى باب الشماسية والى قريب من دار الخلافة، وبعدهم الغلمان الحجرية والخدم الخواص الدارية والبرّانية الى حضرة الخليفة، بالبزة الرايعة والسيوف والمناطق المحلاة. وأسواق الجانب الشرقي وشوارعه وسطوحه ومسالكه مملوءة بالعامة النظارة، وقد اكترى كل دكان وغرفة مشرفة بدراهم كثيرة، وفي دجلة الشذاآت والطيارات والزبازب والدلالات والسُميريات بأفضل زينة وأحسن ترتيب وتعبية، وسار الرسول ومن معه من المراكب الى أن وصلوا الى الدار، ودخل الرسول فمر به على دار نصر القشوري الحاجب. ورأى صفقاً كثيراً ومنظراً عظيماً، فظن انه الخليفة وتداخلته له هيبة وروعة، حتى قيل له إنه الحاجب. وحمل من بعد ذلك الى الدار التي كانت برسم الوزير، وفيها مجلس أبي الحسن علي بن محمد الفرات يومئذ، فرأى أكثر مما رآه لنصر الحاجب ولم يشك في انه الخليفة، حتى قيل له هذا الوزير، وأجلس بين دجلة والبساتين في مجلس قد علقت ستوره واختيرت فروشه، ونصبت فيه الدسوت، وأحاط به الخدم بالأعمدة والسيوف. ثم استدعي ـ بعد ان طيف به في الدار ـ إلى حضرة المقتدر بالله، وقد جلس وأولاده من جانبيه، فشاهد من الأمر ما هاله. ثم انصرف الى دار قد أعدّت له»[١٠].

وكان شعور الناس بعظم بغداد وأهميتها كبيراً، حتى إنه قيل «بغداد جنة الأرض ومدينة السلام وقبة الاسلام ومجمع الرافدين وغرّة البلاد وعين العراق ودار الخلافة ومجمع المحاسن والطيبات ومعدن الظرائف واللطائف، وبها أرباب الغايات في كل فن، وآحاد الدهر في كل نوع، وكان أبو اسحق الزجاج يقول: بغداد حاضرة الدنيا وما

عداها بادية. وكان أبو الفرج الببغا يقول: هي مدينة السلام بل مدينة الاسلام، فإن الدولة النبوية والخلافة الاسلامية بها عششتا وفرّختا وضربتا بعروقهما وبسقتا بفروعهما، وان هواءها أغذى من كل هواء وماءها أعذب من كل ماء، وان نسيمها أرقّ من كل نسيم، وهي من الاقليم الاعتدالي بمنزلة المركز من الدائرة، ولم تزل بغداد موطن الاكاسرة في سالف الأزمان ومنزل الخلفاء في دولة الاسلام»[١١].

ولعمار بن عقيل ابيات في بغداد:

ما مثل بغداد في الدنيا ولا الدين ... على تقلّبها في كل ما مين
ما بين قطربلّ فالكرخ نرجسه ... تندى، ومنبت خيريّ ونسرين
تحيا النفوس بريّاها، اذا نفحت، ... وخرّشت بين اوراق الرياحين
سقياً لتلك القصور الشاهقات وما ... تخفي من البقر الانسية العين
تستنّ دجلة فيما بينها، فترى ... دهم السفين تعالى كالبراذين
مناظر ذات ابواب مفتّحة، ... انيقة بزخاريف وتزيين
فيها القصور تهوى، بأجنحة، ... بالزائرين الى القوم المزورين
من كل حرّاقة تعلو فقارتها، ... قصر من الساج عالٍ ذو اساطين[١٢]

ومن ألطف ما قيل في التشوق الى بغداد ابيات لمحمد النيرماني يقول فيها:

فدى لك يا بغداد كل مدينة ... من الأرض، حتى خطّتي وديارياً
فقد طفتُ في شرق البلاد وغربها، ... وسيّرت خيلي بينها وركابيا
فلم ار فيها مثل بغداد منزلاً، ... ولم ار فيها مثل دجلة واديا
ولا مثل اهليها ارقّ شمائلاً، ... واعذب الفاظاً، واحلى معانيا
وقائلة: لو كان ودّك صادقاً ... لبغداد لم ترحل، فقلت جوابيا:
يقيم الرجال الموسرون بأرضهم، ... وترمي النوى بالمقترين المراميا[١٣]

في اواخر القرن السادس (الثاني عشر) زار ابن جبير الرحالة الكبير بغداد. وقد ترك لنا الكثير عنها. فمن ذلك وصفه للمارستان اذ يقول: «فيها المارستان الشهير ببغداد وهو على دجلة وتتفقّده الاطباء كل يوم اثنين وخميس ويطالعون احوال المرضى به ويرتّبون لهم أخذ ما يحتاجون إليه وبين ايديهم قوَمة يتناولون طبخ الادوية والاغذية، وهو قصر كبير فيه المقاصير والبيوت وجميع مرافق المساكن الملوكية والماء يدخل اليه من دجلة»[١٤].

وقال ابن جبير عن الجهة الشرقية من بغداد: «والشرقية حفيلة الاسواق عظيمة الترتيب تشتمل من الخلق على بشر لا يحصيهم الا الله تعالى الذي احصى كل شيء عدداً. وبها من الجوامع ثلاثة كل يجمع فيها جامع الخليفة متّصل بداره، وهو جامع

كبير وفيه سقايات عظيمة ومرافق كثيرة كاملة، مرافق الوضوء والظهور، وجامع السلطان وهو خارج البلد ويتصل به قصور تنسب للسلطان أيضاً معروف بشاه شاه، وكان مدبّر امر اجداد هذا الخليفة، وكان يسكن هنالك فابتنى الجامع امام مسكنه، وجامع الرّصافة وهو على الجانب الشرقي المذكور وبينه وبين جامع هذا السلطان المذكور مسافة نحو الميل. وبالرصافة تربة الخلفاء العباسيين رحمهم الله فجميع جوامع البلد ببغداد المجمّع فيها احد عشر، واما حماماتها فلا تحصى عدة ... والمدارس بها نحو الثلاثين وهي كلها بالشرقية وما منها مدرسة الا وهي يقصر القصر البديع عنها، واعظمها واشهرها النظامية، وهي التي ابتناها نظام الملك وجدّدت سنة اربع وخمسمائة. ولهذه المدارس اوقاف عظيمة وعقارات محبسة تتصيّر الى الفقهاء المدرّسين بها ويجرون بها على الطلبة وما يقوم بهم. ولهذه البلاد في أمر هذه المدارس والمارستانات شرف عظيم وفخر مخلّد فرحم الله واضعها الاول ورحم من تبع ذلك السنن الصالح»[١٥].

وأُعجب الرحالة المغربي، وهو العالم الفقيه الأديب، بالمدرسة النظامية فقال يصف درساً حضره فيها:

«فأول من شاهدنا مجلسه منهم الشيخ الإمام رضي الدين القزويني رئيس الشافعية وفقيه المدرسة النظامية والمشار اليه بالتقديم في العلوم الاصولية. حضرنا مجلسه بالمدرسة المذكورة اثر صلاة العصر من يوم الجمعة الخامس لصفر، فصعد المنبر واخذ القراء أمامه في القراءة على كراسي موضوعة، فتوقوا وشوقوا واتوا بتلاحين معجبة ونغمات محرجة مطربة، ثم اندفع الشيخ الإمام المذكور، فخطب خطبة سكون ووقار، وتصرف في أفانين من العلوم، من تفسير كتاب الله عز وجل، وايراد حديث رسول الله ﷺ، والتكلم على معانيه. ثم رشقته شآبيب المسائل من كل جانب فأجاب وما قصر، وتقدم وما تأخر. ودفعت اليه عدة رقاع فيها فجمعها جملة في يده، وجعل يجاوب على كل واحدة منها وينبذ بها الى ان فرغ منها، وحان المساء فنزل وافترق الجميع. فكان مجلسه مجلس علم ووعظ وقوراً هيناً ليناً ظهرت فيه البركة والسكينة»[١٦].

في سنة (٦٥٦ ـ ١٢٥٨) احتل هولاكو بغداد ودمرها تقريباً. ومع ذلك فقد ظل لها الكثير من النشاط. وهذا ابن بطوطة الذي زارها بعد ذلك بما يقرب من القرن يحدثنا عن المدرسة المستنصرية على انها قائمة. يقول ابن بطوطة:

«وهذه الجهة الشرقية من بغداد حافلة الاسواق عظيمة الترتيب، واعظم اسواقها سوق يعرف بسوق الثلاثاء، كل صناعة فيه على حدة. وفي وسط هذا السوق المدرسة النظامية العجيبة التي صارت الامثال تضرب بحسنها. وفي آخره المدرسة المستنصرية، ونسبتها الى امير المؤمنين المستنصر بالله ابي جعفر ابن امير

المؤمنين الظاهر ابن أمير المؤمنين الناصر. وبها المذاهب الاربعة، لكل مذهب ايوان فيه المسجد وموضع التدريس، وجلوس المدرس في قبة خشب صغيرة على كرسي عليه البسط ويقعد المدرس وعليه السكينة والوقار، لابساً ثياب السواد معتماً، وعلى يمينه ويساره معيدان يعيدان كل ما يمليه، وهكذا ترتيب كل مجلس من هذه المجالس الأربعة. وفي داخل هذه المدرسة الحمام للطلبة، ودار الوضوء»[١٧].

الهوامش

(١) لمحات في تاريخ العرب، ١٦١، ص ١٩٧.
(٢) نفس المكان، ص ١٩٧ـ١٩٨.
(٣) ياقوت الحموي، ج ١ ص ٤٥٧ـ٤٥٨.
(٤) نفس المكان، ج ١، ص ٤٥٨.
(٥) نفس المكان، ج ١، ص ٤٥٨.
(٦) نفس المكان، ج ١، ص ٤٥٩.
(٧) نفس المكان، ج ١، ص ٤٥٩.
(٨) نفس المكان، ج ١، ص ٤٦٠ـ٤٦١.
(٩) رفاعي، أحمد فريد: عصر المأمون جزء ١، القاهرة، دار الكتب، ١٩٢٧، ص ٣٧٧.
(١٠) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، القاهرة، مكتبة خانجي، ١٩٣١، ج ١، ص ١٠٠ـ١٠١.
(١١) ياقوت الحموي، ج ١، ص ٤٦١.
(١٢) نفس المكان، ج ١، ص ٤٦٢.
(١٣) نفس المكان، ج ١، ص ٤٦٤.
(١٤) ابن جبير، ص ٢٢٥ـ٢٢٦.
(١٥) نفس المكان، ص ٢٢٨ـ٢٢٩.
(١٦) نفس المكان، ص ٢١٩.
(١٧) ابن بطوطة، ج ١، ص ١٧٥.

الأهلية للنشر والتوزيع